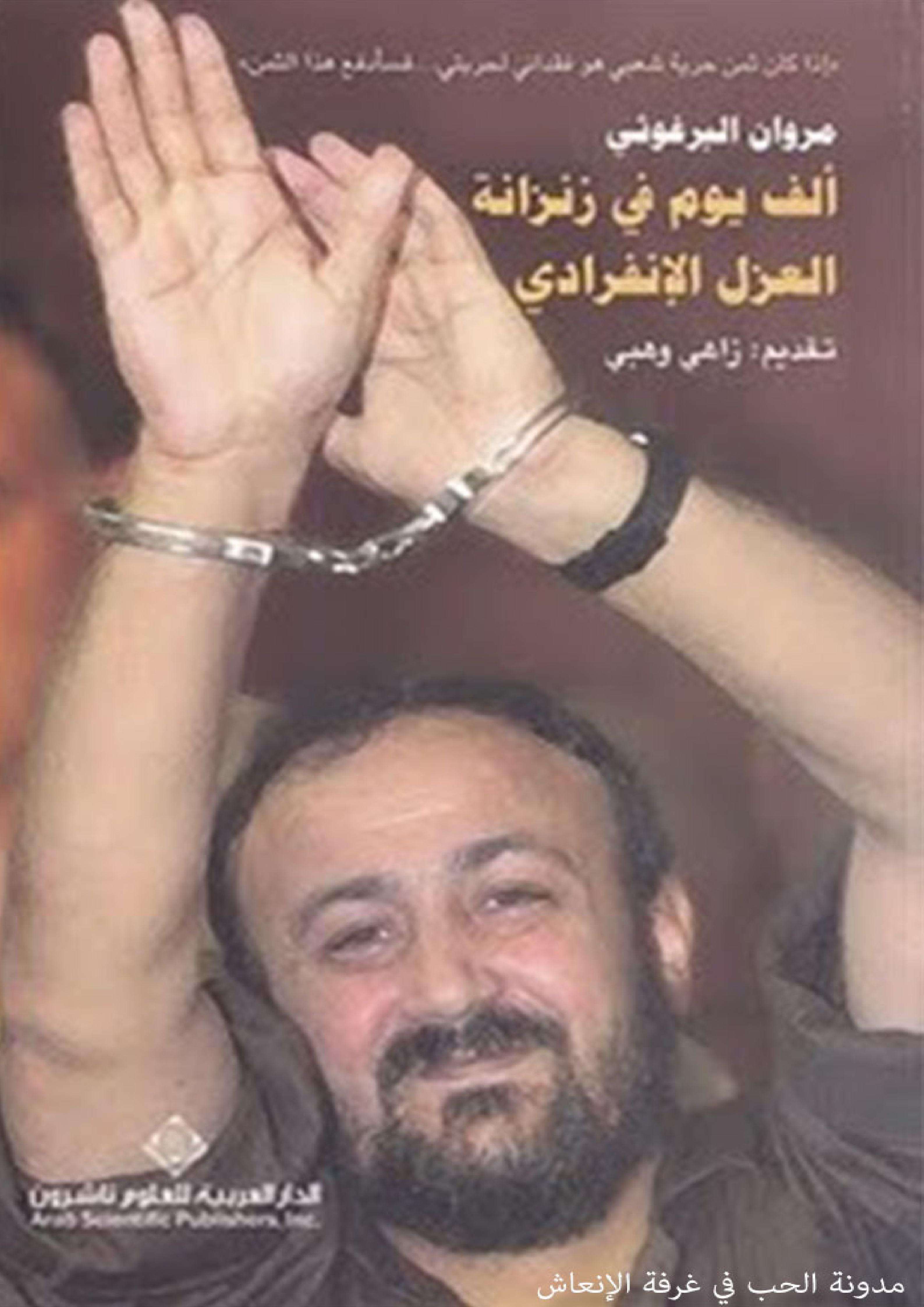

«إذا كان ثمن حرية شعبي هو فقداني لحريتي.. فسأدفع هذا الثمن»
مروان البرغوثي
ألف يوم في زنزانة
العزل الإنفرادي
تقديم: زاهي وهبي
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
مدونة الحب في غرفة الإنعاش

لمزيد من الكتب والروايات تفضلوا بزيارة
مدونة الحب في غرفة الإنعاش
تابعونا عبر تويتر mjanen23@
فيس بوك 3abeth

ألف يوم في زنزانة
العزل الإنفرادي

http://mzaj4.blogspot.com/


http://mzaj4.blogspot.com/

ألف يوم في زنزانة العزل الإنفرادي

مروان البرغوثي

تقديم ومراجعة

زاهي وهبي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

http://mzaj4.blogspot.com/



الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0123-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

http://mzaj4.blogspot.com/

المحتويات

http://mzaj4.blogspot.com/


http://mzaj4.blogspot.com/

الإهداء

إلى حارسة حلمي ورفيقة دربي وشريكة عمري. . .

إلى حبيبتي وزوجتي وأم أولادي الأستاذة المحامية المناضلة فدوى البرغوثي التي قدمت نموذجاً ومثالاً رائعين للمرأة الفلسطينية والعربية. . .

إلى أولادي الأحبة: القسّام، رُبى، شَرف وعرب. . .

إلى أبناء الشعب العربي الفلسطيني العظيم. . .

إلى أبناء الأمة العربية والإسلامية. . .

إلى كل المناضلين والمقاومين للاحتلال والاستعمار والاستبداد والظلم والقهر في كل مكان. . .

إلى أخوة القيد والزنزانة والأسر والاعتقال

مروان البرغوثي

http://mzaj4.blogspot.com/



http://mzaj4.blogspot.com/

وعدُ الحُرّ.. والحرّيّة

زاهي وهبي

ثمة وعد يجمعني بمروان البرغوثي. وعدٌ خاصّ، يُضاف إلى مشتركات وأحلام كثيرة. وعدُ حرية آتية لا مَحال واستضافة منتظَرة في برنامج «خليك بالبيت». سبق لي أن تمنيت الأمر نفسه لسهى بشارة، أنور ياسين، نبيه عواضة، عبد الكريم عبيد، سمير القنطار والعشرات من الأسرى، وتحققت الأمنية.

نعم، تحققت الأمنية، خرج أولئك المناضلون من زنازين أسرهم الطويل، تحرروا من قبضة الاحتلال الإسرائيلي البغيض، وانطلقوا في فضاء الحرية التي استحقوها بجدارة بعد أن منحوها زهرة العمر ونضارة الأحلام، وحلّوا ضيوفاً استثنائيين في برنامج حمل صوتهم وقضيتهم على مدار الأيام.

والأمنيات لا تتحقق بسحر ساحر، أو بمصادفات قدرية. إنها حتمية الأمل. لا يستطيع سجّان مهما أوتي من مقدرة على الظلم والعسف والجور كسر إرادة مناضل حرٍّ، ولا يقوى سجن مهما بلغت قضبانه الحديدية من صلابة أن تحجب شمس الحرية المشرقة حتماً في سماء مروان البرغوثي ورفاقه الأسرى الذين تزج بهم دولة الاغتصاب الإسرائيلي بالآلاف في سجرنها وزنازينها وهي تحاول عبثاً اعتقال الحلم الفلسطيني بالحرية والاستقلال.

http://mzaj4.blogspot.com/

طبعاً، ليست الأمنيات وحدها التي تصنع الحرية، ولا الأمل الذي نعتصم بحبله يكفينا شر القتال. فالحرية دونها تضحيات تُكتب بالدم والدمع والحبر وكل ما نستطيع إليه سبيلاً من أشكال مقاومة المحتل الذي لا يفهم لغة أخرى ولا يرضخ إلا للقوة. وأمثال مروان البرغوثي من المناضلين والقادة هم مكمن القوة وصنّاعها، لذا، فإنهم يغدون هدفاً ثميناً لعدو شرس متغطرس لكنه مهزوم حتماً في نهاية المطاف.

لا يستطيع الحبر مجاراة الدم أو الدمع، وليس مطلوباً منه ذلك. لكنه على الأقل يستطيع المساهمة في التصدي لعمليات الطمس والنسيان، و«قرع جدران» الخزان كي لا يصيبنا ما أصاب رجال غسان كنفاني، فلا نعطي ذريعة لمتخاذلٍ أو متآمرٍ أو لامبالٍ ليسألنا بعد فوات الأوان: «لماذا لم تدقوا على الخزان». لنرفع الصوت عالياً دفاعاً عن قضية عادلة نبيلة هي قضية الشعب الفلسطيني في جلجلته المتواصلة لأجل قيامة الحرية ودولة الاستقلال، ومن ضمن هذه القضية تتفرع قضايا لا يجوز إهمالها أو تجاوزها، ومنها بل وفي مقدمتها، قضية آلاف الأسرى القابعين في سجون الاحتلال الإسرائيلي ومعتقلاته، من دون أن تحظى ولو بالحدّ الأدنى من الاهتمام الأدبي والإعلامي، والسؤال المُحيِّر، هو التالي: إذا كنا قد بتنا يائسين من «الواقع الرسمي» العربي، فما الذي يمنع الأدباء والفنانين والإعلاميين من إيلاء هذه القضية السامية بعض ما تستحق؟ أم أن هناك «استقالة» جماعية من كل ما يمتّ للضمير بصلة؟! إن الخزان الذي لم يدقَّ على جدرانه أبطال غسان كنفاني في روايته الفريدة **رجال في الشمس** في ترميز بالغ الدلالة، يغدو هنا الصمت المُريبُ الذي نشارك فيه جميعاً حيال قضية أخلاقية/

http://mzaj4.blogspot.com/

ثقافية بامتياز قبل أن تكون فقط وطنية أو قومية وهي قضية الأسرى التي تكاد تجعلنا أسرى عجزنا أو لامبالاتنا؟

بدأتُ هذا التقديم بالإشارة إلى وعد استضافة مروان البرغوثي في «خليك بالبيت»، لأن هذا البرنامج كان صلة الوصل الأولى بيني وبين مروان، ليس فقط من خلال استضافة زوجته المناضلة الفاضلة المحامية فدوى البرغوثي والعلاقة الأسرية التي نشأت بين أسرتي وأسرته، بل من خلال تبني البرنامج لقضية الأسرى وتسليط الضوء عليها مراراً وتكراراً منذ انطلاقته قبل عقد ونصف العقد من السنين. ولعل خوضي التجربة نفسها ذات اجتياح (صيف العام 1982) في المعتقلات الإسرائيلية في «عتليت» (فلسطين المحتلة) و«أنصار» (جنوب لبنان) جعلني أكثر إدراكاً لأهمية حضور قضية الأسرى في الإعلام، ومدى الأثر الطيب الذي تتركه في نفوسهم والمساهمة في رفع معنوياتهم. خصوصاً إذا ما تسنى لهم مشاهدة التلفزيون كما يحصل في بعض سجون الاحتلال، لا بفضل «الديمقراطية الإسرائيلية» المزعومة، بل بفعل النضال المرير الذي خاضته «الحركة الأسيرة» عبر عقود من الزمن في سبيل تحقيق بعض الإنجازات وتحصيل بعض الحقوق المشروعة دافعة في مشوار كفاحها لأجل ذلك العديد من الشهداء والجرحى.

في هذا الكتاب الذي راجعته من دون تدخّل كبير في صياغته أو ما يتضمنه من مواقف وآراء هي ملك صاحبها، وتركته ينساب بلغة التجربة الحارة وعفوية السرد التلقائي، لأن المتحدث هنا هو القائد والمناضل السياسي والميداني وليس الأديب أو الشاعر، فعلى الرغم من الثقافة العالية وسعة الاطلاع اللتين يتمتّع بهما مروان، يظل لكلٍّ من لغته وأسلوبه، في هذا الكتاب الذي يأتينا من خلف

http://mzaj4.blogspot.com/

القضبان الحديدية ليُنيرَ بحبره عتمة الزنزانة، يروي البرغوثي الذي لا يـزال حتـى الآن قابعـاً فـي سـجنه تجربـة العزل الانفرادي خلال الفترة الممتدة من العام 2002 إلى العام 2005 ليقدم شهادة مناضل استثنائي أمضى جلّ عمره في الميدان، لم يكتفِ من النضال بالتنظير أو التحريض، بل نزل إلى السـاحة وخاض كسـواه من أبناء شـعبه صراعاً يومياً مع الاحتلال، ومارس المقاومة بأشكالها كافة وعاش الاعتقال والتحقيق والإبعاد، قبل أن «يعود» مجدداً إلى زنزانة العزل الانفـرادي التـي لـم يسـتطع جلادوهـا، كمـا يتضح فـي الصفحات التاليـة، كسـر إرادة قائـد فـرض احترامه علـى خصومه قبل مؤيديه. وهي شهادة مكتوبة بحبر الصبر والصمود، مثلما هي مكتوبة بحبر الوعي والمعرفة وثقافة التجارب الكبرى التي خاضها أسوّة بشعبه الجبار، وسيستشف قارئ الكتاب مدى الإدراك الذي يتمتع به هذا المناضـل لـكل مـا يحيـط بـه ويجري حوله، كما سيكتشـف الأبعاد المتعـددة لشـخصيته الفـذّة: القائـد، المناضل، السياسـي، المُثقف، الـزوج، الأب، وكلهـا صفـات مسـبوقة بصفـة أنبـل وأهمّ هي صفة الانسان التي يجسدها مروان البرغوثي.

يُعرِّي مروان البرغوثي في كتابه الوحشـية الإسـرائيلية كاشـفاً الطبيعة «النازية» لمعتقلات الاحتلال الإسرائيلي وأساليب التعذيب الهمجـي التـي يمارسـها ضبـاط الاحتـلال وجنـوده بحق الأسـرى والمعتقليـن. ولئـن كان قائـد سياسـي وعضـو برلمـان منتخـب من قبل شـعبه قد تعرض لكل هذه الوحشـية، فما بالنا ببقية الأسـرى والمعتقلين ممن لم يحظوا بفرصة اهتمام إعلامي أو سياسي... أو حتى بمجرد محاكمة باطلة ببطلان الاحتلال نفسـه كما أكد مروان في مرافعته أمام التاريخ لا أمام المحكمة؟!

http://mzaj4.blogspot.com/

لا تكتمل كتابة عن مروان البرغوثي من دون إشارة - غير مُنصفة مهما بلغت مودتها لأن «أم القسام» تستحق أكثر دائماً - إلى المناضلة فدوى البرغوثي أو «حارسة الحلم» كما يسميها مروان في الكتاب، وإلى نضالها المستمر كي تبقى قضية زوجها ورفاقه الأسرى حيةً في الضمير والوجدان. فهذه المناضلة التي جالت أكثر من أربعين دولة - وكان لي شرف مشاركتها إحداها واستضافتها ثلاث مرات في «خليك بالبيت» - تمثل نموذجاً حياً للمرأة الفلسطينية: حبيبةً وزوجةً وأماً مناضلة على كل الجبهات، مثلما يمثل مروان نموذجاً حياً، لا للمناضل فحسب بل أيضاً للزوج والأب كما نستشف من رسائله إلى زوجته وأبنائه (اقرأ رسالته إلى القسام ص 174) الذي خاض أكبرهم كما أبيه تجربة الأسر والاعتقال.

أكتبُ هذه الكلمات مشحوناً بقوة الأمل التي تؤكد لي أن اليوم الذي سيكسر فيه مروان البرغوثي أبواب سجنه آتٍ لا ريب فيه، مثلما هو آتٍ يوم إعلان الدولة الفلسطينية الحرة المستقلة وعاصمتها القدس وسيكون لقاؤنا - كما كتب لي في إحدى رسائله - «في القدس المحررة حيث ستحظى بمتعة الجلوس على أسوار القدس لتشعر أنك تتربع على عرش حضاري يمتد آلاف السنين، وحيث نحتسي فنجان قهوة في البلدة القديمة على أصداء أذان المسجد الأقصى وصوت أجراس كنيسة القيامة، ومن ذلك البهاء تُقدم برنامجاً بعنوان «خليك بالقدس»...».

كلّي ثقة أن هذا سيحصل، لا لمجرد الحماسة ورفع المعنويات، ولا لمجرد المجاز والاستعارة والإنشاء اللغوي، بل لأن لديَّ إيماناً عميقاً راسخاً أخضر مثمراً بأن تضحيات الشعب الفلسطيني ستزهر يوماً في رايات النصر اليانعة وفي بيارق الحرية السمراء كوجوه أبناء

http://mzaj4.blogspot.com/

التراب الذين ملّحوا الأرض بأجسادهم ووسّعوا الفضاء بأرواحهم الحرة المحلقة رغم قيد السجّانين وكيد المحتلين.

غداً
لن يبقى من الجدار سوى أثر الجدار
لن يبقى من الحصار سوى حكايات الحصار
لن يبقى من النار سوى بقايا النار.
غداً
تتهاوى غربان الفولاذ
تصير مصفحاتهم خردة
وعلى نجمة الضغينة يدوس طفلٌ من فلسطين(*)

من الآن وإلى حينه، تحية لمروان البرغوثي وأسرته (فدوى، ربى، القسام، شرف، عرب) وإلى شعبه الذي يجعلنا بصبره وصموده، كلّما ازداد الاحتلال الإسرائيلي بطشاً وضراوة، نزدادُ إيماناً بأنّ هذا الاحتلال إلى زوال محتوم، وبأن الصبح قريب مهما طال الليل، والاتكال ليس فقط على حتمية التاريخ، بل على حتمية التحرير، وهذا ما نستشفه بكل عذوبة وسلاسة من هذا الكتاب - رغم قساوة التجربة - الذي يعلمنا أمثولة في الصبر والصمود في مواجهة أساليب التعذيب الدنيئة التي يمارسها السجّان الإسرائيلي، فضلاً عن معاناة الأسر وصلابة المناضل حين يكون «بصيغة» مروان البرغوثي. ويشكّل وثيقةً هامة من الذاكرة النضالية للشعب الفلسطيني وهي ذاكرة للمستقبل الحامل معه لا مناصّ، الحرية الساطعة في قسمات أبي القسّام ورفاقه.

(*) من قصيدة «نجمة الضغينة» للشاعر.

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الأول

المواجهة

(إذا كان ثمن حرية شعبي
فقدان حريتي... فسأدفع هذا الثمن)

http://mzaj4.blogspot.com/



http://mzaj4.blogspot.com/

المواجهة

في المسلخ:

كانت قرابة الرابعة عصر يوم الاثنين 2002/4/15، عندما وجدت نفسي داخل غرفة التحقيق، في معتقل المسكوبية في مدينة القدس المحتلة، وهو واحد من أشهر وأخطر مراكز التحقيق الخاضعة لجهاز الأمن العام الصهيوني، «الشاباك».

يطلق الأسرى على معتقل المسكوبية اسم «المسلخ» لما يُمارَس فيه من قمع وتعذيب وانتهاكات تعسفية بحق الأسرى، وقد استشهد العديد من الأسرى في هذا المعتقل خلال خضوعهم للتحقيق العنيف والمحرّم دولياً.

جدير بالذكر أن المسكوبية هو مبنى تابع لأملاك الكنيسة الروسية، تم الاستيلاء عليه بالقوة، ويشتمل على عشرات الغرف والأقسام للاعتقال والتوقيف، إضافة إلى قسم للتحقيق.

حتى عام 1994 تاريخ إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية، ظلت دولة الاحتلال تحتفظ بمراكز للتحقيق في مختلف المدن الفلسطينية مثل القدس، ورام الله، وبيت لحم، والخليل، ونابلس، وجنين وطولكرم، والفارعة قرب طوباس، والظاهرية قرب الخليل، وغزة، إضافة إلى مراكز المسكوبية، وصرفند، وبيتح تكفا، والجلمة، وبعض المراكز السرية.

بعد إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية، أصبحت المسكوبية، وبيتح تكفا، والجلمة، وعسقلان، وعوفر، إضافة إلى المركز السري للتحقيق رقم 1391، ومراكز أخرى غير معروفة، من أهم مراكز التحقيق والتوقيف

http://mzaj4.blogspot.com/

التابعـة للمخابـرات الإسـرائيلية، «الشـاباك»، وذلـك بعـد إغـلاق مراكـز التحقيق في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كان المشـهد الاحتفالـي واضحـاً علـى ضبـاط ورجـال «الشـاباك» لاعتقالي...فهـي لحظـة كانـوا يشـعرون فيهـا بالنجاح والتفـوق، وكانت تزيد من شـعورهم بالغرور والغطرسـة، خاصة وأن ذلك أتى بعد فشـل أكثر من محاولة لاغتيالي باستخدام الوسائل والأشكال كافة.

لقـد ظنـوا واهميـن أنهـم باعتقالـي قد اعتقلـوا الانتفاضة... هذا ما ظهـر علـى قسـمات وجوههـم، وكأن الانتفاضـة العظيمة سـتتوقف، غير مدركيـن أنهـا حركـة مقاومـة شـعبية لا تتوقـف باعتقال فـرد ولا باعتقال المئات والآلاف...

دخـل إلـى غرفـة التحقيـق خـلال السـاعات الأولى عـدد كبير من قـادة وضبـاط المخابـرات ليتأكدوا بأنفسـهم أن الـذي أمامهم هو مروان البرغوثي. كانت نظرات حقد صفراء وكراهية عنصرية تفوح من سيماهم وكلماتهم وحركاتهم المحمومة التي لا تخلو من الاستعراض.

كان من بين قادة وضباط المخابرات أولئك، رئيس قسم التحقيق فـي «الشـاباك» الـذي قـدّم نفسـه باسـم «أبـو شـريف»، وهـو فـي العقد الخامـس مـن عمـره، يتحـدث بمنتهـى الوقاحة والصلـف، ومارس على مـدى سـنوات طويلـة مهنـة التحقيـق مـع آلاف المناضليـن مُفرغاً الكثير من حقده الصهيوني وكراهيته للفلسطينيين والعرب.

يُفترض ألاّ تكون حياً

بعد مضي ساعتين على وجودي في غرفة التحقيق في المسكوبية، دخل مسؤول كبيرٌ أظهر له الحاضرون احتراماً خاصاً، سألني مباشرة إن كنت أعرفه أو أتذكره، ولكن، لم أتمكن من ذلك، وعندما قال لي: هل

http://mzaj4.blogspot.com/

تذكر التحقيق عام 1978 في زنازين رام الله؟ حينها تذكرت. تفحصت وجهه بدقة وقلت له: نعم أنت المدعو «غزال» فأبلغني «غزال» أنه الآن نائب رئيس «الشاباك»، وأن اسمه عوفر، (نشر اسمه كاملاً بعد استقالته عام 2005 وهو «عوفر ديكل») أجاب إنه حين كان يعمل منسقاً مع المسؤولين الأمنيين الفلسطينيين في السلطة، أرسل إليّ تحذيرات شديدة، وإنني لم أبدِ أي تراجع، ويُفترض ألاّ أكون حياً. أضاف عوفر قائلاً إنني أضعت عمري ومستقبلي وهو لا يظن أنه سيكون لي مستقبل، فهذه هي النهاية، وأنني سأمضي ما تبقى من عمري بين جدران السجن ووراء القضبان».

حدقت في عينيه، متذكراً إياه يوم كان شاباً يدعى «غزال»، حين شارك في التحقيق معي عام 1978، أي قبل ربع قرن، وها نحن نلتقي من جديد والمعركة لم تنتهِ بعد...

إنها المعركة بين مناضل من أجل حرية شعبه وبلاده، وبين قاتلٍ ومحتلٍ وسجّانٍ وجلادٍ يرتكب الجرائم، إننا نلتقي ولا أزال ممسكاً بيدي راية الحرية والمقاومة.

كنت أتوقع أن يشعر المحقق «غزال» بالفشل والخزي، لأن طالب المرحلة الثانوية الذي التقاه قبل ربع قرن لم يهدأ، ولم يرتدع، بل واصل مشواره أكثر صلابة وعناداً، لتستمر مسيرة الحرية والنضال، ما دام «غزال» الذي يمثل الاحتلال وصَلفَ المحتلين موجوداً على الأرض الفلسطينية.....

قلت له: أنت كبرت مع القوة والاضطهاد، ولكنني كبرت مع الشموخ والقوة، شموخ شعبي وإبائه، القوة لا محالة زائلة، أما الشعوب وإرادتها فهي الباقية.

http://mzaj4.blogspot.com/

في حضرة خبير التحقيق، وجلاد المعتقلين «غزال»، تذكرت ذلك التحقيق الوحشي الذي تعرضت له، يومها، شارك فيه ثلاثة محققين، كان أكثرهم بشاعة وقسوة ووحشية ضابط يُدعى «سامي». على أيديهم الملوثة بآلام أبناء شعبي تعرضت في العام 1978 إلى تعذيب جسدي ونفسي، وشَبْحٍ وضَرْبٍ وإهانةٍ وتحقيرٍ وتهديدٍ، حيث كانوا مصرّين على اتهامي بعضوية خلية فدائية فتحاوية، صدرت في ما بعد بحقّ عدد من أفرادها أحكام بالسجن المؤبد ومدى الحياة، ولا يزالون منذ ذلك الحين في السجون الإسرائيلية، ومن بينهم فخري البرغوثي أبو شادي(*)، ونائل البرغوثي أبو النور(**)، وكان معظم المعتقلين آنذاك يتعرضون لأقسى أنواع التعذيب الوحشي، ولا أعتقد أنني تعرضت للأقسى منها بل ربما للمتوسط، ومن أبرزها الشَبْح، أي الوقوف مقيد القدمين واليدين إلى الجدار ساعات طويلة، إضافة إلى وضع كيس كبير نتن تصدر منه رائحة كريهة على رأسي، يغطي وجهي ويعيق تنفسي، ومن المستحيل تحريكه خلال مدة الشَبْح الطويلة، لتمسي الحياة والدنيا أمامك مظلمتين داكنتين موحشتين، فيهما أشباح مخيفة.

إن وجود «غزال» أمامي الآن، جعلني بشكل غير واعٍ أتحسس جسدي وأستدعي آلامي كلها، وخاصة عندما أصرّ المحقق سامي أن أخلع ملابسي كلها، وأجبرني على الوقوف عارياً تماماً، الأمر الذي كان صعباً وشاقاً في حينه على طالب مدرسة لم يتعرّ في حياته إلا طفلاً، وأصرّ ذلك المحقق أن أقوم بفتح ساقيَّ، ليوجّه ضربة صاعقة على أعضائي التناسلية، وكانت شديدة جداً، فأغمي عليّ تماماً...عندما

(*) فخري البرغوثي – سكان قرية كوبر – قضاء رام الله – اعتقل في 1978/6/23 وحكم عليه بالسجن المؤبد ولا يزال في السجن.

(**) نائل البرغوثي – سكان قرية كوبر – قضاء رام الله – اعتقل في 1978/4/4 وحكم عليه بالسجن المؤبد ولا يزال في السجن.

http://mzaj4.blogspot.com/

أفقت وجدت نفسي مستلقياً على الأرض، وقد سال الدم من رأسي لارتطامه بالجدار الخشن، وترك جرحاً أبدياً في جبيني، لقد استيقظت بعد أن سكب المحققون الماء على رأسي، بينما كان صوت المحقق سامي يهدر في أذنيَّ قائلاً بشماتة: «الآن أعتقد أنك لن تستطيع إنجاب الأطفال، ستحرم مدى الحياة من الإنجاب، لأن أمثالك لن ينجبوا سوى المخربين والقتلة».

الآن، في هذه اللحظة كنت أتمنى رؤية المحقق سامي لأقول له: إن ابني قسّام صار رجلاً، حمل الراية والفكرة، كما هو حال آلاف الشبان المناضلين. لم تمت الفكرة، وفلسطين ليست بعاقر كما توهمتم.

إن كل ما تعرضت له كان مثالاً بسيطاً لما تعرّض له عشرات الآلاف من المناضلين الذين تحدوا الجلادين والسجّانين المحتلين.

أفضّلُ الموت على العيش عبداً تحت احتلالكم

لقد تذكرت هذا الرجل عوفر ديكل - غزال - (يجلس قبالتي، وهو الآن برتبة جنرال في «الشاباك»، ونائب رئيس الجهاز) وتذكرت كل ما مرّ معي منذ ربع قرن، وأنا أواصل مع شعبي ومواكب المناضلين والمجاهدين مسيرة الحرية والكفاح في سبيل العودة والاستقلال.

رغم وجودي أسيراً لدى هذا الذي اختطفني من وسط أبناء شعبي، إلا أنني تحدثت معه بعزة وكرامة وكبرياء وطنية، بل وبفخر برحلة العمر النضالية، وجدت نفسي أكبر من كل رتبه ومناصبه العسكرية، وظهر أمامي صغيراً عندما قال: «هذه غلطة العمر بالنسبة إليك» فرددت عليه: «ليس هناك من خطأ، فالشعب الذي سعى للحرية لا يخطئ أبداً... ومثلما تجاوزت التحقيق والاعتقال قبل ربع قرن في أول لقاء ومواجهة لنا سترى، أنني سأتجاوز هذه المرة أيضاً، وعليك أن تتوقع أن نلتقي أكثر

http://mzaj4.blogspot.com/

من مرة ما دمت سجّاناً ومحتلاً، وما دمت أنا طالب حقٍّ وحرية».

وقبـل أن يفتـح فمـه بالإجابـة قلـت لـه: «إننـي أفضّـلُ الموت على العيش عبداً تحت احتلالكم وبساطيركم... أعتز بالانتفاضة العظيمة التي لن تتوقف إلا برفع رايات النصر في مدينة القدس عاصمة فلسطين».

سمع هذا الجنرال ومن معه كلماتي، وغادروا من دون رجعة، وبعد ذلك بدقائق، دخل فريق من المحققين، وطلب مني أحدهم الجلوس على كرسي مثبت بالحديد في زاوية الغرفة، وقام بتقييد قدميَّ إلى الكرسي، وكذلك وُضعت يداي حيث تم إخراجهما من خلف الكرسي وراء ظهري وتم تقييدهما، وأُجلِسـت في هذه الوضعية العجيبة لتبدأ رحلة العذاب في التحقيق لأكثر من مئة يوم من الاستجواب المتواصل.

كان الكرسـي الذي جلسـت عليه مثبتاً إلى الأرض بعقدة صغيرة مـن البلاسـتيك السـميك والجامـد، بأوتـاد من الحديـد، وله ظهر مندفع غيـر مريـح مـع القيـود مـن الخلف، بحيث يجعل ظهر الإنسـان في حالة تقوس، وهو أسلوب تعذيب يُطلق عليه كسر الظهر.

أما أرضية الكرسـي ففيها أربعة نتوءات تسـبب الألم، وتجعل من الجلوس عليها لوقت طويل مهمة شاقة، بل دامية أحياناً.

منذ اليوم الأول وضع المحقق العصابة السوداء على عينيّ، وهي وشديدة الظلمة لا ترى عبرها ومن حولك شيئاً.

دخل غرفة التحقيق عدد من المحققين، وعرّفوا عن أنفسهم بأسماء عربية في الغالب، ما عدا بعضهم، وكان هناك طاقم ثابت من المحققين مكوّن من ثمانية ضباط ذكروا أسماءهم جميعاً، ولا أزال أحفظها حتى الآن، مثـل «جابـي»، «إيميليـو»، «آدم»، إضافـة إلى أنهم كانوا يسـتعينون بفريق آخر مكوّن من قرابة العشـرين ضابطاً أو أكثر، ليبلغَ مجموع من شاركوا في التحقيق قرابة الثلاثين ضابطاً.

http://mzaj4.blogspot.com/

تبادلت تلك الزبانية من المحققين الأدوار خلال جولات التحقيق على مدار الأربع والعشرين ساعة. استخدموا معي أسلوب منع النوم، بل حتى منع إغماض عينيّ، وكلما حاولت أن أنام، كان الضابط المناوب على حراستي يقوم بالضرب على الطاولة بشدة كي أفيق.

لقد كان الحرمان من النوم من أقسى اللحظات والأيام التي عشتها، ولم أتوقع يوماً أن يكون عدم النوم أداة تعذيب بهذه المرارة والقسوة، مع أنني لست من محبي النوم، ومعتاد على السهر حتى ساعات متأخرة من الليل وعلى مدى أيام متتالية، ولكنّ هذه المرة كان الأمر مختلفاً، حيث أُجلِست على كرسي مقيد اليدين والقدمين، ومعصوب العينين، وفي حالة صعبة ومتعبة للجسم.

استمر حرماني من النوم أسابيع طويلة، ولم أدخل الزنزانة سوى ثلاث مرات ولأقل من ثلاث ساعات، ولا يمكن وصف الحالة التي يمر بها الإنسان حين تُسلّط عليه الإضاءة على مدار الساعة، مقيداً على كرسي مع ما يصاحب ذلك من آلام في الرأس، وإرهاق للجسد.

وكلما حاولت أن أسرق قليلاً من النوم أو لحظة من النعاس، كنت أسمع ضربة شديدة تجفل لوقعها عيناي يرافقها زعيق المحقق وصراخه.

لم يستخدم المحققون منع النوم كوسيلة للتعذيب فحسب، بل استخدموا أيضاً سياسة التجويع الشديد، التي تؤدي إلى نقصان كبير في الوزن، لأن كمية الطعام التي تُقدّم قليلة جداً، فقط لضمان بقاء المعتقل على قيد الحياة.

يتكون الفطور الذي يقدمه المحققون من أربع قطع خبز صغيرة، إضافة إلى نصف حبة بندورة أو خيارة، وفي الظهر والمساء قد يختلف النوع، ولكن الكمية تبقى محدودة جداً، ولا تسدّ الرمق، وليس من ضمنها أي سوائل سوى الماء، وأحياناً قد يعرض المحقق طبقاً للحالة

http://mzaj4.blogspot.com/

وللظرف وحالة التجاوب كوباً من الشاي والقهوة والسجائر لمن يدخن، وهذه تعتبر بمثابة امتياز في يد المحقق، تُقدم طبقاً لرغبته، ومدى قياسه للتجاوب في التحقيق، وأحياناً يقدمها بعضهم كإشارة إلى أن لا علاقة للأمر بسير التحقيق، خاصة أن المحققين يلعبون دورين: المحقق الجيد والطيب، والمحقق الشرير والقاسي واللئيم. وقد لاحظت ذلك جلياً في أثناء التحقيق معي، إذ كان بعضهم يتعاملون باحترام ولا يمارسون أي ضغط فعلي، في حين أنّ آخرين مارسوا التعذيب والشتائم والإهانات والاحتقار، وعبّروا عما في نفوسهم من بغضاء وحقد دفين وكراهية للفلسطينيين والعرب.

هذا لا يعني أن الفريق الآخر من محقّقي «الأدوار الطيبة» أقل حقداً وكراهية، وإنما هم جزء من منهجية التحقيق، مع أن الغالبية الساحقة من المحققين، استخدموا كل أشكال الإهانة والإذلال والشتائم البذيئة والضغط النفسي.

إن تجربتي في التحقيق هذه المرة تختلف عن سابقتها، فهي أتت في ظل استمرار الانتفاضة المباركة، ووسط المواجهات الدامية، وفي ظل انتقال العدوان الإسرائيلي إلى مرحلة الهجوم الشامل، لتقويض السلطة الفلسطينية، وضرب وتصفية قادة المقاومة الفلسطينية قتلاً واعتقالاً وتدميراً، عبر ما أسماه حكام تل أبيب «عملية السور الواقي»، وما أسفر عنها من حصار المقاطعة ومقر الرئيس الراحل ياسر عرفات، وارتكاب مجازر رهيبة ضد المدنيين والسكان في مخيم جنين، والبلدة القديمة في نابلس، وحصار كنيسة المهد في بيت لحم، وكذلك في ظل المقاومة البطولية والعمليات الفدائية في مدن وبلدات وطننا الفلسطيني كافة.

لقد كان اعتقالي في وقت تزدحم فيه السجون وزنازين التحقيق

http://mzaj4.blogspot.com/

بالمئات من المناضلين، بسبب حملات الاعتقال الواسعة والجماعية التي نفذها جيش الاحتلال في الأراضي المحتلة، مما دفع العشرات من ضباط التحقيق المتقاعدين للعودة إلى العمل إثر استدعائهم، وكان الطاقم الرئيس الذي أجرى التحقيق معي مكوناً من ضباط أمضوا حياتهم في تعذيب آلاف المناضلين، وأنهوا عملهم في المخابرات بعد خدمة تزيد على عشرين عاماً، أي أنهم يتمتعون بخبرة كبيرة جداً في مجال التعذيب بألوانه وأشكاله كافةً.

أنت صفر

كانت استراتيجية التحقيق طبقاً لتحليلي، ومن خلال ما يقارب أربعة أشهر أمضيتها في زنازين التحقيق، ترتكز على الأساليب التالية:

أولاً: كسر الظهر:

وذلك من خلال الجلوس مقيد اليدين والقدمين، على كرسي صغير من حديد أو بلاستيك جامد متعب وشاق جداً، في مقعده نتوءات حادة تجعل من الجلوس عليه مهمة صعبة، وتشكل تعذيباً إضافياً فضلاً عن القيود في اليدين، فيما الذراعان تكونان خلف الكرسي على مدار الساعة والأيام والأسابيع والشهور ما جعل جسمي في حالة إرهاق شديد، وجاء ذلك في وقت كنت أعاني فيه من «الديسك» والتهابات حادة في الظهر والرقبة، الأمر الذي أصاب الجهة اليمنى من جسدي بألمٍ دائم ووحادّ، يضاف إلى ذلك أنه بعد مرور شهر تقريباً، ظهرت بقع من الدم والتقيح، بسبب الجلوس لفترة متواصلة من دون انقطاع، وأدت إلى اشتداد التهاب الباسور، ونزف الدم بشكل دائم... وكان يصاحب الجلوس على ذلك الكرسي، وضعُ العصابة السوداء على العينين بشكل دائم.

http://mzaj4.blogspot.com/

ثانياً: الحرمان الكامل من النوم

لقد أقدمت المخابرات على استخدام هذا الأسلوب مع المعتقلين بكثافة خلال السنوات الأخيرة، وربما يتبادر إلى ذهن القارئ أن هذا الأمر ليس على هذه الدرجة من الألم والإرهاق، ولكن الحقيقة أنه عذاب شديد ومؤلم، ويشبه إلى درجةٍ كبيرة عملية الموت البطيء، وكونه بطيئاً لا يلغي أنه موت.

الحرمان من النوم لساعات وأسابيع طويلة يؤدي بالإنسان إلى درجة فقدان الوعي، حيث يسبب الانهيار والإرهاق والآلام المبرحة في الرأس جراء الصداع الحاد والأوجاع التي تشبه وخزات السكاكين.

وكان طاقم التحقيق يمنعني من النوم على مدار الساعة، وإذا ما غافلت المحققَ للحظات أو هنيهات من النوم، يقوم بالضرب بقبضته على الطاولة صارخاً بأعلى صوته لأستيقظ فزعاً مرعوباً، ويطير النعاس في حمّى هذا الزعيق الإرهابي الوحشي.

ولَكَم كان هذا الأمر قاسياً وصعباً على مدار أول خمسين يوماً من التحقيق، وحاولت أن أستغل حالات نقلي إلى زنزانة أخرى أحياناً لتناول الطعام، أو لقضاء حاجة، كي أتأخر نصف ساعة من عينيَّ أستغلها في النوم، ولكن، هيهات أن أنال ذلك ولم أجد أمامي متراساً للمواجهة والدفاع سوى التحمّل، والدعاء إلى الله سبحانه أن يمنّ عليّ بالصبر والعزيمة والقوة، لأحافظ على صلابتي وتماسكي في هذه الحرب الطاحنة والجهنمية المستحيلة.

ثالثاً: السبّ والشتم والإهانة

يعتمد غالبية ضباط التحقيق على توجيه الإهانات بشتى الطرائق والوسائل والأساليب، وبعضهم كانوا يشعرون بالزهو كونهم يحققون مع مروان البرغوثي، أما الشتائم فهدفها الإهانة والإذلال باستخدام عبارات

http://mzaj4.blogspot.com/

تمس الإنسان وكرامته، من خلال التعرض للأم والأخت والزوجة والابنة وهي في جوهرها تعكس إلى أي حدٍّ من الانحطاط الأخلاقي والعجز قد وصل السجّان الإسرائيلي في سعيه للحط بهدف الحط من قدر المناضل وإنسانيته.

كنت أشعر بدرجة عالية من الغضب والغليان في الصدر والرأس جراء تلك الشتائم البذيئة التي أتعرّض لها، والتي يصعب على المرء التفوه بها أو تسجيلها في هذه السطور.

قد يقول قائلٌ: دعه يشتم، فلماذا الاهتمام؟؟ فهو يقتل، ويدمر، ويغتال، ويعتقل، ويهدم ويحاصر. ولكن وقع هذا الكلام قاسٍ ومؤلم، لأن الهدف من وراء ذلك إشعارك بأن لا قيمة لك، وأنك لا تساوي شيئا أمام سطوته وغطرستهً وأنه يستطيع أن يفعل بك ما يشاء.

في حالتي، كانت الإهانة والإذلال لا يستهدفناني شخصياً وحسب، وإنما كانا موجّهين إلى ما يرمز إليه مروان البرغوثي لدى شعبه كحالة نضالية وطنية تعبّر عن دلالات وقيم معنوية للانتفاضة والمقاومة الفلسطينية على المحتل وضد الاحتلال.

ومن الأساليب السادية الحقيرة، التي استخدمها المحققون، مثلاً، أن يضع المحقق قدمه بين ساقيّ على الكرسي، أو أن يضع ساقه بين ساقيّ ويقترب كثيراً من وجهي إلى درجة تكاد تلامس وجهي وفمي، ويبدأ في كيل الشتائم، وترداد كلام بذيء مثل: «يا حقير، يا جبان، يا سافل... أنت لا شيء... أنت صفر يا ابن الش... يا أخو ألـ... أنت م...».

أمام ذلك تتعرف إلى حقيقة العقل والسلوك والفكر الصهيوني، وإلى طبيعة الإسرائيلي، إذ تكتشف إلى أي مستوى وصلوا إليه من التدني والانحطاط الخلقي في المؤسسة الأمنية الإسرائيلية، وكيف يتعاملون مع الفلسطينيين كأنهم ليسوا آدميين وليسوا من بني البشر.

http://mzaj4.blogspot.com/

رابعاً: إحباط المعنويات

يتفوه تجاهك المحققون في أثناء عملية الاستجواب بعبارات متعالية فوقية، لأجل إحباط معنوياتك، وذلك من خلال تأكيدهم على أن «إسرائيل مثل الحائط، من يضرب رأسه بها فسينفجر رأسه وينزف دماً ويموت» ومثل القول «إن إسرائيل تملك الدبابات والطائرات والمدافع والسلاح، وإن العرب عجزوا عن هزيمتها عام 1948، وعام 1967، وإن إسرائيل هزمت عبد الناصر، واستسلمت مصر عام 1978 في كامب ديفيد، ووافقت على شروط إسرائيل للسلام، وهي أقوى دولة عربية، فماذا تستطيعون أن تفعلوا أنتم في حين عجزت مصر عن ذلك؟».

كذلك كان المحققون يرددون: «إن العرب ليسوا إلى جانبكم وهم مشغولون بهمومهم ويكرهونكم، وقتلوا منكم الآلاف في معارك مختلفة، وإن كثيراً من الدول العربية لا تريد دولة فلسطينية، وإن الزعامات الفلسطينية غبية، وفشلت في إقامة دولة، ورفضت التقسيم، وإن الحاج أمين الحسيني هو المسؤول عن ضياع شعب فلسطين، وإن ياسر عرفات لا يختلف عن الحاج أمين الحسيني، وإنه أضاع فرصة إقامة دولة في قمة كامب ديفيد الأخيرة»؟

من أسلوب إحباط المعنويات أيضاً قول المحققين: «إن السلطة فاسدة، ومسؤوليها باتوا تجاراً أثرياء وأصحاب ملايين، وإن كثيراً من قادة السلطة لا يريدون أن يروا مروان البرغوثي إلى الأبد، بل تمنوا أن يموت في السجن».

وقالوا أيضاً: «إن بعض قادة السلطة قد تآمروا عليك، وقدموا معلومات عنك، وإنهم تخلصوا منك الآن، وإنك ستموت في السجن، وقد ضاع مستقبلك إلى الأبد، وفلسطين راحت.... وإن القادة

http://mzaj4.blogspot.com/

الفلسطينيين جبناء يرسلون أبناء الفقراء والمساكين إلى الموت أما هم وأبناؤهم فيهربون».

وأضافوا ساخرين: «يجب أن تتعلموا من قادة إسرائيل، وأن فلاناً في السلطة - ويذكرون الاسم - قد أصبح صاحب ملايين مع أنه لم يكن يملك شيئاً، وأن الحرامية هم من يقودون فلسطين، وأن سلطة عرفات يجب أن تنتهي، فهي سلطة إرهاب وفساد، وياسر عرفات لا يؤمن بالسلام، وقد خدع إسرائيل، وسيأتي اليوم الذي ينتهي فيه...».

ولاحظت أن المحققين شنّوا هجوماً مقذعاً وخبيثاً وماكراً مركّزين على عبارات الإحباط السياسي، لإيصال رسالتهم بأن التضحية عبث، وأن كل هذه المعاناة ذهبت سدى... وأن الإنسان أصبح وحيداً، وفي ضياع، وأن عليه أن يبحث عن خلاصه الفردي.

خامساً: الاعتماد على الوثائق والأوراق المصادرة

حرص المحققون في البدايات على عدم إظهار أي أوراق، رغم أنها في حوزتهم منذ اقتحام المقاطعة ومقرات الأجهزة الأمنية والوزارات ومقرات التنظيم الفتحاوي في مختلف المحافظات، بما فيها مقر اللجنة الحركية العليا في الضفة الغربية الكائن في مدينة رام الله حيث مقر عملي الدائم.

لكن بعد مرور أيام عدة، بدأ المحققون بوضع بعض الأوراق والوثائق على الطاولة أمامي، وهي تخلو من أي قضايا ذات شأن، فلم يصدف أن كتبت أو وقّعت ورقة يمكن أن تشكل «حجة» أمنية في أيدي المخابرات الإسرائيلية، وكنت أشعر أن المقرات والأوراق ليست في أمان رغم إقامة السلطة الفلسطينية، وأن في إمكانهم الاقتحام، وجمع الملفات في أي وقت، خاصة بعد اندلاع الانتفاضة.

http://mzaj4.blogspot.com/

إن معظم الأوراق التي وجدوها هي أوراق عامة تنسجم مع طبيعة عملي ودوري كرجل سياسي وتنظيمي، وقد حاولوا استخدامها كوسيلة للضغط لإيهامي أنهم يملكون أسراراً خطيرة، ولكن سرعان ما تبدد وهمهم، وجمعوا ما في حوزتهم من أوراق وغادروا أمام سخريتي من سذاجة عقولهم.

سادساً: الاعترافات من المناضلين

تحدث المحققون بداية عن سلسلة اعترافات أدلى بها عدد من المناضلين ضدّي، وذكروا بعض الأسماء المعروفة لديّ، وبعد ذلك أحضروا بعض الاعترافات، وقرأوا منها، وفي مرحلة لاحقة فتحوها لي كي أقرأها لكنني رفضت ذلك.

وأكّد المحققون من خلال هذا الأسلوب أن لديهم عشرات الإفادات لعشرات المناضلين، واعتبروا أن هذه الاعترافات هي الورقة الأهم في أيديهم، وأنها كافية لإدانتي طبقاً لمنطقهم وقوانين محاكمهم الجائرة.

ومما يجب ذكره أنهم قبل اعتقالي كانوا يحققون مع عشرات المعتقلين، ومع كل من ينتمي إلى حركة فتح، وأحياناً مع أعضاء ونشطاء في فصائل أخرى حول علاقتهم بي، وهنا حاول المحققون التركيز على مفهوم مفاده: أن القائد هو من يأخذ المسؤولية على عاتقه، ولا يختبئ وراء المقاتلين الصغار ووراء جنوده، وأن مناحيم بيغن عندما اعتُقِل لدى البريطانيين أعلن أنه مسؤول وقائد منظمة الإيتسل الصهيونية وأخذ على عاتقه كل شيء.

وفي هذا السياق الخبيث والمضلل ادعى المحققون أن الشهيد الشيخ أحمد ياسين قال لهم: «لا تحققوا مع أحد، ولا تضربوا أحداً فأنا أتحمل المسؤولية كاملةً»، ولم يتردد في الاعتراف بكل شيء، وقد تكرار التركيز على هذا الأمر معظم فترات التحقيق معي.

http://mzaj4.blogspot.com/

في اليوم السادس من التحقيق كنت في حالة شديدة من التعب والإرهاق بسبب قلة النوم، أدخلوني لأول مرة إلى الزنزانة، وبعد أقل من نصف ساعة، إذ بباب الزنزانة رقم (15) في المسكوبية يُفتح ويدخل شخص يدفعه الشرطي دفعاً، وما إن سحب الشرطي العصابة السوداء عن عينيه حتى مدّ يده مباشرة وقبل أن يراني جيداً سلّم عليّ بحرارة لافتة، مُقدِّماً نفسه على أنه عضو في خلية نفذت عملية «مالون بارك» في مدينة نتانيا التي قتل فيها نحو 5) إسرائيلياً، قائلاً إنه قام بتجنيد الاستشهادي الذي نفذ تلك العملية، وإن اعتقاله جرى في البلدة القديمة في نابلس، وإنه يسكن في بلدة «طلوزة» ومن عائلة الفارس.

أردف هذا الشخص قائلاً إنه عمل مهندساً زراعياً في مدينة تبوك السعودية، ومتزوج من امرأتين، وأكّد أنه اعتُقِل مرات عدة، ومكث في سجن عسقلان سنوات عدة، وأنه من كوادر حركة حماس، وبعد أقل من عشر دقائق قال إنه لم يتمكن من صلاة الظهر وبدأ يصلي، وأطال فيها كثيراً... ثم بدأ يحدثني عن التحقيق معه موضحاً أنه يمر في مرحلة قاسية منه... وقبل أن أتحدث إلى هذا الشخص جاء الضابط وأخذني للتحقيق من جديد حتى لا أشعر بالراحة، وكنت أطمح إلى النوم ولو لنصف ساعة، لكن هذا الرجل «الجاسوس» لم يترك لي مجالاً للنوم وظل يتحدث حتى جاء الضابط واقتادني إلى التحقيق...

عندما عدت في اليوم التالي إلى الزنزانة، وجدت «الشخص» لا يزال فيها، وكنت في حالة شديدة من النعاس والإرهاق.

بادر بسؤالي عن رأيي في عملية نتانيا، فأجبته باقتضاب، ثم حاولت أن أنام ولو لدقائق، ولكنه ظل يتحدث، فقلت له: «أرجوك أن تسكت أريد أن أنام ولو قليلاً»، حينها سكت فعلاً.

http://mzaj4.blogspot.com/

لم أرَ بعد ذلك هذا الرجل إلا في المحكمة، حيث جاء متخفياً بلحية طويلة وطربوش ونظارة سوداء، ولكنني عرفته جيداً، وقد أدلى شهادة بأن أحد التسجيلات بصوتي، وأنه هو الذي قام بدور المحاور المحادث لي، ولم يكن في ذلك الكاسيت الذي سجله الجاسوس شيء ذو قيمة، سوى الحديث عن المقاومة والانتفاضة، وعلى الإصرار على مواصلة المقاومة وتصعيدها، أي ما كنت أقوله صباحاً ومساء على كل منبرٍ، وفي كل ساحة ومظاهرة ومسيرة.

في جولة أخرى، وبعد خمسة عشر يوماً، أُدخِلت إلى زنزانة صغيرة جداً، فجاء المحققون بشاب لا يزيد عمره عن اثنين وعشرين عاماً، ادّعى أنه اعتُقِل في رام الله، وأنه من الأردن، ويعمل في كتائب القسام. سألني هذا الشاب إن كنت أعرف شخصاً (ذكر اسمه) من نشطاء كتائب القسام، مؤكداً لي أن هذا الشخص قد يكون مشبوهاً ومرتبطاً بالمخابرات الإسرائيلية، ولكنني لم أعلّق على هذا الموضوع، وطلبت منه السكوت لأنني بحاجة شديدة إلى النوم ولو لساعة من الزمن قبل إعادتي إلى الشَبْح المتواصل، فلم يفتح فمه بعد ذلك.

في حالة أخرى، عندما نُقلت إلى مركز تحقيق بيتح تكفا في زنزانة رقم (1)، وهي الأسوأ في ذلك المركز، وجدت شخصاً عرّف عن نفسه أنه من بلدة عتيل قرب طولكرم، وشقيق أحد أهم المرافقين سابقاً للرئيس ياسر عرفات، وأحد كوادر الجبهة الشعبية.

ادّعى هذا الشخص أنه مصاب، وأنهم يأخذونه للعلاج، وأن المحققين قد وعدوه بنقله إلى المستشفى، وكان يشبه كثيراً مرافق الرئيس عرفات. قدّم إليّ نفسه لكنه فوجئ أنني أعرف بلدة عتيل جيداً، وأنني زرتها مرات عدة، وأعرف أهلها ونشطاءها ونمت فيها في الثمانينات عندما كنت ملاحقاً من قبل قوات الاحتلال، قبل إبعادي إلى خارج

http://mzaj4.blogspot.com/

البلاد، وتحدثت إليه عن الانتفاضة، وأهمية الصمود في التحقيق، وعن الوضع السياسي بشكل عام، فيما كان يحاول معرفة إن كان هناك تعاون عسكري بيني وبين الجبهة الشعبية، وإن بطريقة غير مباشرة، وتصادف في اليوم التالي أن جاء المحامي لزيارتي، وبعد مغادرته، أبلغت «الشخص» أنني تحدثت عنه للمحامي، وسيتصل بأهله طالباً منه عدم القلق. في اليوم التالي، اختفى هذا «الجاسوس» ولم أشاهده إلا وهو متخفٍّ مثل صاحبه الأول في قاعة المحكمة، وقد أكّد في المحكمة أنه يعرفني، وكان من ضمن المكلفين بمراقبتي في رام الله...

والحقيقة، إن هؤلاء العملاء الثلاثة الذين زجهم المحققون معي (وضدي) في الزنزانة ورأيتهم كلاً على حدة، هم الوحيدون الذين شاهدتهم خلال أربعة أشهر من التحقيق، أمضيتها على انفراد في الزنازين وفي أثناء الاستجوابات.

المطلوب ياسر عرفات

تركز التحقيق معي على محاور وقضايا أساسية اعتبرها المحققون جوهرية ومن أبرزها:

أولاً: العلاقة مع الرئيس عرفات

كان المحور الأول الذي أخذ قسطاً كبيراً ووافراً هو موضوع العلاقة مع الرئيس ياسر عرفات، وتركزت أسئلة المحققين على علاقتي بأبي عمار، نصوصاً ما يتعلق بالتمويل وقرار العمليات المسلحة الفدائية، وإذا كان قد منحني صلاحيات أو تعليمات لتنفيذ عمليات فدائية وطبيعة هذه العلاقة بيننا.

كان المحققون يذكرون أمثلة عن عمليات مختلفة، ويبرزون كماً هائلاً من الأوراق والوثائق والمستندات، التي سرقوها في عملية السطو

http://mzaj4.blogspot.com/

الرسمي الإرهابي الإسرائيلي المسلح الذي يطلق عليه الإسرائيليون عملية السور الواقي.

وأشار عدد من المحققين الكبار أن الإدلاء بوضوح بمعلومات تدين الرئيس عرفات تمثل جوهر التحقيق، وأنها ستكون كفيلة بمساعدتي لإنهاء هذه القضية والورطة والاعتقال، الذي لن يكون أقل من مدى الحياة، مُدّعين أن عرفات وقيادة السلطة ليسوا معنيين بي إطلاقاً، وأنهم لا يطالبون بإطلاق سراحي، وأن إسرائيل تخدمهم بهذا الاعتقال.

ثانياً: التنظيم وكتائب الأقصى

كان العنوان الثاني الأبرز في التحقيق معي اتهامي بأنني رئيس التنظيم، وهو منظمة مسلحة تمثل جزءاً من حركة فتح، وأنني قدت الانتفاضة والعمليات المسلحة، واتهامي أيضاً بأنني مؤسس وقائد كتائب شهداء الأقصى.

ثالثاً: التسليح والتمويل وتبني العمليات

وجّه المحققون إليّ تهماً تتعلق بادعاءات أنني قدمت عشرات قطع السلاح إلى مجموعات مختلفة في التنظيم والكتائب، وتقديم أموال إلى المجموعات المسلحة المختلفة، وكذلك اتهامي بالإشراف على تنفيذ عشرات العمليات المسلحة التي أدت إلى مقتل ما يزيد على 104 إسرائيليين، وإصابة مئات عدة، وتبني تلك العمليات باسم الكتائب حسب زعمهم...

رابعاً: مصادر التمويل

وظهر إصرار مذهل من المحققين على معرفة مصادر التمويل، سواء أكانت من الخارج أو من ياسر عرفات، وأنهم يريدون معرفة هذه المصادر، ومن أين؟ ولماذا؟ وكيف وصلت...؟

http://mzaj4.blogspot.com/

خامساً: العلاقة مع الأجنحة العسكرية لفصائل المقاومة الفلسطينية

كان هناك إصرار من قبل المحققين على أن لي علاقات واسعة، وعملاً مشتركاً مع الفصائل المسلحة، وأن تنسيقاً قائماً بين الفصائل يجري في مختلف المناطق، وأنني قمت بتقديم مساعدات إلى بعض المجموعات التابعة للفصائل.

سادساً: التركيز على العلاقة بعمليات بارزة

ركز المحققون على بعض العمليات العسكرية البارزة، مُصرين على أنني على معرفة مسبقة بها، وبأنني أشرفت عليها، ومن أبرزها عملية عين عريك، التي نفذها البطلان شادي صعايدة وداود الحاج من كتائب الأقصى وأفراد وحدة الأمن والحماية في قوات الأمن الوطني، ضد حاجز عسكري إسرائيلي، قتل فيها ستة من الجنود الإسرائيليين وتم تجريدهم من سلاحهم.

وكذلك ركز المحققون على عملية الخضيرة، وعملية تل أبيب أي مطعم «سي فود» وعدد آخر من العمليات، التي تمت على الطرقات والتي تقدر بستٍّ وعشرين عملية مسلحة أدت إلى قتلى وجرحى، وكذلك تم التركيز على العلاقة مع عدد كبير من قادة الكتائب، وقادة العمليات العسكرية، وبشكل خاص، عمليات قادها رائد الكرمي، مهند أبو حلاوة وأحمد البرغوثي (الفرنسي).

إن محاور التحقيق السابقة، والتي ازدحمت بالكثير الكثير من الاتهامات الباطلة، والتي أنزلوها عليّ خلال فترة التحقيق الطويلة بشكل جنوني وهستيري، وبأقذر الوسائل وأحطها وأبشعها تعذيباً وضغطاً، قد جرت في ظل أجواء تحقيق عنيفة حرمت فيها تماماً من النوم وأُجلست فيها مشبوحاً على كرسي فترة طويلة مع التجويع والضغط النفسي الشديد

http://mzaj4.blogspot.com/

والترهيب والتهديد وكيل للشتائم والسباب والإهانات والإذلال والتحقير لي، والاستعانة بالوثائق والإفادات، إضافة إلى النقل للتحقيق في ثلاثة مراكز مختلفة، وهي المسكوبية، وبيتح تكفا، ومركز التحقيق السري الذي يحمل رقم 1391.

ولاحظت أن المحققين بذلوا جهداً مضنياً في استخدامهم الحرب النفسية، لتهديم معنوياتي وإحباطي، واستعانوا في ذلك بقدامى المحققين ذوي التجربة الطويلة.

أحد المحققين اتبع سياسة الحديث المتواصل الذي لا ينقطع لساعات طويلة من دون توقف، وأحدهم تحدث مدة سبع ساعات متواصلة، وكان حديثه مقرفاً ومقززاً ومهيناً يستهدف التقليل من أهمية وقيمة من يجلس أمامه، وقد ركز كلامه على فشل الشعب الفلسطيني، وأنه لا حق له في هذه البلاد، وأنه شعب مصطنع، وقيادته فاشلة جيلاً بعد جيل.

وتناول حديث المحققين كذلك الحالة العربية التي وصفوها بالمهزومة، وأن العرب ليسوا أكثر من أصفار في هذا الكون، وأنهم يعانون من تخلف عقلي.

في إحدى تلك الليالي والأيام الطويلة التي من الصعب أن يعرف المرء فيها إن كان قد بدأ الليل أم النهار، حيث لا وجود للنوافذ أو الشبابيك والأبواب مغلقة، وكأنني داخل صندوق محكم الإغلاق على مدار الساعة، جاء أحد المحققين الكبار صاحب خبرة تزيد على ثلاثة عقود في جهاز المخابرات، بدأ بقراءة كتاب ألّفه الكاتب الأميركي من أصل لبناني فؤاد العجمي ينتقد فيه العرب بشدة، وينعتهم بأقبح النعوت وذلك الكتاب مترجم إلى اللغة العبرية.

كما أحضر بعض الكتابات لكتّاب عرب يتحدثون فيها عن عدم

http://mzaj4.blogspot.com/

جـدوى محاربـة إسـرائيل، وعـن أضـرار الانتفاضـة والمقاومـة، وعن أن بعضهـم يتّهمـون مـروان البرغوثي بالمسـؤولية عمـا وصفه بكارثة الانتفاضة.

إن الروح العنصرية المقيتة والتعالي والفوقية كانت تعجّ بكل معاني الكراهية في كل كلمة وعبارة ينطق بها هؤلاء المحققون، إلى درجة أن أحدهم قال لي: «إن حلمي أن أُدخل رأسي في عقل العرب لساعة من الزمـن حتـى أفهـم هـذا العقـل الذي لا يمتّ للإنسـانية بصلة، وأنه جزء من العقل الحيواني».

وظهر الغرور والصلف والنزعة العسكرتارية والدينية العنصرية في حديث المحققين طوال فترة التحقيق، وذلك من خلال أسئلة البعض لي: لماذا تحارب إسرائيل، وما جدوى الانتفاضة والعمليات؟ وإن إسرائيل جدار منيع لا يغلبها شيء في الكون، وإن هذه الأرض لليهود خصصها الله لهم، فكيف تحاربون إرادة الله؟

كما حاول المحققون من خلال حرب ثقافية مشوهة التركيز كثيراً على الوضع العربي، وما تعرض له من هزائم متتالية وعلى تخلي العرب عن الفلسطينيين، وقيامهم بذبح وقتل الكثير الكثير منهم.

وكذلـك ركـزوا على فسـاد السـلطة، واتهام الرئيـس عرفات وكبار المسؤولين في السلطة بأن لديهم حسابات بنكية في دول أوروبية، وبأن الرئيـس عرفـات قـد استخدم مـروان البرغوثي ضحية، ولن تسـأل عنك السلطة، وأن أحداً لم يسأل عنك.

وأمام فشـل كل هذه المنظومة من الوسـائل والأسـاليب النفسـية الضاغطة والمكثفة على مدار أكثر من بضعة أشـهر في حومة التحقيق، أخذ المحققون يهدّدوني شخصياً بقول أحدهم: « ستبقى على هذا الحال حتى تفقد عقلك أو تموت».

http://mzaj4.blogspot.com/

جـاء رئيـس دائـرة التحقيـق في «الشـاباك»، المدعو «أبو شـريف» مجدّداً، وقال لي: «إن مصيرك لن يختلف عن مصير إبراهيم الراعي(*) الذي وصل إلى حدّ الانتحار في التحقيق» حسب زعمه، وقال لي أحد المحققين الرئيسين: «إن لدينا على جهاز الكمبيوتر أكثر من ثمانية عشر ألـف معلومـة تحتـاج إلـى تحقيـق معك، ولكن هذا يحتاج إلى سـنوات وليس إلى شهور وليس لدينا الوقت الكافي، فإما أن تموت أو تتحدث وتعتـرف بالقضايـا المذكـورة، فأنـت الآن فـي مملكـة المجهول، وأنت بيـن هـذه الجـدران لا تعـرف شـيئاً عما يجـري في العالم، ولا أحد في العالم يهمه مصير إرهابي وقاتل، وأنت مسؤول، ليس فقط عن القتلى والجرحـى الإسـرائيليين فـي هـذه الانتفاضـة، وإنمـا أنـت مسـؤول عن الفلسطينيين الذين قتلوا وأصيبوا ودمرت بيوتهم».

قـال هـذا المحقـق أيضـاً: «هـذا الـكلام سـمعناه مـن عـدد كبير من المسـؤولين الفلسـطينيين، وقد اتصل بعضهم بنا وشـكرونا على اعتقالك، وكانوا يتمنون لك الموت، ونحن نشعر بالأسى لأنك على قيد الحياة، أمثالك كان يجب أن يموتوا... فأنت قاتل أطفال ونساء، ويتوجب عليك أن تُحاكَم كما حُوكِم «إيخمان»(**).

لعل موجة الهجوم النفسي المتصاعدة، التي شنها المحققون عليّ في هذه العزلة الموحشـة في أقبية التحقيق، اسـتهدفت وفق حسـاباتهم وأوهامهم أن توصلني إلى طريق البحث عن خلاصي الشخصي، ولهذا، ركّـز المحققـون كثيـراً علـى زرع الخـوف والفـزع فـي أوصالـي قائلين: «ستمضي حياتك في السجون، وتموت فيها، وستبقى حتى تتعفن، لأنك

(*) إبراهيم الراعي – سكان قلقيلية – اعتقل في كانون الثاني 1986 وفي 1988/4/11 استشهد في زنزانته الانفرادية في سجن الرملة المركزي وادعت سلطات الاحتلال أنه انتحر، فيما أظهرت التقارير الطبية أنه تعرض لعملية اغتيال داخل الزنزانة.

(**) مجرم نازي حكم بالإعدام بتهمة ارتكاب جرائم حرب ضد اليهود.

http://mzaj4.blogspot.com/

ستعيش في زنازين انفرادية أو مع بعض الأسرى معيشة الذل والمهانة».

كذلك قال أحدهم: «انتهى التشريعي، ولم تعد نائباً في البرلمان، ولا مسؤولاً لفتح، لأن عرفات قد عيّن بديلاً عنك وهو فلان... لن ترى بعد اليوم نعمة السفر بالطائرات والدرجة الأولى، والفنادق ذات الخمس نجوم... ولن تقود سيارة، ولن تعيش في منزل جميل... ولن ترى أولادك ولا زوجتك، وسيموت أهلك وأنت في السجن... أما ابنك قسام فسنقتله قريباً بصاروخ لأنه يهدد بالقيام بعملية استشهادية، وربما إذا لم نقتله قريباً سنعتقله، ويعيش في السجن إلى الأبد...».

استخدم المحققون أسلوب الاستخفاف والتحقير، والتظاهر بأنهم يعرفون الكثير الكثير من التفاصيل حتى عن الجوانب الشخصية والحياتية للإنسان، وكأنهم أرادوا أن يجربوا معي أربعين عاماً من خبرتهم المخابراتية، معي كما كان يقول لي أحدهم: « أنت تحمل درجة ماجستير في العلاقات الدولية كما تدعي... أنتم تدرسون في جامعات بدائية متخلفة مثل بير زيت، وهي لا تصلح روضة أطفال... وعلمنا أنك كنت تهدد الأساتذة من أجل أن تنجح في الامتحانات، ولدينا معلومات حول هذا الأمر...».

ومثل قولهم: «لماذا أسميت ابنك قسام هل كان هذا إعجاباً بكتائب القسام الحمساوية وهي منافسة لفتح؟ كيف تسمي على اسمها؟ أم أنه على اسم عز الدين القسام؟ ولماذا تحترمون مثل هذا الرجل، وهو إرهابي وحرامي، كان يسرق ويغتصب، ويقطع الطرقات، وجاء إلى هذه البلاد هرباً من العدالة بسبب أنه حرامي...».

وقال أحد المحققين: «إن حماس أفضل من فتح بكثير، وهم أفضل منكم لأنهم لا يكذبون... يقولون الحقيقة ولا يتهربون من المسؤولية، ولا يدعون أنهم يريدون السلام... أما أنت وعرفات فإنكما تكذبان،

http://mzaj4.blogspot.com/

وأنتما قاتلان وإرهابيان، وتدّعيان أنكما مع السلام... وللأسف، فالعالم يصدق أنكما مع السلام... اتفاق أوسلو كان أكبر خطأ قامت به إسرائيل، وحان الوقت للقضاء عليه وعلى السلطة... لن نخرج من المدن الفلسطينية، وستبقى سيطرتنا على الضفة...».

ويبدو جلياً أن هذه الأساليب الإحباطية والنفسية، المصحوبة بنزعةِ العنصرية والغرور وتشويه الحقائق والتاريخ، كانت تستهدف اعترافاً مني ضد ياسر عرفات الرأس المطلوب، وإقراراً مني بفشل الانتفاضة والمقاومة وعدم جدواهما...

إن المحققين أرادوا من خلال تحطيم الرموز والقيم الكفاحية والبطولية والنضالية لشعبنا الفلسطيني العظيم، أن يسود الإحباط واليأس والشعور بالعجز، ومن ثم الاستسلام.

لهذا، وبعد لفٍّ ودوران، صعود وهبوط وتناوب مستمر من عدد كبير من المحققين، الذين لا يتقنون سوى توجيه الإهانات وفنون الخداع والحيل النفسية والعصبية، عادوا إلى ياسر عرفات قائلين: «نحن لدينا معلومات أن عرفات أعطاك أوامره، لتنفيذ عمليات إرهابية أو استشهادية كما تسمونها، وأعطاك أموالاً وسلاحاً... وأنكم حضّرتم للانتفاضة منذ سنوات، لماذا تشترون وتهربون السلاح، ولماذا أقمتم عشرات المعسكرات للتدريب...؟ إنكم إرهابيون لا تحبون السلام، وعرفات إرهابي، ويتحمل المسؤولية، وأنت المكلف بتنفيذ سياسته...».

وقالوا أيضاً: «نريد أن نعرف ماذا قال عرفات لك... ما هي الأوامر، وكم دفع لك من أموال؟ إن الاعتراف ضد ياسر عرفات مهم جداً... وإذا كان ما ستقوله مقنعاً، فإننا سنعتبر عرفات هو المسؤول، وأنت ربما لا تتحمل مسؤولية...».

http://mzaj4.blogspot.com/

كان َهمّ حكومة شارون المجرمة حينها، أن تجد مبرراً ودلائل تعزز مصداقية حربها العسكرية وإعادة احتلالها لمناطق السلطة الفلسطينية، وتدمير مقرات الأمن والمؤسسات، وحصار الرئيس عرفات، وإعلانها أنه «لا شريك»، ولا صفة له، وأنه لا يريد السلام...

اعتقدوا أن مروان البرغوثي هو الدليل والشاهد الذي يوصلهم إلى هذه الغاية، وإلى تلك الأهداف المبنية على تدمير كل منجزات الشعب الفلسطيني، وتدمير كيان السلطة الفلسطينية...

وتبين ذلك من خلال قول المحققين: «إنّ رئيس الحكومة شارون، ورئيس «الشاباك»، ووزير الدفاع يتابعون التحقيق أولاً بأول، وهم غاضبون لأنك ترفض الحديث ولا تقدم شيئاً، وهذا ستدفع ثمنه غالياً، وسنجعلك «ممسحة» وأضحوكة للجميع... نستطيع أن نجعلك تفقد السيطرة على نفسك وعقلك... وإذا بقيت مصمماً على الصمت، فسنضطرّ إلى إرسالك للتحقيق العسكري، وهناك يعرف المحققون كيف يتعاملون مع أمثالك... لماذا نتعب أنفسنا معك؟ التحقيق العسكري مسموح له أن يفعل ما يشاء، لأن لديك معلومات خطيرة، وتشكل خطراً على أمن الدولة...».

http://mzaj4.blogspot.com/



http://mzaj4.blogspot.com/

الفَصْلُ الثّاني

مملكة المجهول
والحرب الخفية

(كان قراري أن قطع يدي
أهون عليّ من الاعتراف)

http://mzaj4.blogspot.com/


http://mzaj4.blogspot.com/

مملكة المجهول والحرب الخفية

داخل السجن السري رقم 1391

لـم يكتـفِ المحققـون بالعزلـة التامـة التي فرضوا عليّ أن أعيشـها علـى مـدار شـهور فـي الزنازيـن منفـرداً، وفي غرفة التحقيـق مقيداً وفي حالـة صعبـة... فبعـد مـرور نحـو أربعين يوماً من دون أي جدوى، اتُّخِذ قرار بنقلي إلى التحقيق في معسكر سري، تفيد بعض المصادر أنه يحمل الرقم 1391.

تـم اقتيـادي مـن غرفـة التحقيـق فـي المسـكوبية معصـوب العينين ومقيد القدمين ويدان مقيّدتان خلف ظهري، ألقوا بي على أرضية سيارة عسكرية، وكنت بسبب القيود والعصابة المظلمة على عيني أتألم طوال الطريـق، ومـا زادنـي ألمـاً هـو قيام الجنود بوضع أقدامهم على جسـدي وكانوا يُسقطون رماد السجائر على وجهي، لكنني سمعت أحدهم يقول: «لا يجوز أن يبقى هكذا... فالمشـوار طويل ووضعه صعب ويجب أن نضعه على الكرسي»، فغضب من معه وطلبوا منه الصمت... فصمت.

وقـدّرت أن المشـوار استغرق بيـن سـاعتين ونصـف إلـى ثـلاث ساعات، عند الوصول، أُدخلت إلى مكان مجهول ولم أرَ شيئاً، وعندما أزاحوا العصابة عن عينيّ وجدت نفسي وسط مجموعة من الجنود بالزي العسـكري لجيـش الاحتـلال، وفـي أيديهـم هراوات وكانـوا يقفون وقفة استعداد ووجوههم غاضبة وعابسة.

تقدم أحدهم وفكّ القيود، طالباً مني خلع ملابسي كاملة، وأعطاني ملابـس خاصـة بالمـكان علـى شـكل «أفرهـول»، كالتـي يلبسـها عمـال

http://mzaj4.blogspot.com/

الميكانيـك... وكان البنطـال واسـعاً ممـا اضطرنـي إلـى ربطه بطريقة ما، وكنت قد فقدت من وزني حتى ذلك الحين سبعة كيلوغرامات تقريباً...

بعد أن ارتديت الملابس الخاصة، عاد أحد الجنود وقيّدني كالعادة، ووضع العصابة على عينيّ، واقتادني ممسكاً بيدي المقيدتين إلى الأمام هذه المرة... ومررنا وسط أصوات مزعجة، وأصوات ضرب، أعتقد أنه كان مصطنعاً لإحداث حالة من الإرهاب والخوف والشعور بالعزلة عن العالم...

ومع أنك لا تعرف المكان، وهذا سرّ الرهبة والرعب المقصودين من جلبي إليه حيث سأتعرض كما قالوا لي إلى تحقيق عسكريK الأمر الذي يعني: أن لا قيود ولا حدود ولا رقابة على التعذيب.

والأخطـر فـي كل ذلـك أنـك تـرى وجوهاً جديـدة غاضبة مكفهرّة وعابسة تبدو عليها القسوة.

وفي ذلك السـجن تسـمع أصواتاً مثل ضرب الكرة على الأبواب، وموسيقى صاخبة، وبعد أن يُلَفُّ بك في مشوار طويل، والمحقق يقول لك: «ارفع رجلك درج... انزل درج...»، وغالباً ما تكتشف أنه لم يكن هناك أي درج.

والحقيقـة أننـي فـي ذلـك المكان تمكنت من رؤية بعض الجوانب في السجن، بسبب اتساع العصابة ووجود ثقب صغير فيها...

اقتادنـي الجنـود إلـى زنزانـة، طالبيـن مني عـدم إزالة العصابة حتى تغلـق الزنزانـة، وأن علـيّ الاحتفـاظ بهـا، وعندما يحضر المحقق أضعها على عينيّ حتى لا أرى الجنود الذين يقومون بفتح وإغلاق الزنزانة...

إن زنازيـن السـجن السـري تختلـف قليـلاً عـن زنازيـن التحقيـق المعتادة، على الرغم من أن الزنازين تحكمها شـروط متشـابهة في كل مكان من حيث حجمها الصغير وطبيعتها المغلقة بشكل مطلق، فهي بلا

http://mzaj4.blogspot.com/

نوافذ لا يعرف فيها الأسير الليل من النهار، ولا يمكنه إطفاء الإضاءة الخافتة التي تبقى على مدار الساعة، إضافة إلى وجود حمام أرضي لقضاء الحاجة، غالباً ما يكون وسخاً وقذراً، ولا تحتوي الزنزانة إلا على بضع بطانيات فقط.

المميز في المعسكر السري الذي أظن أنه شمال فلسطين المحتلة، على بعد ساعتين إلى ثلاثة عن مدينة القدس، أن الزنزانة لها أرضية أو بسطة مائلة بشكل كبير، وصنبور الماء يفتحه الجندي فقط ومن الخارج، ولا يمكن الحصول على الماء إلا من خلاله، أما السرير في الزنزانة، فهو من الباطون ومكوّن من طبقتين.

ليس لأسير من زنزانة أو سجن ينتمي إليه

كان واضحاً أن الأجواء في ذلك السجن السري، توحي بالرهبة، ولاحظت عندما اقتادوني إلى غرفة التحقيق أن لها باباً سميكاً جداً يزيد سمكه عن الثلاثين سنتمتراً مكوناً من حديد ضخم، وخشب من الداخل...

المحققون يقومون بالمهمة نفسها من تحقير وإذلال ومهانة وتقييد واستفزاز، وقد حضر بعض أفراد التحقيق من معتقل المسكوبية إلى هذا المكان، وفوجئ رئيس الطاقم الذي حضر إلى هذا المكان من إجابتي عن سؤال وجهه إليّ بقوله: «هل تعرف أين أنت؟»، قلت: «لا وليس مهماً، لأن الزنازين في السجون تتساوى، ولا فرق بالنسبة إليّ أين أكون، سواء أكنت في هذه الزنزانة أو تلك، أو هذا المكان أو ذاك، فليس للأسير من زنزانة أو سجن ينتمي إليه».

وكان جوابه: «إن هذا المكان مخيف ولا يجوز أن تبقى فيه، ولكن أنت من أجبرتنا على إحضارك إلى هنا لأنك لم تتكلم»، قلت له: «إنني

http://mzaj4.blogspot.com/

مرتـاح فـي هـذا المـكان أكثـر مـن غيره..». فقد قـررت بإجابتي هذه أن أصدمه تماماً، وأفهمه أن هذا المكان لا يؤثر فيّ إطلاقاً، وهذه حقيقة. على العكس، فقد شعرت بكبرياء وقوة أكبر، وزادني وجودي هناك تحدياً في أن هذه لم تكن خطتي لمواجهة التحقيق على هذا النحو، لكن طالما أصبحت في ذاك المكان، فلم يعد له بالنسـبة إليّ وفي نفسـي أي رهبة إطلاقاً رغم الشعور بشيء من الوحشة...

لعلّ تصرفي بمنتهى الهدوء، وعدم التأثر أو حتى العصبية، زاد من قهـر المحققيـن ودهشـتهم وتوترهـم. وأذكـر أن أحد المحققين قال لي: «لقد قرأت أسـماء أبنائك وأدركت أنك رجل يقدس القيم مثل الشـرف والصـدق والاحتـرام... وأنـا أحترمـك وأقـدّر أنك تفعـل ذلك من أجل شـعبك... ولكن لماذا أسـميت ابنك قسـام، وأسـميت شـرف وعرب، وأسميت الفتاة ربى؟».

قلت له: «القسـام لأنني أحب عز الدين القسـام، وهو رمز خالد يجب أن يعيش في قلوبنا... والقسام مولود قبل ميلاد حماس وكتائب القسـام أصلاً... أما شـرف، فعلى اسـم زميل لي قتلته قوات الاحتلال، وكان يدرس معي في جامعة بير زيت، وهو صديقي ويدعى شرف الطيبي من سـكان خان يونس، وكان في السـنة الخامسـة كلية الهندسـة، وذهب ضحية لرصاصكم الجبان... أما عرب، فلأنني عربي، وأعتز بكوني عربياً رغم كل المرارة من الوضع العربي... أما ربى، فلأنني أحب الأرض، وربى هي جمع رابية ومعناه قمم التلال أو ما ارتفع عن الأرض...».

وكان واضحـاً أن الإحبـاط بـدأ يرتسـم علـى وجـوه المحققيـن في المركز العسكري السري، بسبب رفضي القاطع التعاطي والتجاوب معهم، بل إن أحدهم جلس في اليوم التاسـع إلى جانبي وأنا في حالة شـديدة من التعب والإرهاق، وأكاد لا أستطيع، بل لا أقوى على تحريك رأسي

http://mzaj4.blogspot.com/

أو فتح عينيّ، وعندما اقترب مني قام بإدخال ركبته بين ساقيّ، وأمطرني بوابل من الشتائم الحقيرة، والكلمات التي تقطر حقداً وغيظاً، وظهر اليأس بادياً عليه وهو يقول: «لن تبقى على قيد الحياة إن لم تتحدث وتعترف... من تعتقد نفسك؟ أنت لست أكثر من صفر... أنت لا شيء... أنت قاتل أطفال ونساء... أنت متوحش وقاتل... يجب أن نتعامل معك كالصرصور. لو كنت شجاعاً لتحملت المسؤولية بدلاً من أن يتحملها شباب صغار... أنت تهرب من المعركة بدلاً من أن تقول بأنك المسؤول والقائد، وتتحمل المسؤولية برجولة عن جنودك المساكين...». وفي نهاية حديث هذا المحقق المقرف قام بالبصق عليّ وخرج...

الساعات والأيام كانت تمضي قاسية ومريرة وصعبة، لكنني كنت أشعر بالقوة والاعتزاز، ومع كل يوم يمضي أسجل فيه انتصاراً على هؤلاء الجلادين، ولم تكن المهمة سهلة على الإطلاق، وتعجز الكلمات عن تسجيل معاناة تلك الأيام والأسابيع والشهور، والقسوة التي عشتها في المجهول والعذاب الشديد الذي يفوق قدرة الإنسان على التحمل..

بعد أسابيع عدة، نقلت من معسكر التحقيق السري إلى مركز تحقيق بيتح تكفا، الذي استمر فيه معي التحقيق قرابة خمسين يوماً...

بعد نقلي من السجن السري كنت متأكداً أن ذلك كان هو سلاحهم الأخير، وأنني أسجل انتصاراً كبيراً، وأخرج من هذا المكان سالماً، دون انكسار... اقتادوني إلى جهة مجهولة مرة أخرى، ولم أعرف إلى أين....

بعد قرابة الساعتين من السفر، حيث كنت ملقى على أرضية السيارة العسكرية، مقيد اليدين ومعصوب العينين، سمعت الشرطة والضباط يقولون: «إن القادم الجديد مدفع من العيار الثقيل جداً»، وآخر يقول: «لماذا بقي على قيد الحياة؟ يجب أن يموت هذا القاتل»... ولم يخلُ الأمر من الكثير من الكلام السافل والبذيء...

http://mzaj4.blogspot.com/

بعد قرابة الساعة من الانتظار للتسجيل والإجراءات المعتادة، اقتادني عدد من الضباط إلى طابق علوي، شعرت أنني أصعد ثلاث عشرة درجة، ثم دخلت ممراً واسعاً على جانبيه عدد من الغرف، أدخلوني إلى إحداها حيث أجلسوني على كرسي مثبت بالأرض، وقيدوني بالقيود الخاصة بالكرسي الذي يحمل المواصفات نفسها التي سبقت الإشارة إليها، وبعد مرور نحو ساعتين إلى ثلاث ساعات، أزالوا العصابة، وعندما فتحت عينيّ، إذ بثلاثة رجال من المخابرات يجلسون أمامي، قدموا أنفسهم بأسمائهم العربية المستعارة كما هو معروف... ثم سألني أحد المحققين: هل تعرف أين أنت..؟»، وأضاف قبل أن يسمع إجابتي: «أنت لا تستطيع أن تعرف لأنك مقطوع عن العالم: هل ترى أنك لا تعرف أين أنت منذ أسابيع عدة...؟ وسنواصل هذه العملية حتى تفهم أن أحداً لا يستطيع أن يواجه إسرائيل... يجب أن تعرف أن إسرائيل هزمت كل العرب، وستهزم الانتفاضة، ولن تنفعكم هذه العمليات الإرهابية».

كان ذلك المكان مبنى المخابرات في مدينة بيتح تكفا... وهي مستعمرة إسرائيلية أقيمت على أنقاض مدينة «ملبّس» الفلسطينية القريبة من مدينة يافا، وكانت أول المستعمرات الاستيطانية الصهيونية في فلسطين في العام 1882، وذلك المبنى كان مكوناً من قسمين: قسم للشرطة والآخر خاص بالمخابرات والتحقيق، ويتكون من طابقين: الأول للاستقبال، يليه مجموعة من الزنازين، تختلف بمساحتها من واحدة إلى أخرى، ويبلغ عدد الزنازين ثلاث عشرة زنزانة تقريباً، إضافة إلى حمام صغير جداً يُسمح فيه للأسير مرة يومياً أو أحياناً كل عدة أيام بالاستحمام السريع والشاق.

http://mzaj4.blogspot.com/

لقد زُجَّ بي في زنزانة رقم (1) وهي الأصغر بين الزنازين، ويبدو أن فيهـا جهـاز تنصـت، وهـي مغلقة ومضغوطة جداً، تحتوي على حمام صغير أرضي ذي رائحة كريهة قذرة.

كانت تلك هي المحطة الثالثة في جولات التحقيق آنئذٍ في مركز بيتح تكفا بعد أن اسـتنفد المحققون طاقتهم، وبدأوا يدورون في حلقة مفرغة...

اسـتمر التحقيـق معي فـي هـذه المحطة حيث كنـت أمضي معظم الوقت في غرفة التحقيق، مع أنني أخذت ولأول مرة قسطاً من الوقت في الزنزانة على عكس الشهور الماضية، إذ بدا واضحاً أن فريق التحقيق في هذه المحطة كان يعكف على إعداد وإنهاء الملف لإحالته إلى المحكمة ومحاولة بلورة لائحة الاتهام...

ولا بد من ذكر ملاحظة ألا وهي أنه في أثناء وجودي في التحقيق في المحطات الثلاث تلك: المسـكوبية والسـجن السـري، وبيتح تكفا، وقعـت عمليـات فدائيـة كثيـرة، وكان ذلـك يزيد من شـدة الإحباط لدى ضباط المخابرات، ويزيدهم عصبية وقهراً وحقداً ولؤماً، ويعكس نفسه علـيّ بمزيـد مـن التعذيـب بأشـكاله المتعددة. أما مـن جهتي، فقد كانت كل عملية فدائية تمنحني مزيداً من القوة والإيمان والعنفوان والكبرياء، وتؤكد صحة خيار الانتفاضة والمقاومة، وتدل على فشـلهم في إخماد جذوتها المشتعلة.

أقطع يدي ولا أكتب اعترافاً

إن خلاصة تجربتي الطويلة والشاقة في محطات التحقيق الثلاث، قد استندت إلى استراتيجية واضحة لمواجهة المحققين كانت قائمة على أساس قرار نهائي قاطع، وغير قابل للمراجعة بعدم التعاون في التحقيق،

http://mzaj4.blogspot.com/

وعدم الإدلاء بأيّ معلومات مهما كانت، والتصميم على تحمّل العذاب بما في ذلك الاستشهاد.

كانت الأيام الأولى شديدة الوطأة وثقيلة نفسياً، فليس من السهل الانتقال من حالة الحرية النسبية، وحالة النضال والعنفوان ولعب دورٍ قياديٍّ للانتفاضة والمقاومة أن تجلس الآن مقيّد اليدين والرجلين، تسمع الإهانات وعبارات الإذلال والقهر والسباب والشتائم...، ولكنني سرعان ما تكيفت مع هذا الوضع واستوعبته تماماً، وتعاطيت على أساسه لا سيما أنني صاحب تجربة طويلة في الاعتقال والسجون والزنازين والتحقيق...

اعتبرت نفسي في مهمة نضالية استشهادية، وأنني أمثل الشعب الفلسطيني العظيم وانتفاضته المباركة ومقاومته الباسلة، وأن أي انكسار أو تراجع أمام الجلاد والمحتل والقاتل والمستعمر سيكون قاسياً ومدمراً...

نعم، إن الجلاد يملك من أدوات القتل والتعذيب والقهر والقسوة الكثير، وأنا منفرد وأسير مقيد لا أملك سوى إرادة المقاومة، والثقة المطلقة بعدالة قضية شعبي، الراسخة بحق شعبنا في الحرية والعودة والاستقلال، وبحتمية تحقيق تطلعاته الإنسانية السامية تلك.

كانت تلك المواجهة حلقة من حلقات الصمود والتحدي التي خضتها طوال حياتي مع المحتلين الصهاينة، والتي بدأتها في مقارعة المحتل بشكل مباشر منذ ما يزيد على خمسة وثلاثين عاماً، لم أتردد فيها للحظة عن مقاومته وها هي تلك المواجهة تستمر الآن بشكل آخر في أقبية التحقيق، وذلك بعد أن فشلت حكومة ومخابرات وجيش الاحتلال في اغتيالي أكثر من مرة خلال الانتفاضة.

كنت أعرف أنني طرف ضعيف مادياً في هذه المواجهة، ولكنني في الوقت نفسه كنت واثقاً بأنني الأقوى أخلاقياً ومعنوياً، ليس أمامي

http://mzaj4.blogspot.com/

من خيار سوى الصمود إكراماً ليس فقط لتاريخي الشخصي، وإيماني وقناعاتي والمبادئ التي ناضلت من أجلها طوال حياتي، ولكن إجلالاً وإكباراً لما أمثله في نظر شعبي العظيم وفي نظر أبناء الأمتين العربية والإسلامية، ووفاءً للانتفاضة وتضحيات مناضليها الشهداء منهم والأسرى، والتي تشرفت أن أكون أحد جنودها الأوفياء.

لا شك في أن التحقيق كان صعباً في مملكة المجهول، وجاء اعتقالي في الوقت الذي بدأ فيه جيش الاحتلال عمليات السطو المسلح في الضفة الغربية، والحصار والعدوان على قطاع غزة، ليرتكب خلالها سلسلة من المجازر في جنين، ونابلس، ورام الله، ويحاصر المقاطعة مقر إقامة المرحوم الرئيس ياسر عرفات، قال لي المحققون بوضوح: «إن رئيس الحكومة ورئيس «الشاباك» ووزير الدفاع يتابعون وينتظرون هذا التحقيق، وإنهم قرروا محاكمتك، مع أن رئيس الوزراء كان يفضل أن تكون الآن تحت التراب...».

خلال التحقيق عرض المحققون عناوين و«منشيتات» في الصحف الإسرائيلية تشير إلى مدى العنجهية والغرور والصلف الإسرائيلي، وكأنهم بإلقائهم القبض على مروان البرغوثي قد ألقوا القبض على الانتفاضة بأسرها...

ومن تلك العناوين: «موفاز: اعتقال القاتل البرغوثي هدية جيش الدفاع للشعب الإسرائيلي في الاستقلال...»، وعنوان آخر: «شارون: البرغوثي سيُحاكم على جرائمه...».

بينما تناولت صحف أخرى موضوع خارطة هيكلية لتركيبة شهداء الأقصى يقف على رأسها مروان البرغوثي، ووصل الأمر إلى حدّ تسريب أخبار كاذبة للصحف الإسرائيلية هدفها إحباط معنويات الشعب الفلسطيني تدّعي أن البرغوثي قد اعترف في التحقيق...

http://mzaj4.blogspot.com/

لقد كان ذلك هجوماً شاملاً ليس عليّ كشخص بقدر ما هو على المعنى والفكرة... نعم، كان هجوماً على إرادة الحرية وعلى صرخة الشعب الفلسطيني: لا للاحتلال...

لقد حافظت في الأيام الأولى على صمت كامل، وكانت تلك مهمة شاقة في تلك الأوضاع، آنئذٍ كانت أجوبتي لهم على الشكل التالي: إنني نائب منتخب في البرلمان الفلسطيني، وطبقاً للقانون الدولي، والاتفاقات الموقعة معهم ليس لكم الحق في اختطافي واعتقالي من مناطق السلطة الفلسطينية، وليس لكم حق التحقيق معي أو محاكمتي. وقلت لهم: إنني أمين سرّ حركة فتح، وهذا ليس سراً وأقوم من خلاله بدور سياسي لا أكثر ولا أقل...

لم أتجاوب مع رغبتهم في قراءة مجموعة كبيرة من الإفادات والاعترافات، التي ادّعوا أنه أدلى بها العشرات من المناضلين وتؤكد حسب ادّعائهم مسؤوليتي وقيادتي للكتائب، وتزويدها بأسلحة وذخائر، وكذلك لم أتجاوب معهم في قراءة ما قدموه من أوراق وملفات صادروها من المقاطعة، ومؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية الأمنية منها والمدنية ومقرات الفصائل، وكان موقفي أن هذه الأوراق ليست حقيقية، وكذلك الإفادات التي تم عرضها.

كان الأمر الأبرز في جولات التحقيق تلك هو إصرار المحققين على معرفة العلاقة بالرئيس ياسر عرفات مدّعين أن لديهم معلومات وبأنني مكلف بقيادة المقاومة المسلحة، وأن عرفات قدّم إليّ المال والسلاح والتعليمات، وكانت هذه نقطة مركزية في التحقيق.

حاول المحققون في ذلك تقديم إغراء لي بأن التعاون في هذا الأمر سيساعد كثيراً وربما يغلق الملف.

بالنسبة إليّ كانت هذه النقطة هي الأكثر استفزازاً وغضباً لكونها

http://mzaj4.blogspot.com/

تجرح كبريائي الوطني والنضالي، وكنت أشعر بالغليان في عروقي عند طرحها.

قلت لهم بوضوح: «ليس لدي ما أقوله أبداً، ولن تسمعوا مني كلمة واحدة... ياسر عرفات هو زعيم ورمز الشعب الفلسطيني، وعلاقتي به سياسية، علاقة نائب في البرلمان بالرئيس وليس أكثر من ذلك...».

وفي النهاية، قلت للمحققين: «ليس أمامكم إلا خيار واحد، إما أن يكون ياسر عرفات معتقلاً ويدلي بمعلومات عني، أو أن أدلي أنا بمعلومات عنه، وبما أن ياسر عرفات ليس معتقلاً، ولن يُعتقل، فأنا لن أقول كلمة واحدة عن علاقتي بياسر عرفات وليس أمامكم من خيار، فقراري واضح ونهائي وقاطع».

إن التحقيق حول علاقتي بأبي عمار أخذ من الوقت أسابيع عدة مورست عليّ فيها ألوان لا تُحصى من الضغط والتعذيب.

وفي الحقيقة، إنه طوال شهور التحقيق وحتى نهايته لم أتحدث بشيء عن علاقتي بالرئيس الراحل ياسر عرفات – رحمه الله – وستبقى تلك العلاقة التي ربطتني به ملكاً لي وحدي وإلى الأبد...

في تلك الأجواء الوحشية حيث كنت أشعر بالتعب الشديد والإرهاق، ولحظات الضعف، كنت أدعو الله عزّ وجل: «اللهم امنحنا القوة والإيمان في قلوبنا، وعزز الحكمة في عقولنا، واجعل لنا مخرجاً مشرفاً تقبله وترضاه يا ربّ العالمين»

ثم كنت استذكر في أثناء التحقيق الشهداء والمواقف البطولية لأبناء شعبنا، أستمد منها القوة والعزيمة والصبر والثبات...

وكنت أحياناً أسند نفسي التي كادت تهوي من العذاب باستعدادي الدائم للاستشهاد بدلاً من الذل والهوان...

http://mzaj4.blogspot.com/

لقد تحملت التعب والقهر، رغم إدراكي التام أن حكومة الاحتلال قررت اعتقالي ومحاكمتي، ظناً منها أنها بذلك تحاكم وتدين الانتفاضة والمقاومة، وأنها تُضعف بذلك نضالنا العادل والمشروع.

كنت أعرف مسبقاً أن تحملي لهذا العذاب ليس له مردود، ولن يفيد من حيث محاكمتي بالسجن المؤبد، فقد كتبوا ذلك في كل الصحف ووسائل الإعلام منذ الأيام الأولى للاعتقال.

لقد كان قراري أن قطع يدي أهون عليّ بكثير من أن أكتب حرفاً واحداً أو أن أسجل سطراً واحداً ينم عن اعتراف أو استسلام لإرادة الجلاد.

النصر صبر ساعة

إن حقنا التاريخي والوطني في هذه البلاد حقيقة تماثل حقيقة شروق الشمس وغروبها ودوران الأرض، وإن هذا يتوجب أن يكون في ذهن كل مناضل يُعتقل، ويتعرض للتحقيق، أن يدرك أنه يواجه لصاً ومغتصباً وقاتلاً ومجرماً يتحمل المسؤولية عن طرد أبناء شعبنا من ديارهم ومدنهم وقراهم، وأنه مسؤول عن معاناة الآباء والأجداد، وعن المجازر التي ارتكبها على مدار العقود الماضية... إنه المسؤول عن النكبة والكارثة اللتين يتعرض لهما شعبنا الفلسطيني... إنه المحتل الغاصب.

على المناضل المعتقل أن يشعر بالعزة والكرامة، وأن يتغلب على مشاعره وعواطفه بسبب بعده عن أهله وأمه وأبيه وزوجته وأبنائه وأشقائه وأصدقائه وأصحابه...

على المناضل أن يتغلب بكل كبرياء على محاولات الإذلال والقهر والإهانة، وأن يدرك أن الذي أمامه عدو قاتل للأطفال والنساء، وألاّ

http://mzaj4.blogspot.com/

يشعر بالضعف أو الخوف بسبب الإهانة، حتى لو بصق عليه المحقق...

على المناضل ألاّ يخشى الضرب والتعذيب والحرمان من النوم والطعام والتدخين... بل عليه أن يواجه كل هذا الذل بكثير من الاعتزاز والشعور بالكرامة الوطنية، ويجب أن يشعر أنه رسول شعبه وأمته، ويمثل كل ما يحمله من كرامة وشموخ وكبرياء...

إن على المناضل أن يدرك أنه في مهمة نضالية ووطنية مقدسة، ومن واجبه المحافظة بروحه ودمه وجسده على ما يحمله ويعرفه من معلومات ونشاط إخوانه وزملائه ورفاق دربه، وأنه ليس من حقه تقديم المعلومات والإدلاء منها بما لديه...

يجب أن يعرف كل مناضل أن كل كلمة تساوي سنوات يمضيها في السجن والعذاب... وأن كل كلمة عن أخ أو رفيق مناضل ومجاهد ستؤدي إلى اعتقاله والزجّ به في السجون، وأن اعترافه على أي مناضل هو تقديم خدمة مجانية للعدو يدفع ثمنها أخوته المناضلون.

وعلى كل مناضل أن يتجنب الثرثرة أو الحديث في أي شأن يتعلق بالتحقيق والاتهامات الموجهة إليه، ومن الأفضل التزام الصمت بصورة تامة، وفي حال الحديث يجب الابتعاد كلياً عن كل ما يمسّ أو يتعلق بالشأن الأمني أو القضية التي تم اعتقاله بسببها.

على كل مناضل أن يقاوم بكل إباء وكبرياء الإغراءات المتعلقة بالطعام والسجائر والشاي والقهوة، والابتعاد عن طلب أي شيء يتعلق بهذه الأمور من المحقق أو السجّان، والتحلي بكثير من الهدوء.

لا تثق أيها المناضل بأي حال من الأحوال بوعد أو كلمة يقدمها ضابط التحقيق. والمحقق الذي يظهر بصورة (المحقق الطيب) إنما يقوم بذلك من أجل الخداع، ولكسب ثقة الأسير بالتدريج حتى يحصل على الاعتراف والمعلومات.

http://mzaj4.blogspot.com/

إن المحقق الطيب والسيئ لعبة دائمة، يُتفق عليها في التحقيق، وهذا منهج يمارسه المحققون دائماً.

لا يجوز تصديق أي شيء من المحقق، لأنه يعمد إلى قول أشياء صحيحة مرة ومرتين وثلاثاً حتى يكسب ثقة المعتقل...

هناك أجهزة تنصّت وتسجيل وتصوير في غرفة التحقيق يصعب كشفها أو تمييزها. كذلك، فإن المحقق يسجل ويكتب كل كلمة تُقال بعد إنهاء جلسة التحقيق، ويقدمها إلى المحكمة، وتُعتمد كوثيقة اعتراف، وهي ما تُسمى «مذكرات محقق»، أي إنه يلخص كل جلسة، وغالباً ما يقوم بتسجيلها وتدوينها.

يجب على كل المناضلين الحذر والانتباه من أن المحققين يعمدون إلى إحضار إفادة معتقل آخر تؤكد اعترافه على المناضل الآخر... أو يكتفي المحقق بتأكيد ذلك شفاهية، ويهدد بإحضار المعتقل المذكور ليشهد عليه رغم علمه أن ذلك كذب... وفي حالة صحة هذا، على المناضل أن يرفض شهادة زميله عنه في حال حضوره وينكر تماماً كل أقواله...

وعلى المناضل الانتباه إلى أن المحقق في بعض الأحيان يفتح سماعة الهاتف ليُسمع معتقلاً آخر ما يقوله زميله عنه في غرفة مجاورة.

إن أفضل وسيلة لمواجهة حالة اليأس التي تتسرب إلى القلب أو عقل المعتقل، هي أن يفترض نفسه في مهمة نضالية جهادية، وأن ضميره لا يقبل منه التفريط بما هو مؤتمن عليه...

وعليه أن يتذكر أنه أقسم اليمين بعدم البوح بأسرار حركته وتنظيمه ووطنه...

http://mzaj4.blogspot.com/

على المناضل أن يتسلح بإيمانه بالله والوطن وشعبه العظيم، الذي يعتبر المناضلين أبطاله ورمز كرامته ولا يجوز له أن يخذلهم...

على كل مناضل في حالات الضعف والهوان والخشية من الانزلاق أن يتذكر الشهداء العظماء الذين ضحّوا بأرواحهم ودمائهم وحياتهم في سبيل وطنهم وشعبهم وأمتهم... وأن يتذكر ما يمثله الشهداء من مكانة مقدسة لدى شعبنا، وأنه شرف عظيم أن ينضم إلى هذه الكوكبة العظيمة...

إن تذكّر الشهداء يبعث في المناضل قوة غير محدودة، ويمنحه الكثير من الكبرياء والقوة، والاستعانة بالله وقراءة القرآن في هذه اللحظات العصيبة، تعزّزان الصبر وتهبانه درجة كبيرة من الاطمئنان والقدرة على المواجهة، لأن المناضل لا يواجه إلا ما كتبه الله له، ويجب ألاّ يخشى العدو لأن روحه في يد خالقها وليس في أيدي «الشاباك»...

على المناضل أن يدرك أنه في امتحان صعب وقاسٍ من امتحانات النضال والجهاد، وأن اجتيازها بنجاح كلي أو نسبي سيمنحه قدراً كبيراً من الثقة بالنفس، وكثيراً من الشجاعة والاعتزاز اللذين تعجز الكلمات عن وصفهما بدقة...

إنه شعور بالانتصار على العدو في أكثر الأماكن تفوقاً للعدو...

علينا أن نتذكر أن الخطر على الحياة محدود نسبياً في أقبية وزنازين التحقيق لا سيما في السنوات الأخيرة، والمهم الإدراك أنه لم يعد بمقدور المحققين ممارسة كل ما يريدونه كما كانوا يفعلون ذلك على مدار العقود الماضية التي أدت إلى استشهاد العشرات في التحقيق...

وهذا يتطلب ألاّ يأخذ تهديدات المحققين على محمل الجد، سواء

http://mzaj4.blogspot.com/

ما يتعلق منها به أو بأهله وذويه، خاصة أن المحقق قد يلجأ إلى استخدام بعض القصص والإشاعات، التي يكون قد توصل إليها أو عرفها عن المعتقل، ويعتقد أن بإمكانه استخدامها لابتزازه وإجباره على الاعتراف أو الإدلاء بمعلومات أو حتى تجنيده لخدمة الشاباك...

ومثال على ذلك كأن يقول المحقق للمعتقل: «إن لدينا معلومات عن علاقتك بالفتاة الفلانية من عائلة أو حمولة في خصام شديد مع حمولته»، ويهدد بكشف الأمر في قريته أو مخيمه أو مدينته... أو أن يقول له: «إننا نعرف أن لك علاقة مع زوجة فلان»، أو «إننا نعرف أنك تحمل شهادة علمية مزورة»، وقد يهدده المحققون بنشر إشاعات أنه يعمل معهم، أو «إنه قام بسرقة أو بسطو على محل في وقت ما»، أو «شارك في جريمة جنائية، وإنهم سيكشفون الأمر»، وقد يقول له المحققون: «إننا نعرف أن لديك شذوذاً جنسيًّا ونعرف علاقاتك...».

هناك الكثير الكثير مما يهدد به المحققون، ولكن على المناضل ألاّ يخشى شيئاً حتى وإن كانت بعض هذه القضايا صحيحة...

عليه أن يثق بنفسه، وأن يدرك أن أي دعاية أو إشاعة تصدر عن العدو لن يصدقها أبناء شعبه.

إن أي جنحة أو خطأ ارتكبه المناضل في حياته لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع خيانة شعبه، وارتباطه بعدوه لخدمته وإلحاق الأذى والضرر بأبناء شعبه...

على المناضل أن يتعامل باستهتار وسخرية مع كل هذه التهديدات، فكل شيء يمكن التسامح معه مهما كان، إلا التورط في التعامل مع العدو...

يجب الانتباه إلى أن العملاء والجواسيس الذين يظهرون على شكل

http://mzaj4.blogspot.com/

معتقليـن ومناضليـن، ويتواجـدون في الزنازيـن، ويدّعون أنهم يخضعون للتحقيق وغالباً ما يكونون من فصائل مختلفة مزعومة، يكون الضابط قد أطلع هذا العميل على ملف المعتقل مسبقاً، وربما لا يدخل مباشرة معه في الحديث عن قضيته ليتعمد الحصول على ثقته، وأحياناً ينتحل اسماً معروفاً من منطقة جغرافية معينة، ويدّعي أنه شـارك في عملية معروفة، وسـمع بهـا الجميـع، ويوحـي مـن سـرده لهـا أنه يعرف كل شـيء عنها، بحيث لا يمكن التشكيك في المعلومات التي يقدمها أو يتحدث عنها...

ومن هنا، يجب على المناضل ألاّ يقدم أيّ معلومات مهما كانت إلى أي شخص يقابله في الزنازين، وأن يصر على رفض الخوض في التهم الموجهـة إليـه، والاكتفـاء بالحديـث العام جداً... وإذا كان محدوداً، فإن ذلك أفضل بكثير، واستغلال الوقت المتاح للنوم بسبب فترات التحقيق الطويلة والحرمان من النوم.

على المناضل ألاّ يدلي بأيّ معلومة، الزنازين يتواجد فيها عناصر عميلـة لجمـع المعلومـات، سـواء أفي الزنازين التـي يكون فيها المعتقل منفرداً مع شخص آخر، أو في تلك التي تضم أكثر من شخص.

علـى المناضليـن الانتبـاه إلـى أنـه قد يكون في الزنزانة مع المعتقل شـخص عميـل واحـد يتـم الـزجّ به فـي زنزانة أو يكون المتواجدون فيها جميعاً عملاء أو بعضهم، ونادراً ما تكون خالية من الجواسيس...

لا تثق أيها المناضل بأحدٍ إطلاقاً... وليس من حق أحد أن يطلب من المعتقل معلومات، لأن من يطلب ذلك هم العملاء.

إن العمـلاء هـم جـزء مـن فريق التحقيق، يلعبون دوراً كبيراً، وأكثر خطورة من ضباط المخابرات في كشف المعلومات وتوريط المعتقل...

على المناضلين الانتباه إلى ظاهرة خطيرة جداً وإن كانت محدودة،

http://mzaj4.blogspot.com/

وهي أنه في أثناء التحقيق مع فرد أو خلية أو مجموعة، قد تنجح المخابرات في اختراق أحد أفراد هذه الخلية في أثناء التحقيق، وتعقد معه صفقة يدلي بها بالمعلومات التي لديه، ويقوم بالتجسس على رفاقه الذين لا يساورهم شك في انتمائه ووطنيته، وتضعهم المخابرات في زنزانة واحدة، وتسجل المحادثة بينهم، ومن غير المعقول أو المتوقع أن يتحفظ المعتقل على معلومات عن أفراد خليته أو على عضو منها، وهو لا يعلم أنه تم تجنيده في أثناء التحقيق...

وهناك العديد من الخلايا التي كشفت بهذه الطريقة، واضطرت إلى الاعتراف... يجب ثم يجب رفض الحديث مع أيّ كان في التهم الموجهة إليك في أثناء التحقيق.

إن الدرس الذي يجب أن نتعلمه ويعلّمه ويحفظه كل مناضل، هو أننا نخوض حرباً في سبيل الحرية والاستقلال، يستخدم فيها العدو كل الأسلحة والأدوات في سبيل تصفية الحركة الوطنية، والقضاء على المقاومة والانتفاضة والنضال الوطني والمواجهة...

وتعتبر المعركة الاستخباراتية جزءاً رئيساً من هذه الحرب، الأمر الذي يتوجب فيه على فصائل المقاومة وأجنحتها العسكرية خاصة أن تحصّن نفسها من الاختراق، وأن تضع سياجاً يحميها مما يجعل معركة الاحتلال وأجهزته معها أكثر تعقيداً وصعوبة، ويجعل مهمة العملاء صعبة، ومهمة الاختراق وفنون الأخاديع المخابراتية ووسائل ضغطها أمراً صعباً ومستحيلاً...

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الثالث

المحاكمة

(إنني أعلن هنا عدم اعترافي بصلاحية
إسرائيل في اعتقالي واختطافي والتحقيق
معي ومحاكمتي، وأعتبر إجراءاتها كافة
جريمة من جرائم الحرب)

http://mzaj4.blogspot.com/



http://mzaj4.blogspot.com/

المحاكمة

لائحة اتهام ضد الانتفاضة

في أعقاب انتهاء رحلة التحقيق القاسية والمريرة الممتدة لأشهر عدة متواصلة ليلَ نهارَ، كما هي العادة، أعدّت المخابرات الإسرائيلية وبالتعاون مع ما يُسمى بوزارة العدل والنيابة العامة ملفاً نتج عنه لائحة اتهام تشمل أكثر من (52) بنداً موزعة على عشرات الصفحات، وعلمت بلائحة الاتهام هذه خلال جلسة المحكمة.

وتتركز اللائحة على اتهامي بتأسيس وقيادة كتائب شهداء الأقصى، وقيادة التنظيم باعتباره جسماً مسلحاً، إضافة إلى المسؤولية عن عمليات الكتائب والتنظيم، وعن مقتل (104) إسرائيليين معظمهم من الجنود والمستوطنين، إضافة إلى عدد من المدنيين الذين قتلوا بسبب العمليات الاستشهادية، وتضمنت لائحة الاتهام كذلك تقديم الدعم المالي والسلاح لعشرات المجموعات المقاتلة.

وقررت حكومة الاحتلال تقديمي إلى محكمة مدنية بشكل استثنائي لدى المحكمة المركزية في تل أبيب، مثلما فعلت أيضاً مع مناضلين آخرين اعتبرتهم إسرائيل مساعدين كبيرين لي وهما: الأخ المناضل ناصر عويص، والأخ المناضل ناصر أبو حميد...

كما قررت تقديم الأخ المناضل عباس السيد من قادة حركة حماس، وكتائب عز الدين القسام في الضفة الغربية للمحكمة المدنية تلك، وهذا ما فعلته أيضاً مع الأخ المناضل ثابت المرداوي قائد سرايا القدس التابعة للجهاد الإسلامي في الضفة الغربية...

http://mzaj4.blogspot.com/

إن حكومة الاحتلال بهذا القرار تريد أن تدين الانتفاضة والمقاومة، وتصفها بالإرهاب، وتعتقد أن إدانتي في المحكمة تشكل إدانة للرئيس الراحل ياسر عرفات، وللنضال الوطني الفلسطيني.

وقد تشكل طاقم كبير للإدارة والإشراف على مجريات المحاكمة، شارك فيه ممثلون عن مكتب رئيس الحكومة شارون، ووزارة العدل و«الشاباك» والشرطة والنيابة والإعلام، وممثلون عن الجيش والاستخبارات، وممثلون عما يُسمى «منظمة المتضررين من الإرهاب الفلسطيني»...

تجب الإشارة هنا إلى أن الغالبية الساحقة من المعتقلين والأسرى الفلسطينيين على مدار العقود الماضية من عمر الاحتلال الصهيوني، جرت لهم محاكمات عسكرية في الضفة الغربية والقطاع كان يديرها جهاز عسكري كامل هو جزء من الحكم العسكري للاحتلال، ويقودها مجموعة من الضباط العسكريين والنيابة العسكرية. وكانت تجري المحاكمات طبقاً لقانون الطوارئ الذي وضعه الاستعمار البريطاني ومجموعة من الأوامر العسكرية، التي أصدرتها حكومة الاحتلال، لتطبيقها على الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين، وقد أصدرت المحاكم العسكرية الصهيونية وفقاً لذلك الأحكام المختلفة بالسجن والغرامات على مئات الآلاف من الفلسطينيين.

وتقدر منظمة الصليب الأحمر الدولي أن أكثر من ثمانمئة وخمسين ألف فلسطيني اعتقلوا منذ عام 1967، أي أن نسبة من اعتقلوا تبلغ 25 % من عدد السكان، أي ربع الشعب الفلسطيني، وهي ربما النسبة الأعلى في تاريخ الحركة الاستعمارية في العالم، التي يتعرض فيها شعب على الإطلاق إلى الاعتقال إلى درجة أنه من النادر أن تجد أسرة فلسطينية لم يتعرض أحد أفرادها للاعتقال.

http://mzaj4.blogspot.com/

من المهم في هذا السياق التوضيح أن حكومة الاحتلال رفضت التعامل مع الأسرى الفلسطينيين والعرب باعتبارهم أسرى حرب، ومقاتلين من أجل الحرية أسوة بحالات كثيرة في العالم مماثلة بهذا القدر أو ذاك، كما رفض الاحتلال تطبيق اتفاقيات جنيف المتعلقة بالأسرى ومعاملتهم، لتدير بذلك ظهرها وكعادتها للقانون الدولي الإنساني برمته، واستمرت في اعتبار نفسها فوق القانون.

إن تنكر دولة الاحتلال للاعتراف بالأسرى باعتبارهم أسرى حرب، ينتمون إلى حركة وطنية فلسطينية معترف بها من قبل الغالبية الساحقة من دول العالم ومؤسسات المنظومة الدولية، وخاصة الأمم المتحدة أدّى إلى تعرض مئات الآلاف من الأسرى لممارسات إجرامية، وإلى تعذيب بأساليب محرمة دولياً، وإلى انتهاكات ومعاناة قاسية لا يشبهها سوى معاناة معسكرات الاعتقال النازية.

وعودة إلى لائحة الاتهام التي قدمت ضدي، فإن أي قراءة لها يتضح منها أنها لائحة سياسية عامة، تشكل أداة دعائية مبغضة ضد كفاح الشعب الفلسطيني العادل، وضد انتفاضته المباركة في سبيل الحرية والاستقلال...

وواضح من اللائحة أن الحديث لا يدور عن شخص قام بأعمال «جنائية»، ونفذ مخالفات أمنية ضد إسرائيل، بل يدور الحديث عن رغبة إسرائيل في إجراء محاكمة تظاهرية استعراضية ضد أبناء الشعب الفلسطيني المناهض للاحتلال، أو بكلمات أُخرى محاكمة انتفاضة الأقصى...

وتقترف لائحة الاتهام سابقة بمحاكمة إنسان في منزلتي كقائد منتخب للشعب الفلسطيني عملت في إطار منصبي كنائب منتخب، وتحميلي مسؤولية مزعومة لنشاطات جرت من قبل آخرين خلال الانتفاضة

http://mzaj4.blogspot.com/

من مطالعة لائحة الاتهام يتضح أيضاً أنها لائحة اتهام سياسية، تهدف إلى محاكمة القيادة الفلسطينية وأساليب كفاحها أمام القضاء الإسرائيلي، من منطلق تشويه هذا الكفاح ووصفه «بالإرهاب وقتل الأبرياء»، مع تجاهل كل العناصر الأساسية للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي وخاصة وجود الاحتلال وجرائمه المتصاعدة يومياً ضد شعبنا.

إن التعمد بتقديمي إلى محكمة جنائية تستهدف إبراز ما يُسمى معاناة الطرف الإسرائيلي، وإخفاء معاناة الطرف الفلسطيني، لأنها لن تكون «ذات صلة» بسير المحاكمة الجنائية، خاصة أن هذه المحكمة لا تملك صلاحية محاكمتي، ولن تستطيع أن تكفل لي محكمة نزيهة...

محاكمة دولة الاحتلال

لقد اتخذت قراراً واضحاً وصريحاً بالرفض القاطع للتعامل مع المحكمة الصهيونية، وقررت مقاطعتها، وأعلنت أنني لا أعترف بحق هذه المحاكم بمحاكمة الفلسطينيين، باعتبارهم ضحايا للاحتلال، وأن من يستحق أن يُحاكم هم المحتلون القتلة، وليس المناضلون ضد الاحتلال.

وقررت أنني لن أسمح لقضاة هم جزء من آلة الاحتلال أن يصدروا حكماً وكأنهم محايدون، ولن أقبل أن يَمثُلَ ممثل منتخب للشعب الفلسطيني ومناضل وقائد من قادته أمام محكمة الاحتلال.

أكدت بأنني نائب في المجلس التشريعي الفلسطيني وقد تم اختطافي من مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية، وأن هذا مخالف للاتفاقيات الموقعة بين حكومة الاحتلال ومنظمة التحرير الفلسطينية.

اتخذت قراراً بعدم تكليف أي محامٍ أو هيئة محامين للدفاع عني أمام محكمة الاحتلال، وبعدم التعاطي مع لائحة الاتهام، وقمت بإلقائها والملفات الخاصة بالمحكمة كافةً في سلة المهملات.

http://mzaj4.blogspot.com/

لقد رفضت الوقوف أمام ما يُسمى بالقضاة أو المحكمة، وحاولت أن أقاوم إحضاري إلى المحكمة، ولكن لم يكن بمقدوري ذلك حيث اقتادوني بالقوة مقيداً إلى قاعة المحكمة.

لقد حشد الطاقم الصهيوني المختص بالمحكمة وسائل الإعلام الصهيونية والدولية كافة لتصوير وقائع الجلسة الأولى، التي عُقدت في تل أبيب يوم 14/ 8/ 2002...

وكان الجو العدائي التحريضي واضحاً بإحضار ما يُسمى أهالي القتلى الإسرائيليين وبالعشرات إلى قاعة المحكمة، حيث بدأوا يهتفون بشكل عنصري ضدي وضد الانتفاضة، معتقدين أنهم يحققون بذلك أغراضاً إعلامية تخدم أهدافهم العدائية، وترضي جمهورهم الذي كان يتلقى جنوده وجمهوره الضربات الفدائية من مقاتلي المقاومة والانتفاضة...

لقد سمحوا للمتطرفين والمتعصبين بالمجيء إلى قاعة المحكمة في الوقت الذي منعوا فيه عائلتي وأسرتي من الحضور.

منذ اللحظة الأولى لدخولي قاعة المحكمة، وأمام الحشد الإعلامي الهائل، والجمهور الإسرائيلي المعادي، قمت برفع يديّ المقيدتين والتلويح بقبضة واحدة باليدين وقلت باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والعبرية: الانتفاضة ستنتصر... الانتفاضة ستنتصر...

أمام هذا المشهد الذي أذهلهم، سارع رجال الأمن و«الشاباك» بطرد أجهزة الإعلام والكاميرات بالقوة من القاعة، وحظروا بعد هذه الواقعة على أجهزة الإعلام تسجيل أي شيء لاحقاً، وكذلك تم منع المراسلين من توجيه أي سؤال، وسُمح لهم بأقل من نصف دقيقة لأخذ لقطة تصوير قصيرة جداً ثم مُنِعت بعد ذلك كلياً.

http://mzaj4.blogspot.com/

لقد خرجت وسـائل الإعلام العربية والدولية، والمحطات الكبرى مثـل الجزيـرة وCNN وB.B.C، وأبـو ظبـي وعشـرات غيرها، إضافة إلى الصحافـة الدوليـة والإسـرائيلية، بعناويـن بارزة أهمها: «إن البرغوثي قدّم عرضاً قوياً، وإنه بدا منتصراً وهو يلوح بشارة النصر بقبضته... رغم أن القيود في يديه وقدميه».

وأصـدرت الصحـف ومنهـا العبريـة: «إن البرغوثـي دعـا الشـعب الفلسطيني من قاعة المحكمة لمواصلة طريق الانتفاضة».

وعبّـر كثيـرون مـن الصهاينـة عـن خيبـة أملهم مـن المحكمة، التي تحولت إلى محاكمة للاحتلال، ومنبراً للانتفاضة، وليس لإدانة البرغوثي وياسر عرفات.

جـاء كل ذلـك وسـط تأكيـدي علـى عـدم الاعتـراف بالمحكمـة وصلاحيتها بمحاكمتي، وواصلت هذا الموقف على مدى ثلاثين جلسة، قدم خلالها ثلاثون ضابطاً من «الشاباك» شهاداتهم ضدي، وعشرات من ضباط الشرطة الذين أشرفوا على توثيق العمليات الفدائية.

كما قدّم عدد من أهالي القتلى والمصابين شهادات في المحكمة، وقدم عدد آخر من ضباط الاسـتخبارات العسـكرية وثائق وتسـجيلات لعشرات المقابلات الصحفية والتلفزيونية، كما أعلنوا عن جلسات مغلقة لإطلاع المحكمة على ملفات سرية لا يستطيعون كشفها أمامي...

والمحكمـة لـم تتـوانَ عـن إحضـار نحـو 41 شـخصاً مـن الإخـوة المناضلين بادّعاء أنهم قدموا إفادات واعترافات حول علاقتهم بي، وعن تلقّيهم التعليمات والأموال والسلاح لتنفيذ العمليات الفدائية، وقد رفض جميع الإخوة الإدلاء بأي شـهادات، وامتنعوا عن الإجابة عن الأسـئلة التـي وجهتهـا النيابـة العامـة، علمـاً أنـه ليس هنـاك هيئة دفاع من جانبي،

http://mzaj4.blogspot.com/

وفي ذات السياق حاولت المحكمة فرض محامين صهاينة من قبلها من أعضاء نقابة المحامين والعاملين في منظمة الدفاع عن الجمهور، حيث إن القانون الإسرائيلي لا يجيز محاكمة أي شخص من دون محامي دفاع.

وبما أنني أعلنت أنه ليس هناك من يمثّلني لأنني لا أعترف بالمحكمة وصلاحيتها، فقد أصرت المحكمة على تعيين اثنتين من المحاميات الصهيونيات، وقد بذلت جهداً كبيراً في إقناعهما بأنني لا أقبل أن يمثّلني أحد، وأن قبولهما ذلك يعتبر مشاركة في جريمة غير شرعية تجري بمحاكمتي، واستجابتا بعد تردد وضغوط على الرغم من صدور قرار عمّا يُسمى بمحكمة العدل العليا الصهيونية يقضي بمواصلة المحاميتين حضور جلسات المحكمة، ولكنهما رفضتا الإدلاء بأي ملاحظة طوال المحكمة.

أعلنت رئاسة المحكمة أنني لم أعترف في التحقيق بالتهم الموجهة إليّ، إلا أن هناك ما يكفي من الدلائل لإدانتي.

في الجلسة النهائية لهذه المحكمة تحدثت عن الصراع وجذوره وطبيعته، وحق الفلسطينيين في هذه البلاد، وحقهم في مقاومة الاحتلال بالوسائل كافةً، وأكدت أن الانتفاضة هي حركة استقلال الشعب العربي الفلسطيني، وأن الاحتلال هو أكثر استعمار احتلالي بشع عرفه التاريخ المعاصر.

وتناولت في حديثي المعاناة التي يعيشها شعبنا الفلسطيني، ومئات الأطفال والنساء والشيوخ والشباب من السكان المدنيين، الذين استشهدوا برصاص وقذائف الاحتلال، وآلاف البيوت التي دمّرها الاحتلال، وما يفرضه من حصار وتجويع وإذلال، وما يقوم به من اغتيالات واعتقالات وعقوبات جماعية.

قلت مخاطباً القضاة: «إنكم لن تختلفوا عن طياري الأباتشي،

http://mzaj4.blogspot.com/

الذين يغتالون أبناء شعبي ليلَ نهارَ ويقتلون من دون تمييز، وإنكم أيها القضـاة لسـتم أكثـر مـن قتلة مشـاركين في المجـازر والجرائم وتقدمون الغطـاء القانونـي والقضائـي للعـدوان والاحتلال الذي يتعرض له شـعبنا وأرضنا».

في هذه الجلسة الأخيرة من محاكمتي، وجهت التحية، كل التحية، إلى الشـعب الفلسـطيني والأمة العربية والإسـلامية، وإلى أحرار العالم، وكل الأصدقاء الداعمين لنضال شعبنا وحقه في الحرية والعودة وتقرير المصير.

وأكدت على أنه لا يهمني أن أفقد حريتي في سـبيل حرية شـعبي العظيـم... وأن نهايـة الاحتـلال قريبـة، ولن تنفع سياسـة القوة والتدمير، ولن تنال من صمود وصلابة وإرادة شعبنا...

وظهـرت سـموم العنصريـة والفاشـية بعـد إصـدار الحكـم، عندمـا اعترضت ممثلة النيابة العامة مطالبة أن يكون الحكم ستة وعشرين عاماً مؤبداً على الأقل، فردت عليها رئيسـة المحكمة: «بعد أن ينهي الخمس والأربعين سـنة سـتنعقد جلسـة جديدة للنظر في هذا الطلب والاعتراض حيث ستعقد الجلسة بعد نحو (خمسمئة وأربعين) عاماً....»

إن قـرار الاكتفـاء بهـذا السـيل مـن السـنوات المؤبّـدة، هو محاولة بائسـة للتظاهـر بوجـود مصداقيـة لـدى المحكمة، التي تعرف أن لا فرق بين مؤبد ومئة عام، فكلاهما مدى الحياة...

وكان الأهم بالنسبة إلى الحكومة الإسرائيلية وأجهزتها الأمنية أن يصدر حكم بحقي بالسجن مدى الحياة، وتحميلي مسؤولية مباشرة عن مقتل عدد من الصهاينة، ومسؤولية غير مباشرة عن مقتل 104 إسرائيليين، ومسؤولية قيادة الانتفاضة والمقاومة.

وللعلـم فقـط، كنـت قـد أعـددت لائحـة اتهـام ضد دولة إسـرائيل

http://mzaj4.blogspot.com/

نيابة عن الشعب الفلسطيني، أرسلتها إلى وسائل الإعلام كافة عشية جلسة محاكمتي الأخيرة، خشية من عدم إعطائي فرصة للحديث في تلك المحاكمة.

تضمنت لائحة الاتهام اعتبار دولة إسرائيل مسؤولة جنائياً عن ارتكاب جرائم القتل الجماعي وجرائم ضد الإنسانية منتهكة بذلك القوانين والمعاهدات والاتفاقيات الدولية كافة...

وجاء في تلك اللائحة التي نُشرت على شكل بيان سياسي، أن هذه المحكمة المنعقدة من أجل محاكمتي ليست إلا وجهاً وقناعاً يستخدم القانون ليخفي ويغطي جرائم الاحتلال، الذي يُعتبر ذروة الإرهاب، بل إن الاحتلال هو أعلى مراحل الإرهاب...

وذكرتُ أيضاً في اللائحة التي أعددتها ضد دولة إسرائيل المحتلة: إن ممارسة مقاومة الاحتلال هي ممارسة للحرية، وجزء من ممارسة الحسّ والمشاعر الإنسانية، إنها إعلان صريح وواضح لرفض الاحتلال وجرائمه.

وفي مرافعتي خاطبت الإسرائيليين بالقول: «لماذا يصر اليهود على تكرار ما تعرضوا له وما عانوا منه عبر التاريخ في مواجهة الشعب الفلسطيني...؟ لماذا يكررون معسكرات الاعتقال والتعذيب...؟ لماذا يمارسون أعمال القتل والاحتلال والمجازر مع الشعب الفلسطيني المسالم...؟ لماذا يتبعون سياسة التشريد والتجويع والحصار وهدم البيوت وتدمير حياتنا...؟».

كيف يستطيع شعب تعرّض لمذابح جماعية، وإلى ملاحقة من قبل السلطات النازية أن يمارس كل هذا مع شعب آخر هو الشعب الفلسطيني؟

ودعوت المحكمة وقضاتها إلى ضرورة اتخاذ موقف جريء لرفض

www.ibtesama.com

أوامر المستوى السياسي والأمني، ورفض محاكمتي هذه، والانضمام إلى صفوف رافضي الخدمة في جيش القتلة، قتلة الأطفال والنساء، والانضمام إلى صوت العدل والحق والضمير، والدعوة إلى إنهاء الاحتلال فوراً.

إن الانتفاضة هي حركة الشعب الفلسطيني الاستقلالية من أجل أن نكون أسياداً في بلادنا ووطننا، وأن نمارس حريتنا في إطار دولتنا الفلسطينية المستقلة كاملة السيادة.

قاطعوا محاكم الاحتلال

لقد عملت كل ما أستطيع لإقناع القوى والفصائل الفلسطينية ومناضليها ومجاهديها في السجون وخارجها، لاتخاذ قرار وطني وجماعي بمقاطعة المحاكم الصهيونية وتعريتها أمام الرأي العام العالمي، وفضح هذا القضاء الزائف من أجل عدم إضفاء أي شرعية على محاكم الاحتلال، والقرارات الظالمة الجائرة الصادرة عنها...

إن قرار المقاطعة ومنع التعامل مع المحاكم العسكرية كان يجب اتخاذه مباشرة بعد الاحتلال الإسرائيلي عام 1967، ومهما يكن من أمر، وأياً تكن الأسباب التي أدت إلى عدم اتخاذ مثل هذا القرار من أطراف الحركة الوطنية الفلسطينية، فإن الأمر أصبح لا يُحتمل ولا يُطاق بعد إقامة السلطة الوطنية عام 1994، حيث ظلت المحاكم الصهيونية تمارس ظلمها وقهرها من دون أن تكترث لوجود السلطة الوطنية والاتفاقيات المعقودة مع م. ت. ف، مع أنه كان يجب على السلطة الفلسطينية أن تبلور موقفاً وقراراً جدياً بمقاطعة المحاكم الصهيونية، أو فك الارتباط بها.

ولو كان هناك قرار وطني يحظر التعامل مع المحاكم الصهيونية، لما دفع مئات الآلاف من الفلسطينيين ثمناً غالياً، وأمضى هؤلاء أجمل

www.ibtesama.com

سنوات عمرهم وراء القضبان.

عندما بادرت بمقاطعة محاكم الاحتلال، ورفضت الاعتراف بشرعيتها وصلاحيتها في محاكمتي، انضم إلى هذا الموقف بضع مئات من المناضلين، الأمر الذي أربك القضاء الصهيوني، الأمر الذي دفع سلطات الاحتلال والنيابة العامة للالتفاف على قرار المقاطعة من خلال تقديم بعض التسهيلات إلى العديد من المعتقلين، الذين قاطعوا المحاكم والاستعداد لتخفيف أحكام من معهم في المجموعات الفدائية، وإن كان تخفيفاً بسيطاً في الأحكام...

وسرعان ما تراجعت هذه الظاهرة، وتعذّر عليّ مواصلة هذا الجهد بسبب وجودي في العزل الانفرادي فترة طويلة.

ولمست أن هناك قلقاً من الإخوة المعتقلين، خاصة ممن كان يُتوقع أن تصدر بحقهم أحكام مخففة وخشيتهم من أن يؤدي قرار المقاطعة إلى إصدار أحكام ضدهم من دون وجود محامين، وإلى استفراد القضاة بهم والانتقام منهم بإصدار أحكام عالية رادعة ضدهم.

وربما يحتاج قرار المقاطعة البدء بالأحكام العالية، وتجنيب المعتقلين ذوي الأحكام الخفيفة ذلك، لأن المهم أن تصدر صرخة تعلن ألاّ شرعية لهذه المحاكم الجائرة والتي قد تتطور إلى مقاطعة شاملة وكاملة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية تعاون المحامين في ذلك، لأن بعضهم لعبوا دوراً سلبياً لوقف ظاهرة مقاطعة الاحتلال لأسباب خاصة وضيقة.

مع علم بعض المحامين بهذا، فإن الأحكام الصادرة يحددها جهاز «الشاباك»، وتتم بتوصيات منه، وإن تأثير المحامين يبقى محدوداً وجزئياً.

كما أن القضاة العسكريين هم من القضاة الذين ينفذون سياسة

www.ibtesama.com

الاحتـلال، ويغلـب علـى معظمهـم الحقـد والتطـرف والكراهيـة وروح الانتقام من الأسرى الفلسطينيين.

وتظهر الإحصائيات أن المحاكم العسـكرية أصدرت حكم البراءة في أقل من 1 % من الملفات والقضايا التي قررت بشأنها من بين عشرات آلاف الملفات والقضايا التي تبت فيها سنوياً.

وتثبـت كل الدلائـل أن هـذه المحاكـم تسـتند إلـى الإفـادات والاعترافـات، التـي ينتزعهـا ضبـاط التحقيق بالقـوة والتعذيب والتحايل والابتزاز والتهديد.

وفـي جميـع الحـالات التـي يتراجـع فيهـا المعتقل عـن أقواله التي انتزعـت منـه تحـت الضغـط، ترفض المحكمة الأخذ بأقوال المعتقل في أثنـاء محاكمتـه، وتعلـن عنـه النيابة العسـكرية «شـاهداً معادياً»، وتسـتند المحكمة إلى ما تقدمه المخابرات من إفادات واعترافات كان المعتقل قد قدمها في أثناء التحقيق والتي انتزعت منه بالقوة والتعذيب والتحايل، ولا تقبـل المحكمـة تراجـع المعتقـل عـن أقوالـه أمام المخابرات إلا في حالات نادرة ومحددة.

واعتادت المحاكم الصهيونية إصدار أحكام جائرة مضاعفة مرات عديـدة، الأمـر الـذي أدى إلـى الـزجّ بهـذا العدد الكبير من أبناء الشـعب الفلسطيني والشعوب العربية ذات العلاقة بالصراع، لفترات طويلة جداً في سجون الاحتلال.

وإذا كان الإسـرائيليون أنفسـهم يتهمـون محاكمهـم بأنهـا عنصرية، وغير ديمقراطية، ولا تنفذ سـوى سياسـات الاحتلال، فكيف علينا نحن الفلسطينيين أن نتعاطى مع مثل هذه المحاكم؟

الكاتبة الإسرائيلية المعروفة «عميرة هس»، كتبت في هآرتس يوم 23/ 8/ 2006: «إن المحتل هو الذي يدين ويتهم ويحاكم، والقانون يميّز

www.ibtesama.com

بين يهودي وفلسطيني وبين أسير وأسير».

وقالت أيضاً: «إن المعتقلين الفلسطينيين يُقتادون إلى محكمة عسكرية، هي جزء من الآلة العسكرية الاحتلالية، التي تقمع السكان المدنيين، والتي تعتبر مقاومة الاحتلال سواء أكان ذلك بالتظاهر أو برفع الأعلام أو غير ذلك جريمة. هذه الآلة هي التي تقوم بالإدانة وإصدار الأحكام، وقضاتها منحازون ومخلصون لمصلحة حماية المحتل والمستوطن...».

أي محاكم هذه التي تقرر إعطاء سياسة الاغتيالات، وارتكاب الجرائم الشرعية كما هو حال قرار محكمة العدل العليا الإسرائيلية يوم 14/ 12/ 2006 وغيرها الكثير من القرارات التي تجيز الاستيطان والاعتداء والتعذيب، ومنع حرية الحركة والسفر، وتجيز الحصار، ولا تحاسب أي إسرائيلي على جرائمه ولا تقدمه للمحاكمة؟

وقد وصف الكاتب الإسرائيلي جدعون ليفي في هآرتس يوم 17/ 12/ 2006 هذه المحاكم بقوله: «حظي الاحتلال بتعزيز هام لقوته من خلال الشرعية الواسعة التي منحه إياها محكمة العدل العليا الإسرائيلية. ضحايا الاحتلال لن يحظوا بالتعويض، والجدار الفاصل سيُستَكمل وفق المخطط، والجور والظلم سيكتسيان بشرعية قضائية».

إن من الواجب اتخاذ قرار وطني على المستوى الرسمي، من الرئاسة والحكومة والمجلس التشريعي، والفصائل الوطنية والإسلامية ومن الحركة الأسيرة، يقضي بمقاطعة المحاكم الصهيونية ورفض التعاطي معها، والطلب من المحامين بعدم تمثيل المعتقلين أمامها.

وهذا سيفضح ويعرّي المحاكم، ويلغي أي محاولة لإضفاء الشرعية عليها وعلى الأحكام الصادرة عنها.

www.ibtesama.com

ليقـرر هـؤلاء القضـاة العسـكريون والمدنيون ما يشـاؤون من دون أي مرافعـات، علـى أن يصاحـب ذلـك القيـام بحملة فلسـطينية واسـعة، لتعبئـة الـرأي العـام بهـذا الموقـف، والقيـام بحملة عربيـة ودولية، ونقل قضية الأسرى إلى المحافل العالمية، وخاصة الأمم المتحدة، والجمعية العامة، والمحكمة الدولية في لاهاي لاتخاذ قرار يقضي باعتبار الأسرى الفلسطينيين والعرب في سجون ومعسكرات الاحتلال «أسرى حرب»، وأسرى حرية ينتمون إلى حركة تحرير وطني، ولا تجوز محاكمة أولئك الأسـرى، ويجب إلغاء الأحكام الصادرة بحقهم، واعتبارها غير شـرعية وغير قانونية، والدفع باتجاه تطبيق اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية المدنيين من الحرب على الأراضي الفلسـطينية وسـكانها، وبما ينسـجم كذلك مع روح الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

www.ibtesama.com

الفَصْلُ الرّابع

العزل الانفرادي

(ولكنني تعلمت مواعيد الشمس
وقلت: أهلاً بالسماء الزرقاء
وإن كانت مُغطاة بالصفيح والحديد)

www.ibtesama.com



www.ibtesama.com

الموت البطيء

اتبعت سلطات الاحتلال الوسائل والأساليب المختلفة، من أجل تحويل حياة الأسرى إلى جحيم وعذاب ومعاناة، تفوق القدرة البشرية على التحمل في بعض الأحيان.

لم يكتفِ الاحتلال ومخابراته وسلطات سجونه باعتقال وتعذيب مئات الآلاف من الفلسطينيين والعرب، ولم يكتفِ بتشكيل محاكم عسكرية صورية، وإصدار أحكام ظالمة وجائرة، أدت إلى تمضية مئات الآلاف من الأسرى سنوات أعمارهم خلف القضبان، حيث أمضى بعضهم أحكاماً تزيد على عشر سنوات، ومئات أمضوا أكثر من خمسة عشر عاماً في السجون، وهناك من يمضي عامه الثلاثين في السجون حتى الآن، بل زاد العذاب عذاباً، وجعل من السجن جحيماً من خلال جملة من الممارسات، أبرزها وأخطرها سياسة العزل الانفرادي، التي يطلق عليها الأسرى سياسة الموت البطيء.

هذه السياسة ليست جديدة بل استخدمها الاحتلال ومنذ بداياته، ولا تزال مستمرة وبأشكال مختلفة، تعرّض خلالها المئات من المناضلين وكوادر الحركة الأسيرة وقادتها إلى العزل الانفرادي، وعانوا ويلاته وقساوته على مرّ السنين.

لقد شهدت سياسة العزل توسّعاً أكثر، وأصبحت تطال عدداً أكبر، ولفترات أطول من السابق، وفي ظروف أكثر قساوة وصعوبة.

يستخدم الاحتلال هذه السياسة بواسطة جهاز المخابرات «الشاباك» وسلطة السجون، وهاتان الجهتان المخولتان باتخاذ قرار العزل الانفرادي أو الثنائي بحق أي أسير، أو زجّه في قسم خاصّ بالعزل الجماعي.

www.ibtesama.com

القرار الذي يتخذه جهاز «الشاباك» يطال من يعتقد أن وجودهم مع الأسرى الآخرين قد يلحق ضرراً بما يسمى بالأمن الإسرائيلي، ويطال ذلك النشطاء والكوادر الذين يمارسون نشاطهم الاعتقالي داخل السجن.

يعزز جهاز «الشاباك» هذا القرار بادّعائه أن اعترافات قد أُخِذَت على كوادر موجودة في السجن وهذه الكوادر قامت بتنظيم خلايا للأجنحة العسكرية للفصائل، وتكليفهم ببعض الأنشطة والعمليات، أو تزويدهم بأسلحة ومعلومات وخطط لاختطاف جنود لأجل مبادلة أسرى وغير ذلك...

وهناك بعض المناضلين الذين يقرر «الشاباك» عزلهم مباشرة بعد انتهاء التحقيق معهم، ويتم نقلهم من زنازين التحقيق إلى زنازين العزل، وقبل ممارستهم لأي نشاط بعد اعتقالهم، وخاصة من تدّعي المخابرات أنهم (مهندسو الأحزمة الناسفة والمتفجرات)، أو يلعبون دوراً بارزاً في إعداد العبوات والأحزمة الناسفة، وتجنيد الاستشهاديين وغير ذلك...

وأحياناً يأخذ «الشاباك» قرار العزل على خلفية الانتقام من بعض الكوادر والمناضلين، وخاصة الذين لم يعترفوا في التحقيق.

أما الشق الآخر من العزل، فهو الذي تقرره إدارة مصلحة السجون، ويستهدف بشكل خاص قادة الحركة الأسيرة والنشطاء داخل السجون، وممن لهم نفوذ وتأثير داخل الفصائل والأسرى، ويطال الأمر كذلك من تعتقد إدارة السجون أنهم يقفون وراء الأنشطة والاحتجاجات والفعاليات والإضرابات داخل السجون في سبيل تحسين شروط الحياة الإنسانية والمطالبة بحقوق الأسرى، وتطلق إدارة السجون عليهم (ذوي الرؤوس الحامية).

وكثيراً ما يتم عزل عدد من الأسرى وتُوجّه إليهم اتهامات بممارسة العنف ضد بعض الضباط والشرطة، حيث تقع بين الحين والآخر

www.ibtesama.com

صدامات ولو على نحو محدود، ويقوم أسير بضرب شرطي أو يطعن ضابطاً وغير ذلك... ولا يُقدِم أي أسير على عمل كهذا ضد سجّانه، إلا بعد أن يكون قد ذاق الأمرّين من ممارسات هذا السجّان بشكل خاصّ أو ممارسات سلطات السجون بحق الأسرى بشكل عام.

وطبقاً لقوانين دولة الاحتلال، فإن الأسير المعزول يُقدّم إلى محكمة للنظر في تمديد عزله بعد مرور ستة أشهر من بداية العزل، وبطبيعة الحال، فإن المحكمة تكون صورية، وتنفذ تعليمات «الشاباك» ومصلحة السجون، وغالباً ما يجدد العزل ويمدد بذريعة أن الأسير يشكل خطراً على ما يُسمى أمن دولة إسرائيل...

إن جزءاً كبيراً من الأسرى الذين يتم عزلهم انفرادياً توجه إليهم اتهامات لا أساس لها من الصحة.

لا يكتفي جهاز «الشاباك» وسلطات السجون بوضع الأسير في زنازين العزل الانفرادي وأحياناً لسنوات طويلة، بل يُحرم الأسير من أبسط الحقوق مثل زيارة الأهل، استلام الكتب أو الصحف، تقديم امتحانات التوجيهي وغيرها من الحقوق.

وقد عانى الكثير من المجاهدين والمناضلين من العزل بأشكاله المختلفة داخل زنازين السجون، وأصيب عدد لا بأس به من هؤلاء بأمراض صحية وجسدية ونفسية خطيرة، وبعضهم أمضى أكثر من خمس سنوات في زنازين العزل، ولا يزال بعضهم موجودين فيها ومنذ فترة طويلة...

إن سياسة العزل هي سياسة الموت البطيء للأسرى، الذين تدفنهم سلطات الاحتلال في قبور موحشة، تُسمى الزنازين، وتمارس بحقهم كل ألوان البطش والقهر والتعذيب النفسي والجسدي.

www.ibtesama.com

زنزانة رقم 1 في عزل سجن الرملة

في مطلع كانون الثاني عام 2003، قامت سلطات الاحتلال بنقلي إلى العزل الانفرادي في قسم خاص، في سجن أيالون التابع لسجن مدينة الرملة، وتم اقتيادي مقيد اليدين والقدمين كالعادة في سيارة شرطة منفرداً، تحرسها سيارات عسكرية من قوات الاحتلال، ولم يتم إبلاغي أين سيذهبون بي في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

وصلت سجن أيالون عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وهذا القسم جزء من مبنى قديم شيدته سلطات الاحتلال البريطاني، ثم أضاف إليه الاحتلال الإسرائيلي الكثير من المباني والأقسام.

في هذه المنطقة المسماة سجن الرملة مجموعة من السجون، هي: سجن أيالون، سجن نيتسان، سجن جفعون، سجن نفي ترتسا المخصص للنساء، المعبر (المعبار بالعبرية) الرئيس لنقل الأسرى بين السجون، وعزل أيالون، وكانت وجهتي بطبيعة الحال إلى قسم العزل. إضافة إلى السجون المذكورة سابقاً، هناك أيضاً مستشفى سجن الرملة، الذي يقبع فيه بشكل دائم عشرات الأسرى المرضى.

وكما هي العادة بعد الوصول، جرى تفتيش دقيق للأغراض القليلة التي في حوزتي، ولي شخصياً، حيث درجت العادة - ولا تزال في السجون كافةً - بإجراء تفتيش عند دخول أي سجن ومغادرته، ويجري التفتيش عبر أجهزة إلكترونية كتلك الموجودة في المطارات، إضافة إلى جهاز يدوي إلكتروني، ثم بعد ذلك يتم تفتيش للجسم كاملاً وهو عارٍ تماماً، وتفتيش للملابس والأغراض قطعة قطعة مع ما يرافق ذلك من الإذلال والقهر والإهانة والانتظار مقيداً لساعات طويلة جداً..

اقتادني عدد من أفراد الشرطة إلى القسم الخاص بالعزل، حيث

www.ibtesama.com

صعدتُ حوالي اثنتي عشرة درجة، ثم دخلتُ قسماً صغيراً مضغوطاً فيه ممر ضيق، وصفّ من الزنازين الصغيرة عددها ثمانية، وأخرى مثلها في الجهة المقابلة.

أدخلوني إلى زنزانة رقم (I) الواقعة في الجهة اليمنى من الصف الأول من الزنازين، وتتميز بأنها تتداخل بنحو مترٍ عن زنزانة أخرى مجاورة لها على شكل زاوية قائمة.

كانت زنزانتي في الجهة الأقدم من القسم، معتمة جداً، وفيها فتحة عند نهاية الحائط العالي كثيراً، وهي فتحة مدججة بالشبك والقضبان، ولا يتعدى ارتفاع تلك الفتحة وعرضها 15سم، ومن المستحيل الوصول إليها بسبب علوّها عن الأرض، ولأنها تطل على مبنى آخر من السجن، فلا جدوى من التسلق والمخاطرة بالسقوط.

يتسلل النور من هذه الفتحة لفترة قصيرة كخيط رفيع في ساعة محددة قبل الظهر، وفي أوقات قليلة من الليل يمكن مشاهدة القمر من مكان ما ولكن بصعوبة شديدة.

وبما أن الزنزانة من رمل وتراب، فإن جدرانها مليئة بعشرات الثقوب والتشققات، ويوجد فيها سرير أو «بُرش» بلغة الأسرى، مكوّن من طبقتين من الحديد أكله الصدأ، وقد اتخذت من الطبقة السفلية مناماً لي، ووضعت القليل مما أحمله من ملابس وأغراض قليلة على الطبقة العلوية من السرير.

كان أحد السجناء الجنائيين اليهود ممن سبقوني إلى هذه الزنزانة قد رسم أشكالاً مختلفة من الجماجم على الجدار الذي سأوجّه وجهي غالباً نحوه، وهذه الأشكال مصبوغة بألوان مرعبة تثير الفزع.

أما طول الزنزانة فهو جيد نسبياً، حيث يصل إلى مترين، والعرض

www.ibtesama.com

لا يزيد على 120 سنتمتراً والارتفاع ثلاثة أمتار ونصف تقريباً، وهناك باب حديدي مغلق تماماً، وفيه فتحة بطول وعرض 10 سنتمترات وفيها أربعة قضبان صغيرة طولاً وعرضاً مع غطاء يفتحه ويغلقه السجّان متى يشاء، غالباً ما يتطلع السجّان من خلالها للتأكد من وجود الأسير، وحين يقوم بالعد اليومي الذي يتكرر أربعاً إلى خمس مرات على مدار الساعة من الصباح وحتى المساء.

وهناك فتحة صغيرة أخرى في وسط الباب بطول 20 سنتمتراً وعرض 10 سنتمترات تستخدم لتزويد الأسير بالوجبات اليومية وتبقى مغلقة دائماً.

في الزنزانة ضوء خافت ومحدود، وإذا أطفئ النور تصبح الزنزانة مظلمة كلياً، ولا يمكن رؤية أي شيء أو حتى القدرة على التحرك، وبالتالي، يتوجب أن يبقى الضوء مُشتعلاً طوال الوقت، وفي الغالب، فإن السجّان هو الذي يُنير الضوء ويطفئه، لأن مفتاح تشغيل الإنارة يقع خارج الزنزانة.

هناك مكان يُسمى مجازاً حمام لقضاء الحاجة، وهو قديم جداً، وفي حالة مزرية وبائسة ومحفور بالأرض إلى درجة يغدو معها قضاء الحاجة عملية صعبة وشاقة، وتتجمع مياه الاغتسال في هذا الحمام المفتوح، وتفيض في الزنزانة وتصل إلى البُرش تقريباً، الأمر الذي يقتضي إزالتها يومياً وإعادة المياه إلى الحمام...

في الزنزانة أيضاً حوض صغير مهترئ يُسمى مغسلة، يمكن غسل الوجه واليدين فيها، وتنظيف بعض الصحون البلاستيكية، مع أن المياه تتسرب من ماسورة هذه المغسلة، لتجعل من عملية تنظيف الأواني وترتيبها عملية شاقة تحتاج إلى تجفيف المياه والأرض مرة ثانية.

دخلت إلى الزنزانة الانفرادية هذه، وأنا لم آخذ بعد قسطاً قليلاً من

www.ibtesama.com

الراحة بعد رحلة تحقيق مليئة بالعذاب والمرارة والذل والمهانة والقهر للنفس الإنسانية والنضالية، وبعد أن أمضيت مئة يوم في زنازين التحقيق الصغيرة القذرة...

صحيح أنني الآن في زنزانة بلا تحقيق، وبلا قيود على كرسي وشبح على مدار الساعة، صحيح أنني أستطيع النوم متى شئت تقريباً ما عدا أوقات العد اليومي والتفتيش واستقبال وجبات الطعام، إضافة إلى الإزعاج الشديد في القسم... إلا أن هذه الزنزانة الملونة بصور الجماجم، تختلف الحياة وتفوح من طبيعتها مرحلة جديدة من التعذيب النفسي والروحي...

الآن أعيش لوحدي في زنزانة موحشة ومعتمة، وما كان يخفف عني قليلاً أنها ليست المرة الأولى التي أعيش فيها في العزل الانفرادي، فقد سبق أن عزلت انفرادياً عام 1978 في سجن رام الله...

تذكرت تلك الأيام التي يفصلني عنها الآن ربع قرن من الزمن، وها أنا ذا أعود ثانية للعزل الانفرادي، كانت آنذاك تجربتي في الحياة محدودة، ولا تتعدى كثيراً حدود القرية والمدرسة والقرى المجاورة ومدينة رام الله، ولم أكن متزوجاً، فليس لدي مسؤولية الأسرة والأولاد وغير ذلك، وكانت تلك التجربة قصيرة على أيّ حال، ولم تتجاوز الخمسة أشهر. أما الآن، فلا أعرف كم ستطول هذه المرحلة الشاقة في ظروف أكثر صعوبة وقسوة.

في عام 1978 كنت في بداية الرحلة النضالية، وبداية رحلة مقاومة الاحتلال، وكان عمري أربعة عشر عاماً، أما الآن فالأمر مختلف تماماً والمسؤولية أكبر بكثير.

في عام 1978 كانت بداية أحلامي بالحرية ضرباً من الرومانسية الشخصية لشاب في بداية المشوار، ولا يزال أقرب إلى سن المراهقة

www.ibtesama.com

منه إلى الشاب، وكانت المثالية الثورية والرومانسية سيدة الموقف، وكان الحلم يتركز على الحرية الشخصية أكثر منه على لقاء الأم الحبيبة والوالد والأشقاء، والأخت الغالية والأهل وشوارع القرية والأصدقاء، ولم يكن لدي زوجة وأولاد يشتعل قلبي وعقلي ووجداني اشتياقاً لهم، ولم يكن العقل مليئاً بهموم الوطن والشعب العظيم بكل تفاصيله ومعاناته، ولم يكن السجّانون يتعاملون تعاملاً خاصاً معي، فأنا واحد من آلاف المناضلين في السجون...

أما الآن فإن كل سجّان وضابط ومدير سجن ومسؤول يعرفون مروان البرغوثي، وبعضهم يتعمّدون الإساءة حتى يكون ذلك محطة أو علامة هامة في سجله وسيرته الذاتية، ولممارسة غروره وغطرسته.

في تجربة عزلي عام 1978 لم يكن هناك أي إمكانية لمعرفة ما يدور خارج الأسوار، ولم أرَ صحيفة أو تلفزيوناً، أو أسمع إذاعة أو أي شيء. كانت الزنزانة قبراً حقيقياً، والفارق الوحيد أن الميت في هذه الزنزانة يبقى حياً يتنفس ويأكل ويقضي حاجته ويفكر.

أذكر في هذا السياق، أنه بعد نقلي من العزل الانفرادي إلى سجن طولكرم، حيث كان قسماً للعزل الجماعي، فوجئت بالتطورات الخارجية التي جرت خلال فترة عزلي، وأبلغني بها زملائي الأسرى وأبرزها قيام ثورة شعبية بقيادة الإمام الخميني في إيران، أطاحت نظام الشاه محمد رضا بهلوي، الذي كان إمبراطوراً ودكتاتوراً حليفاً لإسرائيل وأميركا، وشكلت بلاده قاعدة للوجود والنفوذ الأميركي في الشرق الأوسط.

كذلك علمت أن سفارة إسرائيل في طهران تحولت مؤخراً إلى سفارة فلسطين، وأن ياسر عرفات كان أول زعيم تستقبله الثورة الوليدة، التي تقود جمهورية إيران الإسلامية... وغيرها من الأحداث التي عرفتها وتتعلق بالتطورات على الساحة العربية والدولية والفلسطينية.

www.ibtesama.com

القصد من كل ذلك هو أن العزل الانفرادي يفصل الإنسان عن العالم... يتوقف الزمن وربما يريدون أن يتوقف العقل والتفكير والتفاعل مع الأحداث والمحيط، إنه موت بطيء بلا أوكسجين الحياة.

في سجن الرملة كان يتواجد أسرى في زنازين متجاورة في القسم، ولكن على الجهة الأخرى بحيث يتعذر مشاهدتهم أو الحديث إليهم إلا في أثناء المرور للخروج إلى ساحة الفورة، في زنزانة رقم (6) الأخوان أحمد البرغوثي «الفرنسي» وموسى دودين، وجدير بالذكر أن «الفرنسي» عمل إلى جانبي مرافقاً ومساعداً ومناضلاً وصديقاً وحبيباً مخلصاً ووفياً، وأظهر صلابة مميزة في التحقيق وحكم عليه بالسجن (13) عاماً بعد أن قاطع المحكمة الصهيونية. والفرنسي الذي هو لقبه يعبّر عن جيل كامل من المناضلين الذين كانوا أطفالاً في الانتفاضة الأولى، وصنعوا هذه الانتفاضة المباركة، وقدم هذا الجيل نموذجاً في الصمود والتضحية والاستشهاد لا مثيل له في تاريخنا، وهو أكثر الأجيال شجاعة وجرأة واستعداداً للاستشهاد في مواجهة المحتلين.

ويعتبر «الفرنسي» من أبرز قادة ومؤسسي كتائب شهداء الأقصى في فلسطين، عمل إلى جانبي وهو لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره إلى أن تم اعتقاله معي. شعرت بكثير من الضعف لوجوده في العزل الانفرادي حيث أمضى فترة طويلة لإدعاء «الشاباك» أنه يواصل إرسال استشهاديين بتعليمات من سجنه، وقرر «الفرنسي» إلى جانب زميله المناضل موسى دودين وهو من قادة كتائب عز الدين القسام ومن أعضاء قيادة حماس في السجون الصهيونية، خوض إضراب مفتوح على الطعام مرتين احتجاجاً على العزل الانفرادي حيث كانا معاً في الزنزانة نفسها واستمرا في الإضراب أكثر من 35 يوماً وتدهورت حالتهما الصحية ونقلا إلى المستشفى وكانا في حالة خطرة جداً، كما تكرر الإضراب من

www.ibtesama.com

قِبَلهما مرة أخرى ورغم ظروف القهر والزنزانة فقد انسجما معاً وتعاونا على نحو رائع، وقد تنقلا بين زنازين بئر السبع والرملة.

وفي زنزانة أخرى في نهاية الصف الثاني من الزنازين، اثنان من الإخوة من كوادر حركة حماس وهما هاني جابر الذي أقدم على طعن مدير سجن نفحة بسبب تفتيش مهين لذوي الأسرى والنساء خاصة. أما الأخ محمود عيسى، فهو محكوم بالسجن المؤبد ويعتبر من قيادات حماس البارزين في السجون ومضى على عزله الانفرادي أكثر من أربع سنوات. أما باقي الزنازين، فكانت مخصصة لمعتقلين جنائيين من اليهود والعرب، وكان إلى جانبي في زنزانة صغيرة رقمها (1) أحد الجنائيين اليهود ويدعى «ديفيد أتياس» وكان من أبرز قادة المافيا في إسرائيل.

لا بدّ من الصراخ

بعد دخولي زنزانة رقم (1) في سجن أيالون في كانون الثاني 2003، ومن المعروف أن هذا الشهر واحد من أقسى شهور فصل الشتاء في بلادنا، غالباً ما تكون نسبة الأمطار هي الأعلى فيه مع ما يرافق ذلك من برد قارس...

والحقيقة وعلى خلاف الكثيرين، فإنني أستمتع بفصل الشتاء حيث عشت كثيراً من فصول الشتاء في فترة الطفولة والشباب في قريتي، وكنت أستمتع بمناظر الأشجار الغارقة بمياه الأمطار، وتفجّر الينابيع والبرك، وفيضان الوديان الرائع، ولا أزال في زنزانتي أحمل معي هذه الذكريات والصور الجميلة للقرية في فصل شتائها، وأعيش في ذاكرتي مشهد الجبال والتلال والشوارع والأشجار والينابيع، وأسمع صوت الرياح وأشم رائحة الزعتر في الربيع...

ومن اللافت أنني لم أشعر بكثير من البرد في هذه الزنزانة، لأنها

www.ibtesama.com

مغلقـة تمامـاً لا يدخلهـا الهـواء إلا بصعوبـة بالغـة، علماً أن الرطوبة فيها عالية، ورائحة العفن تنبعث من كل زواياها، إضافة إلى النمل والحشرات والصراصير، ومع ذلك فهي أقل برداً من الزنازين الأخرى...

لـم يكـن لـدي أي شـيء فـي الزنزانـة، وانتظـرت أكثر من شـهرين للحصـول علـى تلفزيـون ومذيـاع اشـتريتهما من بقالة السـجن المسـماة «الكانتيـن»، وبلاطـة تعمـل على الكهرباء وتسـتخدم للطبخ والتسـخين، وتمكنت خلال ثلاثة أشهر من شراء هذه الأدوات، ليصبح بإمكاني أن أعد طعاماً أو شراباً وخاصة الشاي.

بالمناسـبة، كل تلك الأشـياء لم تكن موجودة في أثناء اعتقالاتي السابقة، والواقعة تقريباً بين عامي (1976-1978) حيث كانت السجون والزنازين على حدٍّ سـواء خالية من كل شـيء إلا من الأسـرى، وقليل من الطعام، وبشروط حياة مريرة وقاسية لا تُطاق...

لقـد خـاض الأسـرى عشـرات الإضرابـات المفتوحة عـن الطعام، وسـقط العديد من الشـهداء في معركة الدفاع عن شـروط حياة إنسـانية، يتوفّر فيها الحدّ الأدنى من كرامة الأسير، وبفضل هذه التضحيات الجسام استطاع الأسرى الحصول على التلفزيونات والأجهزة الكهربائية الأخرى وغيرها من الإنجازات، التي هي حقوق أساسية للأسير الفلسطيني.

فـي يومـي الأول فـي الزنزانـة التـي دخلتها بعد الثانية بعد منتصف الليـل وكنـت متعبـاً، اسـتغرقت فـي النوم، ولم أسـتيقظ إلا عند السـاعة السادسـة والنصـف صباحـاً علـى صوت العـدد الصباحي، الذي يتوجب خلاله على الأسير الوقوف حتى يراه السجّان، ويتأكد أنه لا يزال حياً، وتعتبر عملية الوقوف جزءاً من سياسة إذلال الأسير.

منذ اليوم الأول في هذه الزنزانة الموحشـة، بدأت أعمل للتكيف مع هذا القبر، وازدحمت الأسئلة في رأسي: إلى متى سأبقى هنا؟ ماذا

www.ibtesama.com

سأفعل إذا امتدت الإقامة لمدة طويلة وربما لسنوات؟ ما هي المتاعب التي سأعاني منها؟ ماذا سيجري من الناحية الصحية والنفسية وحتى العقلية؟ هل سيؤثر هذا العزل في روحي وإرادتي وصمودي في وجه المحتل والسجّان؟

هل هي محاولة من «الشاباك» لمواصلة تعذيبي واستمرار معاناتي بعد تحقيق استمر لأشهر عدة، فشلوا خلالها في كسر إرادة الانتفاضة والمقاومة التي تسكن عقلي ووجداني وقلبي ومشاعري. هل سأقوى على خوض هذه المعركة والانتصار فيها؟ وما الذي سأفعله لأكون قوياً؟؟؟

أسئلة كثيرة بدأت أفكر للإجابة عنها، وتهيئة نفسي لمشوار آخر في رحلة المجابهة مع الجلادين، ووجدت الإجابة الواضحة والصريحة وهي أنه يجب اجتياز هذا الاختبار والتحدي، ويجب الانتصار وبتفوق على المحتل والسجّان، والاستعداد لكل الاحتمالات بوضع برنامج ذاتي للتعاطي مع المعركة الجديدة...

وجدت نفسي منفصلاً عن العالم إلى درجة أنه لا يوجد أحد أتحدث إليه، أو أضحك معه... أغضب منه أو يغضب مني، أستفزه ويستفزني...

هذا الصمت يوجعني، ولا بد من الصراخ حتى يعلموا أنني موجود وحي، ولن أتعفن في زنازينهم القذرة، ولا بد من تحوُّل هذا الصمت إلى عادات تكسر حساباتهم، وإلى سلوك يكسر توقعاتهم. لم يسمعوا شكوى أو يروا خوفاً أو فزعاً، بل شاهدوني هادئاً، واستطعت أن أعرف تفاصيل الزنزانة حتى تعودت هي عليّ، أعرف مواعيد تسلل ضوء الشمس لأغتسل بالحياة، أعرف متى يدخل نور القمر إلى الزنزانة لأقيم معه علاقة حميمة ويصبح صديقي...

www.ibtesama.com

واتضح لي أن لكل أسير في العزل الانفرادي ساعة واحدة في اليوم، يخرج فيها من الزنزانة إلى ما يُسمى ساحة الفورة أو الفسحة أو النزهة، وعندما حضر السجّان وسألني إن كنت أرغب في الخروج إلى الساحة، أجبته: بالطبع سأخرج. ولم أتأخر عن الخروج إلى الساحة، واستغلال هذه الساعة طوال فترة العزل، علماً أن الكثير من الأسرى يفضلون البقاء في الزنزانة خاصة في الشتاء أو أيام الحر الشديد.

كانت ساحة قسم العزل الانفرادي في الجهة الأخرى من الزنازين وهي ساحة صغيرة جداً لا يزيد طولها على ثمانية أمتار، وعرضها خمسة أمتار، محاطة بجدران إسمنتية مرتفعة جداً ولا يمكن مشاهدة أي شيء سوى الجدران المرتفعة من الجهات الأربع.

الساحة مسقوفة بأربع طبقات من القضبان الحديدية، ونصفها مغطى بالحديد الكامل، بينما النصف الآخر فيه فتحات تُمكّن الأسير من رؤية جزء من السماء المشبكة بالحديد والأسلاك الشائكة، وتصل الشمس إلى الساحة في وقت محدود تقريباً، ويعتمد على حظ الأسير والوقت الذي يخرج فيه إلى الساحة، **ولكنني تعلمت مواعيد الشمس، وقلت أهلاً بالسماء الزرقاء، وإن كانت مغطاة بالصفيح والحديد.**

طوال فترة وجودي في ذلك العزل في سجن أيالون لم أتأخر عن الخروج يوماً، حتى في ظل طقس شديد المطر، وصعوبة في المشي لأن الساحة تمتلئ بمياه الأمطار، وخاصة أنها أشبه بالبئر، مما يجعل السير فيها صعباً، ومع ذلك كنت أفضل أن أبتل من المطر على أن أبقى في الزنزانة، كي أتمكن فيها من معانقة قليل من ضوء الشمس، وأشم الهواء الذي يخترق الجدران والأسلاك الشائكة في السماء...

عندما يحين موعد الخروج إلى الساحة كنت أُخرج يديَّ من نافذة باب الزنزانة الصغيرة ليقوم السجّان بتقييدي، وأحياناً يضع السلاسل في

www.ibtesama.com

قدمي لأسير في هذا الوضع مسافة 15 متراً، وعند دخول الساحة مقيداً وبعد إغلاق الباب، أضع يديَّ على نافذة الباب ليقوم السجّان بفك القيود، وبطبيعة الحال كنت وحيداً في الساحة كما في الزنزانة، أمضي فترة الفورة ماشياً، أنادي المعتقلين في الزنازين الأقرب إلى الساحة مع أنها مهمة شاقة، شعرت كثيراً بالتعب في الحنجرة بسبب المناداة، ورفع صوتي حتى يتمكن من تجاوز الجدران الإسمنتية، لعلني أتمكن من الحديث إلى إخوةٍ لا أراهم، ولكنني أسمع أصواتهم ويجب أن يسمعوا صوتي، ولا بد من الصراخ بصوتٍ عالٍ.

كان السجّانون إذا سمعوا صوتاً وصراخاً سارعوا للحضور، طالبين مني عدم الكلام، والتوقف عن الصراخ مهددين بإعادتي إلى الزنزانة...

إن خروجي إلى الساحة لفترة محدودة والدقائق القليلة من الصراخ هما الفرصة الوحيد للتحدث، واختبار الصوت كي لا أنسى الحديث، لأن الدوران في هذه الساحة الصغيرة أو البئر العميقة، يجعلك تشعر بأنك تفقد جزءاً من طبيعتك الإنسانية، حيث تكابد معاناة وقهراً وحرماناً من الحرية والحياة العادية...

لا بد من التأمل العميق والتفكير، لا بد من استدعاء كل مقومات الصمود الذاتي وهي كثيرة، كي لا يطمئن السجّان إلى أن البئر مغلقة، وأن الصوت صار صدى...

عزل سجن شطة

في الرابع عشر من آب عام 2003 حضر صباحاً أحد السجّانين، طالباً مني جمع أغراضي لأنه سيتمّ نقلي من هذه الزنزانة إلى مكان آخر لم يتم الإفصاح عنه. فقمتُ بجمعها استعداداً للمغادرة، ونظرت إلى الزنزانة التي مرّ الآن على وجودي فيها – لم أغادرها قط على

www.ibtesama.com

مدار الساعة سوى ساعة يومياً إلى ساحة الفورة الصغيرة، وما خلا ذلك بقيت ضمن الجدران المهترئة، وفي العتمة التي تجعل المكان شبيهاً بالقبر - أكثر من 250 يوماً صعباً وقاسياً، وكان العزل هو أن يعيش الإنسان وسط جدران مغلقة، وكأنه بلا خيال أو فكر أو وجدان، أو بلا أحلام أو طموح.

قد تحدّ الجدران من الرؤية ولكنها لا تمنع التفكير، تقيّد الحركة ولا تمنع من الانطلاق، فكل منا يحمل بداخله وطناً يجوب فيه وينتقل من لحظاته الخاصة إلى اللحظات العامة، ويستعيد من ذاته نشاطاً ومواقف يعيد فهمها ويتشكل فيها من جديد. أكون في وقتي المعزول أحياناً أكثر قرباً من شريكة حياتي ومن أولادي ومن قضاياي، أعيش الأمر الواحد والذكرى بصور مختلفة لم تقتل فيها الوجدان ولا الفكر ولا الحلم، بل تآكلت الجدران واهترأت وأضاءت لي صورة الأهل والوطن أشكالاً جديدة لهزيمة القيد والجدار والعزل، ولكنني أغادرها الآن وقد نجحت في هذا التحدي مرة أخرى، فمعنوياتي ممتازة والصحة على ما يرام.

استفدت كثيراً من الوقت في القراءة والمطالعة والتأمل والتفكير، فرغم شعوري بأنني في بئر عميقة ومُظلمة يصعب فيها التأمل والتفكير، إلا أن الأعمى الذي لا يرى عندما يفقد البصر يستطيع التأمل والتفكير وتنشيط حواسه الأخرى، وقد كان كل ما حولي مظلماً إلا أنني كنت ممتلئاً بالنور والضياء من داخلي، ومع ذلك حاولت ونجحت في بعض الجوانب.

عند خروجي، مررت من أمام الزنازين حيث ودعني الأخ المناضل أحمد البرغوثي(الفرنسي) بالدموع، وكانت تلك لحظه قاسية بالنسبة إليّ ولكنني آثرت المكابرة، وردّدت كلمات تؤكد أن هذه المعاناة

www.ibtesama.com

ستنتهي وأنه يجب الصمود، وستتحطم هذه القيود يوماً ما، ولن يعود هناك من يكون قادراً على انتزاعنا من أهلنا وأحبائنا أو من وطننا حتى لو كان قبراً أو زنزانة. فالوطن يسكن فينا أينما ذهبنا، كذلك الأهل، ويعمل الاحتلال على اعتقالنا وتقييدنا وعزلنا ولكننا نعيش الوطن حتى في أضيق الأماكن وفي كل مرةٍ نبني في عزلتنا صورة صغيرة للوطن، ونرسم صورة مصغرة للحياة يعمد الاحتلال إلى تحطيمها مجدداً، وينتزعنا ممن عاشوا معنا وعشنا معهم أياماً طويلة وأصبحوا جزءاً من عائلةٍ واحدة اسمها فلسطين في كل منا، سنلتقي بلا شك. ودعني كذلك الأخ المناضل موسى دودين بكثير من التأثر وكثير من التماسك، وكذلك فعل المناضلان محمود عيسى وهاني جابر وآخرون من السجناء الجنائيين يهوداً وعرباً.

وبالمناسبة، فقد أصر أحد السجناء الجنائيين الفلسطينيين في هذا القسم على تحضير الحساء لي يومياً تقريباً وبعض (الصلطة)، وساعدني ذلك كثيراً لأنني لم أقم بالطبخ إطلاقاً في حياتي ولا أعرف ذلك ولم أجرّبه أبداً. وقد تعاون معي هذا الشاب بشكل رائع وساعدني كثيراً حيث كان لديه فرصه للتحرك داخل القسم.

بعد أن جهزت نفسي وأغراضي القليلة، اقتادني السجّانون إلى غرفة الانتظار والتفتيش، وبعد إجراء هذه العملية المذلة والمملة من تفتيش لأغراضي وجسدي، صعدت إلى سيارة النقل (البوسطة بلغة الأسرى) وحيداً، وانطلقت السيارة ترافقها سيارات عسكرية للحماية، كنت مقيد اليدين والقدمين داخل السيارة، وبعد مسير ساعات عدة شاقة، وجدت نفسي أقف في سجن شطة الواقع في سهل بيسان شمال فلسطين، وكنت مرهقاً من السفر بسبب القيود وانعدام الحركة والجوع وطول الطريق، وانتظرت داخل السيارة وهي أشبه ما تكون بزنزانة متحركة وصندوق

www.ibtesama.com

مغلق من الحديد، ولم يتسنَّ لي قضاء حاجاتي البيولوجية رغم إلحاحي الشديد والضغط على السجّانين إلا بعد ساعات عدة.

تجدر الإشارة إلى أن من أبرز المشاكل التي يعاني منها الأسرى لدى نقلهم بواسطة البوسطة من سجن إلى آخر، أو حين إحضارهم بالبوسطة إلى المحكمة المكوث فترة طويلة داخل الزنزانة المتحركة الحديدية من دون التمكن من قضاء الحاجة الخاصة، مما يسبب مشكلةً حقيقيةً وأمراضاً مثل حصر البول، بل لقد اضطر بعضهم إلى التبوّل في ملابسهم بسبب الضغط. وقد عانيت بنفسي وطأة هذه المسألة وشدة صعوبتها في أثناء التنقل في هذه البوسطة (الزنزانة المتحركة)، ولم تُجدِ كل المحاولات لإقناع الشرطة لحل هذه المشكلة في أحيان كثيرة، وقد تعلمت أن أحسب حساباً لأي نقل وألاّ أتحرك قبل الذهاب لقضاء الحاجة، والحرص على عدم تناول أي سوائل إذا عرفت مسبقاً بالنقل وهذا الأمر المحدود غالباً والمستبعد معرفته والإفصاح عنه مسبقا، حيث تتعمد سلطات الاحتلال ومصلحة السجون إجراء عمليات النقل بطريقة مفاجئة معظم الأحيان.

وبعد أن أمضيت ساعات طويلة في السفر من سجن الرملة إلى سجن شطة وساعات أطول منتظراً في السيارة، نزلت مقيداً بهدف الانتقال إلى غرفة الانتظار والتفتيش الواقعة عند مدخل السجن، وقد كان صعباً عليّ حمل الأغراض وأنا مقيد، فطلبت من الضابط أن يفك قيودي كي أتمكن من نقلها لأنها ثقيلة، أو أن يساعدني على رفعها وقد رفض ذلك، وكان من الصعب عليّ حملها ونقلها خاصة وإنني أعاني من ألم في الظهر والرقبة في الجهة اليمنى ويتضاعف هذا الأمر في حالة حمل الأشياء الثقيلة، ولم تنفع محاولاتي لإقناع الشرطة بالمساعدة أو فك القيود، واضطررت إلى نقلها وحملها بصعوبة سأعاني من آثارها لشهور

www.ibtesama.com

طويلة، وقد استقبلني طاقم وإدارة السجن بكثير من السخرية والاستهزاء والكثير من السادية مُتعمدين الحطّ من قدري واحترامي وإطلاق عبارات: انتفاضة مستمرة... الانتفاضة ستنتصر... تلك العبارات التي دأبت على ترديدها طوال الانتفاضة بعد اعتقالي في قاعة المحكمة الصهيونية في تل أبيب، وقد أصر طاقم السجّانين على التفتيش العاري ورفضت ذلك وقاومته فاستخدموا القوة لإجراء التفتيش الجسدي وتجريدي من ملابسي بما فيها الملابس الداخلية، علماً أن هذا النوع من التفتيش وبهذه الفظاعة لم يجرِ معي عندما كنت في سجن وعزل أيالون في الرملة ولاحقاً في سجن أوهلي كيدار في بئر السبع.

انتظرت ساعات أخرى وقد تعاركت مع السجّانين الذين أخذوا جميع أغراضي وأدخلوني إلى الزنزانة بالملابس الداخلية فقط ولم يكن في حوزتي شيء مطلقاً، واستمر هذا الوضع عدة أيام إلى أن أعادوا لي معظم أغراضي.

يعتبر عزل سجن شطة واحداً من أسوأ أقسام العزل في السجون الإسرائيلية وأكثرها مرارة وقسوة، كما وأن تعاملهم من الأكثر سوءًا في السجون. يوجد زنزانتان فقط في قسم العزل، ويدخل الأسير من ثلاثة إلى أربعة أبواب يفصل الواحد عن الآخر بشكل مستقيم وطويل متران إلى ثلاثة حتى يصل إلى زنزانتين متجاورتين يفصلهما باب وسط الممر، وهناك زنزانة رقم (1) وزنزانة رقم (2)، وقد جاء نصيبي في زنزانة رقم (1) وهي في آخر الصف كما كان الحال في عزل أيالون، ولكن هذه المرة لا يوجد قسم من الزنازين، كما وأن الزنزانة مفصولة تماماً وتبعد كثيراً عن غرف المراقبة للشرطة، ويفصل زنزانتي عنها ثلاثة إلى أربعة أبواب، وبهذا الحال يكون سماع النداء مستحيلاً، حتى في حالة الطرق على الأبواب لا يمكن أن يسمع السجّانون.

www.ibtesama.com

لقد شعرت أنني في عالم معزول كلياً أو أنها بمثابة جزيرة أو قبر في مقبرة مليئة بالصمت والوحدة والعزلة، والفارق كبير بين هذه المقابر وعزل أيالون حيث تشعر ببعض (الونس) بأصوات الأسرى في الزنازين القريبة من بعضها، وإن كان موقع زنزانتي في آخر نهاية القسم ويأتي في زاوية يتعذر معها رؤية باقي الزنازين والأسرى، ولكن يمكن للشرطة أن تسمع بشكل أسرع أي نداء، أما هنا في هذه الزنزانة المنعزلة تماماً، فلا ينفع الصراخ أو النداء بصوت عاديّ أو الطرق على الأبواب.

الشعور بالوحدة المطلقة شعور صعب ومرير ومخيف أحياناً، لكن الزنزانة تبقى زنزانة وليس مهماً الموقع أو المكان. والذي خفف من صعوبة الأمر أنني قادم من زنزانة انفرادية ولدي فكرة مسبقة عن سوء هذا المكان وسوء إدارته ووسائل تعامل الشرطة والسجّانين، وإن كان ما وجدته هنا أسوأ مما سمعته وأسوأ مما تصورته بكثير وفق كل التوقعات.

كنت في الأيام الأولى بلا ملابس سوى الملابس الداخلية وهو أمر صعب ومؤلم خفف منه أن الطقس كان صيفاً والزنزانة حارة جدًّا. كانت زنزانة شطة أفضل بكثير من زنزانة أيالون. فالبناء هنا أكثر حداثة والجدران ليست مُتشققة أو مليئة بالثقوب، ولا ينهال منها التراب كما الحال في أيالون، والإضاءة داخل الزنزانة أفضل قليلاً والأهم أن الحمّام مقبول نسبيًّا وهو (إفرنجي) وليس أرضيًّا ومتعباً، وإن كانت المشكلة أن ماسورة الدوش فوقه تماماً مما يضطرني إلى الوقوف مباشرة ملتصقاً بالجدار، كذلك كان للحمّام منافذ صغيرة مدججة بطبقات من الأسلاك الشائكة والقضبان.

بعد أيام عدة، وبعد إعادة الأغراض بما في ذلك التلفزيون والمروحة، أصبح الأمر أخفّ وطأة، وكان الباب هنا ثقيلاً ومغلقاً بصورة دائمة والنافذتان مدجّجتين بالحديد والقضبان والأسلاك، والأسوأ من

www.ibtesama.com

ذلك أن النافذة مغطاة من الخارج بالحديد والصاج مع فتحات صغيرة بحيث لا يتمكن الأسير من رؤية أي شيء إلا بشكل محدود جدًّا، والإحصاء أو «العدد اليومي» للسجناء الذي يتكرر خمس إلى ست مرات أقسى في هذه الزنزانة من الأقسام الأخرى، حيث هنا المكان الوحيد من بين الزنازين والسجون التي تنقلت إليها يتم العد بعد دخول الزنزانة وليس من النافذة الخارجية. إضافة إلى أن على الأسير ارتداء ملابس مصلحة السجون (بنية اللون) والوقوف، وكذلك يتم تفتيش الزنزانة كما يتم طرق الجدران والأرضية والنافذة بهراوة خاصة للتأكد أنها ليست محفورة أو مخلوعة، وهذا ليس إجراءً أمنياً، بل حالة استفزاز وإذلال للأسير وإزعاج لتوليد حالة عدم استقرار لديه. أما الفورة اليومية لمدة ساعة، فهي تتم في موعد يقرره الضابط المناوب ويختلف من يوم إلى آخر في التوقيت، بينما في أقسام وزنازين أخرى يمكن التأخير أو التأجيل أحياناً أو مناقشة الساعة الملائمة.

كان يحين وقت الفورة في أغلب الأيام عند الثامنة صباحاً، حيث يتم تقييد يديّ وقدميّ للانتقال إلى ساحة تبعد عن الزنزانة خمسة عشر متراً، وهي الساحة الوحيدة التي يبقى فيها الشرطي أو الحارس جالساً على كرسي في المكان نفسه بعد إغلاق الباب بهدف المراقبة لساعة كاملة، وكنت أستغلها بطبيعة الحال في المشي ذهاباً وإياباً كالعادة من دون توقف أو استراحة، فهي ساعة وحيدة على مدار الأربع والعشرين ساعة، والمميز في هذه الساحة أنه يمكن مشاهدة بعض الجبال منها، وهو أمر هام بالنسبة إلى الأسير المحروم من رؤية الطبيعة على مدار الساعة، كنت أشعر بالحياة والأمل عندما أرى تلك الجبال والأشجار والطيور وسرب الحمام والعصافير. كما كان هناك أسلاك شائكة تفصل الساحة عن السور الخارجي، وبين سور الساحة والسور الخارجي أرض

www.ibtesama.com

ترابية صغيرة مزروعة ببعض الأشجار والورود، وكنت أحياناً أحزن على هذه الأشجار والورود المحبوسة بين الأسلاك الشائكة.

كنت في مثل هذه الساعة وأنا أتمشى في الساحة أتذكر ذلك الصباح البهي في رام الله حيث أسرتي وبيتي وزوجتي وأولادي وبعض الجيران والأهل والأصدقاء، وأتذكر ذلك الفيضان من تلاميذ المدارس الذي يملأ ساحات المدينة، وأتذكر كيف يصحو أولادي: القسام، وربى، وشرف، وعرب، وأتصورهم وأقبّلهم في قلبي ألف قبلة، وأتخيل هنا شرف كالعادة أول من يستيقظ من بين إخوته من دون مساعدة أحد، ويقوم بارتداء ملابسه المدرسية وإعداد كتبه وحقيبته، ويغسل وجهه الجميل، ويقبلني حتى وإن كنت نائما؛ وغالباً أصحو على ابتسامته الجميلة. ثم يقوم معي وأحياناً وحده بإيقاظ عرب الأصغر منه، ملحّاً عليه أن يصحو ليعد نفسه، ومهدداً إياه بالمغادرة إلى المدرسة بمفرده. ولأن شرف يكره التأخير، ويقول إنه يخجل من مديرة المدرسة «المس سميرة ناصر»، نادراً ما يتأخر عن حل واجب المدرسة أو عن ساعة قرع الجرس. أما عرب الهادئ جداً والذي يحسب خطواته بدقه فقد كان يتميز بعاطفته، وكان عادة يحتضنني رافضا تركي جانباً ويحب أن ينام على كتفي. ومع ذلك، كان يتقيد بالترتيب ويغادر إلى المدرسة ولو متأخراً قليلا، وهو توأم الروح لشرف.

أتذكر تلك الأوقات الجميلة وأقول لنفسي ما الذي يدفعني لترك زوجتي وأولادي الذين أعشقهم لأحمل البندقية مع أنني أعرف ثمن ذلك مسبقا؟ فأنا أفعل ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ولماذا أواصل هذه الرحلة الشاقة من أجل الحرية من دون كلل أو ملل رغم المرارة وقسوة الفراق وحجم الألم؟ ثم أجد نفسي مؤمنا ومقتنعا بكل خطوة أقدمتُ عليها في حياتي، وبكل عمل وطني وقمت به وبنضالي، وتتعزز

www.ibtesama.com

في هذه اللحظات لدي مشاعر الكبرياء الوطنية، واشعر بالاحتقار للسجّان الذي يضع القيود في يدي وقدمي، والذي يحرس نفسه مني، وأشعر أن الزنزانة محنة يجب أن أتجاوزها وأنتصر عليها، رغم أن الإحساس الذي يعيشه المرء في هذا المكان المظلم والموحش صعب وقاسٍ، ولكن هذا هو الثمن الذي ندفعه ليكون شعبنا ووطننا حرّين، وأن النضال والكفاح من أعلى درجات العيش بحرّية اختباراً للمشاعر الإنسانية.

بعد انتهاء الفورة بمرور ساعة من الزمن، يتم تقييد يديّ وقدميّ لأعود إلى زنزانتي على بعد خمسة عشر مترا، وأدخل سراديب أو ممراً. باب وراء باب، ثم توصد أربع أبوابة خلفي لأعود إلى هذا القبر المخصص للأحياء، وكنت أحاول التحرك في هذه الساحة الصغيرة جداً رغم كل شيء ذهاباً وإياباً، وكان الطعام في هذه الزنزانة سيئاً، ولا مجال للحصول على طعام يعده إخوة أو رفاق الزنازين، حيث لا توجد سوى زنزانة واحدة بجواري، ويفصلنا باب وممر، ولا توجد إمكانيات أيضاً لطهي الطعام، ومع ذلك كنت أحاول أن «أدبّر» نفسي بطعام تقدمه إدارة السجن وكان قليل الكمية ورديء النوعية.

وما سلّحني بالقوة في هذه الزنازين هو أنني لست من عشاق الطعام، ولا أشتهي طعاماً خاصا أبدا؛ إلا في حالات نادرة، ولا أمتنع أصلا عن تناول أي طعام إطلاقا. خفف عني هذا كثيراً وذكرني بزوجتي التي كانت تشكو من قلة تناولي للطعام من جهة، ولأنني لا أطلب أيّ طبخة أو أي نوع من الطعام من جهة أخرى. وكانت في أحيان كثيرة تلومني وتسألني فأقول لها أي شيء جيد ومقبول. ولا أذكر في حياتي أنني تجادلت مع زوجتي وقبل ذلك مع أمي على الطعام، وكنت إذا لم أجد شيئا جاهزا أو مُعداً أكتفي بشيء من زيت الزيتون وحبة بندورة وبعض اللبن وكوب من الشاي، وحتى عندما كنت أصل إلى المنزل

www.ibtesama.com

متأخرا؛ وغالباً ما كان هذا هو الحال، كنت لا أقبل أن أوقظ أحداً حتى وإن كنت أتضور جوعاً، بل أعد وجبتي تلك بنفسي مع أن زوجتي كانت تحرص على إعداد العشاء في أغلب الأحيان لأجده على الطاولة ينتظرني. كان الطعام في هذه الزنزانة مقيتاً وسيئاً، ومع ذلك كنت أجبر نفسي على تناوله مهما كان.

في صباح اليوم التالي لوجودي في زنزانة شطة الانفرادية، أدرت وجهي إلى النافذة، وناديت بصوت عالٍ على جاري في الزنزانة الأخرى الوحيدة في هذا القسم لعلي أجد لي رفيقاً يخفف وحدتي، وأخفف عليه وحشته. وبعد عدة مرات لم أسمع أيّ صوت، جلست وقلت لنفسي لا يوجد أحد غيرك في المكان، فاصبر الصبر مفتاح الفرج كما كانت أمي تردد دائما. وعند العصر، ناديت مجدداً وإذ بأحد الإخوة يجيب ويرد عليّ ويقول لي: أنا حسن سلامة. وقبل أن أجيبه قال: «أنت أبا القسام مروان البرغوثي أليس كذلك؟». قلت له: «نعم وكيف عرفت؟». قال: «لقد سمعت السجّانين يتحدثون عن مجيئك، كما أنني توقعت أن يأتوا بك إلى هذا المكان البائس وإلى هذا الجحيم. لم أكن بحاجة للتعرف على الأخ حسن سلامة فالاسم معروف لدى كل المناضلين والمجاهدين، ويصعب أن يكون ثمة مناضل في السجون لا يعرف اسم هذا المناضل، والذي كان من أبرز قادة كتائب الشهيد عز الدين القسام، وصدر عليه حكم بالسجن المؤبد عشرات المرات، وهو من خان يونس في قطاع غزة، وقد قضى حتى الآن أكثر من سبع سنوات في العزل الانفرادي بقرار من جهاز «الشاباك»، وكان الأخ حسن ولا يزال رمزا للمناضل الصلب صاحب الإرادة الفولاذية.

تبادلت معه الحديث في كثير من الشؤون مع تبيّني أنه يجلس بين نافذتي الزنزانتين أحد رجال الشرطة لتسجيل الحديث كما أخبرني الأخ

www.ibtesama.com

حسن، ومع ذلك وكما هي عادتي فإنني لا أكترث لذلك. أكدت له مدى الاحترام والتقدير الذي يحظى به، وأن اسمه على كل لسان، إذ يمتدحه النـاس علـى صلابتـه ونضالـه. وكنت أقول ذلك قناعةً من جهة، ولدواعٍ نفسـية من جهة أخرى لأن أيّ كلمة تقال للأسـير في العزل الانفرادي لها وقع كبير في نفس المناضل والمجاهد، فهي ترفع من معنوياته وتشد أزره.

والحقيقة أن الأخ حسن يعاني بشدة من وطأة استمرار هذا العزل الذي يفوق بقسوته القتل والموت ألف مرة ومن ثقله، وكنت آمل لو أنني أستطيع أن أفعل أي شيء من أجله لأخفف عنه، وحاولت أن أتواصل معـه مـا أمكننـي ذلـك، ثـم وكعادته اكتشـفت أنه بدأ إضرابـاً عن الطعام مطالباً بنقله إلى عزل آخر وإخراجه من هذا الجحيم. وبعد أسابيع قليلة قضيتها في هذا القبر اللعين، تم نقلي. وفي اليوم نفسه أيضاً نُـقل الأخ حسن سلامه، ولكننا نقلنا في سيارتين مختلفتين وإلى سجنين مختلفين، ولكن متجاورين، حيث ذهب هو إلى عزل سجن إيشل، وأنا إلى عزل سجن أوهلي كيدار في بئر السبع جنوب فلسطين.

زنزانة رقم 5 في عزل سجن بئر السبع

فـي نهايـة آب 2003، وبعـد إقامـة قصيـرة فـي زنازين عزل سـجن شـطة، طلب منّي السـجّانون صباحاً أن أقوم بتحضير أغراضي وأشـيائي استعداداً للرحيل، ولم يبلغني أحد إلى أين وجهة الرحيل مع أن هذا لا يهمني كثيراً، فالأسير يعيش في مملكة المجهول أغلب الأحيان، وخاصة في أثناء التحقيق والعزل. وبشكل سريع رتبت الأغراض، ليقتادني أحد السجّانين برفقة عدد من أفراد الشرطة الذين أجروا تفتيشاً دقيقاً كالعادة وبشكل أقل استفزازا ووحشية هذه المرة. وبعد عدة ساعات من الانتظار،

www.ibtesama.com

صعدت إلى سيارة البوسطة (الزنزانة المتنقلة) التي انطلقت بسرعة، ولكن ليس قبل أن تمر على عدة سجون من دون أن تتوقف كثيراً، وعند سجن الرملة، ومن دون الدخول إلى المعبر حيث يتجمع الأسرى لنقلهم من سجن إلى آخر. نُقلت وأغراضي من سيارة إلى أخرى لتنطلق بي سريعا نحو بئر السبع، ولم أعرف الوجهة، إلا أنني قدرت ذلك بحكم معرفتي الجيدة نسبياً بجغرافية فلسطين. وبعد ساعتين تقريباً، وصلت إلى سجن بئر السبع المكون من ثلاثة سجون على مساحة واسعة جداً حيث إن المبنى الأساسي تم تشييده في زمن الاستعمار البريطاني، وقامت دولة الاحتلال ببناء عدة سجون داخل أسواره الواسعة، وأكبر السجون داخل هذه الأسوار هو سجن «إيشل» المكون من عدة أقسام، بما في ذلك قسم للعزل الانفرادي. ويقبع في هذا السجن أكثر من سبعمئة أسير، كما يتضمن قسماً للعزل الجماعي. وهنالك أيضاً سجن أوهلي كيدار ويتسع لأكثر من ألف أسير بما في ذلك قسم خاص للعزل الانفرادي، وسجن «ديكل» مخصص حتى الآن للسجناء الجنائيين.

دخلت إلى هذا السجن، وكالعادة مررت بتفتيش صعب ودقيق مرة أخرى للأغراض والملابس والجسم، وعبر أجهزة إلكترونية كتلك المنصوبة في المطارات والأماكن الحساسة في العديد من البلدان. وفي ساعات المساء، اقتادني عدد من السجّانين مقيدَ القدمين واليدين، ودخلت ممراً طويلاً مسقوفاً بالحديد، عرضه متر ونصف المتر، وطوله يزيد عن خمسين متراً تقريباً، في إحدى جهتيه نوافذ زنازين بالعشرات تطل على هذا الممر، ومن الجهة الأخرى جدار من الحديد خلفه مساحة يخرج إليها المعزولون في زنازين العزل الانفرادي. وفي أثناء السير في هذا الممر لاحظت عدداً كبيراً من الجرذان والفئران بحجم كبير جداً وبعدد هائل تتراكض في الممر، وكان المشهد موحشاً تماماً،

www.ibtesama.com

وبعـد اجتيـاز أكثـر مـن نصف الممر دخلت السـاحة المخصصة للفورة، وفيهـا بـاب دخلنـا منـه قسـم العـزل فـي أوهلي كيـدار. كان نصيبي هذه المـرة الزنزانـة رقـم 5 التـي تقـع أيضـاً فـي نهاية الزنازيـن، وهي الزنزانة الوحيدة التي لا تقابلها زنزانة على الطرف الآخر كباقي الزنازين، وإنما هي غرفة مخصصة لمناوبة الشرطة والحراس، وإلى جانبها قبالة الزنزانة تماما ثلاجة مخصصة لقسم العزل الذي كان يحتوي على عشر زنازين، خمـس منهـا فـي المنطقـة الغربيـة حيث تقع زنزانتي وهي تحمل الأرقام 10.9.8.7.6. وفي الجهة الأخرى 4.3.2.1.......

دخلت الزنزانة فوجدت أنها أصغر زنزانة أدخلها حتى الآن من بين الزنازين سواء أكان ذلك في أيالون أم شطة وغيرها، حيث لا يزيد طولها عن مترين وثلاثين سـم، أمّا عرضها فمتر وثلاثون سـم. كانت تحتوي على حمام أرضي لقضاء الحاجة، وماسورة للاستحمام في المكان نفسه؛ وهو ضيق جداً ومفتوح بطبيعة الحال، وكذلك مغسلة صغيرة مهترئة قبالة الحمام إلى جانب النافذة المدججة بالقضبان والأسلاك، إذ كانت النافذة مُغطاة بالأسلاك والقضبان من داخل الزنزانة وخارجها وفي وسطها، أي هنالك ثلاث طبقات من القضبان والأسلاك يمكن أن تُمرَّرُ منها إصبع واحـدة لا أكثـر. والبـاب هـذه المرة ثلثـه الأعلى مغطّى بقضبان حديدية مربعـة وصغيـرة بطبقتيـن علـى الأقـل، لكنه مفتوح نوعـا ما وليس مغلقاً تماماً كما هو الحال في أيالون وشطة وغيرهما، علما أن هنالك زنازين في القسم نفسه مغلقة تماماً، وكان نصيبي هذه الزنزانة التي تتميز بمرور قدر من الهواء نسبيا. اختاروا لي الزنزانة الأصغر وذات الباب المغطى بالقضبان لتسـهل الرقابة الشـديدة بالكاميرا الموضوعة في زاوية الممر لمتابعة كل شـيء وكل حركة في الداخل. وفي الزنزانة أيضاً سـرير من طبقتين، المسافة بينهما محدودة ومنخفضة بحيث يصعب على الإنسان

www.ibtesama.com

أن يجلس على أحدهما أو يستلقي ويقرأ من دون أن يضطر للانحناء.

كان السجّان يشعل الضوء ويطفئه من الخارج. وكان في الزنزانة ما يزيد عن مائه وثلاثين حفرة في الجدار، وهي ملجأ للصراصير المتنوعة التي كنت أرى بعض أنواعها للمرة الأولى في حياتي، رغم أنني قضيت طفولتي في بيوت عتيقة، ولاحقاً في منطقة جبلية وعرة بين أشجار الزيتون، وفي بيت أرضي مكوّن من غرفتين، حيث تتمكن أنواع مختلفة من الحشرات من الدخول والانتشار في المكان. مع ذلك فإن الأنواع التي رأيتها في هذه الزنزانة لم أشاهدها سابقاً في أي مكان؛ ومنها صراصير كبيرة جداً وصغيرة ومتوسطة وبألوان وأشكال مختلفة. كان انتشار هذه الصراصير في أرجاء الزنزانة الصغيرة بين الملابس، وأغراض «الكانتين»، والطعام، وفي كل مكان، أمراً مزعجاً جداً خاصة في الأسابيع وربما الشهور الأولى، ثم تحول الأمر ليصبح أقل إزعاجاً بعد التعوّد على معايشتها من جهة ومجاراتها من جهة أخرى، وكنت في البداية إذا استيقظت وقد مرّ صرصور على قدمي أو يدي أشعر بالضيق والفزع والقرف، ولكن رويداً رويداً لم أعد أحفل سوى بحماية منطقة الوجه، وشعرت وكأن بيني وبين هذه الصراصير عقداً يقضي بأن لا تمر على وجهي مع السماح لها بالمرور على باقي جسمي.

بعد عدة أسابيع، اكتشفت انتشاراً مذهلا للنمل، وهو من نوع خاص ورائحته مقرفة. استغربت ذلك، حيث إنني أعرف النمل وبيوته وصادفته عشرات المرات يوم كان يملأ محيط بيتنا في القرية. أما هنا فمرة واحدة أذكر أنني نظرت إلى جدار خلفي فإذا بمعظمه مغطى بالنمل وعلى مساحة واسعة، وبشكل لم أصدقه لأنني لم أرَ مثل هذا العدد دفعة واحدة في حياتي، مع أنني كما قلت قد صادفت عشرات من بيوت النمل المنتشرة في الخلاء وفي بيتنا في القرية. في أحد الأيام، انتبهت لعدد

www.ibtesama.com

من الجرذان من النوع الكبير في الزنزانة، وكان من الواضح أنه يستحيل دخولها من الباب لأنني أغلقه بأوراق الجرائد بإحكام، ولا من النافذة بسبب فتحات الأسلاك الشائكة ذات الطبقات الثلاث الضيقة والصغيرة جداً، وتبين لي أنها خرجت من الحمام أو من فتحة الحمام الأرضي حيث قمت بمطاردة الفئران فعادت عن طريق المجاري (المرحاض)، وأفادني الإخوة هناك أنه يتوجب إغلاق هذه الفتحة بعد قضاء الحاجة بقنينة مشروبات غازية أو عصير بلاستيكية، بعد ملئها بالماء البارد وربطها بحبل ليسهل وضعها وإخراجها. وقد فعلت ذلك. وعندما كنت أنسى ذلك في مرات عديدة، كانت الفئران تخرج فوراً، وأخوض معها مجدداً جولة لإجبارها على العودة من حيث أتت، وكانت تتزايد في حال إلقاء بقايا الطعام عبر هذا المرحاض، وكنت أسمع أحياناً حركتها وآخذ إحتياطي عندما أجلس لقضاء الحاجة، حيث خرجت الفئران في أثناء ذلك أكثر من مرة إلى درجة أصبح فيها قضاء الحاجة عملية تكاد تكون صعبة ومزعجة وتحتاج إلى حذر، ولم يعد هذا المرحاض بيتاً للراحة كما يطلق عليه.

بشكل عام تمكنت بهذه الإجراءات من تفادي هذه المشكلة لوقت طويل، أما الشكل الآخر المزعج للفئران فكان خلف النافذة إذا صح التعبير، حيث كان تجمعها الرئيسي خلف نافذتي ونافذة جاري الذي اعتاد على إلقاء الطعام لها يومياً، وهو يهودي يدعى «جابي»، ومحكوم بالسجن المؤبد بسبب قتله شقيقته ومنذ خمس سنوات لم يغادر الزنزانة المجاورة، رافضاً أن يكون في قسم عادي مع السجناء الجنائيين اليهود، ولذلك يفضل أن يكون في زنزانة انفرادية أو ما يسمى في السجون سجناء محميين أي أنهم يحتاجون إلى حماية خشية تعرّضهم للأذى من قِبَل السجناء الآخرين، وهناك بعض الأقسام الخاصة لهؤلاء في كثير

www.ibtesama.com

من السجون، بما في ذلك أسرى فلسطينيون خرجوا من بين رفاقهم ويعيشون في هذه الأقسام أحياناً بسبب المرض النفسي أو لهروبهم بسبب الاشتباه بهم من قبل باقي الأسرى بأنهم يتعاونون مع سلطات السجن. كان «جابي» المجاور لي يقوم بأفعال شبه جنونية تجاه الشرطة في بعض الأحيان، ولكنه كان ينادي عليّ أحياناً ويتحدث معي، ويتمتع بثقافة عالية بشكل عام ومعرفة بالوضع والصراع على الرغم من أنه يعاني من مرض نفسي، ولقد حدثني عن إقامته في نيويورك وتجربته هناك، وعن نجاحه في تكوين رأسمال جيد على حد قوله، وقد تعامل معي باحترام وتقدير عال، وتوقف مع وصولي عن الإزعاج والطرق الدائم على الباب إلا في حالات محدودة عندما يشعر بالضيق الشديد، وكان يعتذر مني عندما يفعل ذلك، وأحياناً كان يحرق صحفاً أو بطانيات أو أشياء أخرى.

اعتاد «جابي» على إطعام الفئران من خلف نافذته؛ وهي ملاصقة لنافذتي، وكان يطلق صفيراً خاصاً، وبعد أقل من دقيقتين تجتمع عشرات الفئران ما بين ثمانين إلى مئة من الجرذان الكبيرة، ولا تحضر هذه الجرذان بهذه السرعة إلا إذا أطلق «جابي» صفيره الخاص، وفي المرات التي كان جابي ينقطع فيها عن إطعام الجرذان أو دعوتها بالتصفير كانت تتسلق نافذتي، وكان مشهد عشرات الفئران المتسلقة على القضبان في محاولة للدخول وهي تزعق وتصرخ مزعجاً جداً وأحياناً مخيفاً. كنت أنظر إليها بكثير من الحيرة والقلق والانزعاج محاولا طردها، وكانت تزعق في أغلب الأيام خارج نافذة الزنزانة. والأسوأ من ذلك كان الرائحة النتنة جداً لأوساخ الفئران المتجمعة خلف النافذة الوحيدة، ولكن يبدو أن الإنسان يتعود على أي شيء في هذه الظروف، ويتعايش معها، ويتغلب على المصاعب مهما تكن قاسية.

www.ibtesama.com

أما مشكلة الحُفر التي تملأ الجدران ويخرج منها كم هائل من الصراصير والنمل ذي الرائحة الكريهة، حيث اكتشفت لأول مرة أن هنالك نملاً رائحته كريهة جداً، فقد حاولت معالجتها بعملية واسعة استمرت أسابيع بهدف إغلاق هذه الحُفر وبعض الفتحات، وكان عليّ الاحتراس من أن يراني الشرطة أو الحراس، حيث إنهم يمنعون أي تغيير، واستخدمت أوراق التواليت مع معجون أسنان، وقمت بفتل الأوراق على شكل حبل أحياناً، وحشوت بها الشقوق كبيرة الحجم بحيث تظهر وكأنها جزء من الجدار، وقد حقق هذا الأمر نجاحاً ممتازاً، علماً أن هذه الإغلاقات كانت تتعرض للخرق بين فترة وأخرى، ولكن كنت ألاحظها مباشرة وأعيد إغلاقها، وربما استخدمت معجون الأسنان لمقاومة هذه الفتحات أكثر مما استخدمته لنفسي، وبالمناسبة العملية الجنسية أو عملية الجماع الوحيدة التي شاهدتها منذ اعتقالي كانت بين الفئران خلف نافذة الزنزانة.

زملاء قسم العزل الإنفرادي

عندما وصلت إلى الزنزانة رقم 5 في اوهلي كيدار في بئر السبع وجدت عدداً من الإخوة المعزولين، وبعضهم لا يزال حتى هذه اللحظة في العزل منذ ثماني سنوات، وفي مقدمتهم الأخ المهندس عبد الله البرغوثي(*) وهو من أبرز قادة كتائب عز الدين القسام، وقد أصدرت المحكمة العسكرية الإسرائيلية بحقه حكماً بالسجن المؤبد مدى الحياة 67 مرة بتهمة قتل المئات من الإسرائيليين وإصابتهم، وهذا الحكم الصادر بحقه هو الأعلى في تاريخ الاحتلال بحق مناضل فلسطيني منذ

(*) عبد الله البرغوثي – من سكان رام الله، اعتقل في 2003/3/5 وحكم بالسجن المؤبد مدى الحياة 67 مرة.

www.ibtesama.com

العـام 1967، والأخ عبـد الله البرغوثـي مهنـدس متفجـرات مـن الدرجـة الأولى، وقد أشرف على تدريب عشرات المهندسين في كتائب القسام، كما أعد بنفسه العديد من الأحزمة والعبوات، وهو من مواليد الكويت، وأنهى دراسته الابتدائية والثانوية فيها ودرس الهندسة في كوريا الجنوبية، وكان يقيم مع أسرته في عمان إلى أن حصل على تصريح لزيارة الأراضي الفلسطينية قبل عدة سنوات، وقد قضى في زنازين التحقيق ستة أشهر، ومباشرة تم تحويله من زنازين التحقيق إلى زنازين العزل الانفرادي في سجن أوهلي كيدار في بئر السبع، وعندما وصلت إلى هذا القسم قادماً من شـطة كان هو قد وصل قبل ذلك بأسـبوع فقط إلى الزنزانة رقم 4، وهي أقرب الزنازين التي تقابلني.

تمتع عبد الله بمعنويات عالية وممتازة ولا يزال كذلك، رغم فترة العزّل والمعاناة. وكان لعدة شهور محبوساً في قفص، ومن الصعب عليه تقبـل هـذه الوضـع، وشـاهدت مـراراً الغضب يتطاير مـن عيونه، كما أنه كان شجاعا مع السجّانين ولا يهاب أي شيء، ويقضي أغلب وقته في المطالعة والقراءة وحفظ القرآن وإعداد الطعام خاصة وأن خبرته جيدة في الطبخ، وأفادني ذلك كثيراً حيث كان يحرص على إعداد الطعام وإرسال وجبة يومية لي رغم كل القيود، متحايلاً على الشرطة، ففي الوقت الذي كانت الشـرطة تمنع فيه نقل الطعام أو أي شـيء من زنزانة إلى أخرى كان يضـع الطعـام فـي الثلاجـة باعتبـاره له، وعندمـا يتبدل المناوبون من رجال الشرطة أطلب منهم إعطائي الطعام من الثلاجة باعتباره لي وعلى أسـاس أننـي وضعتـه فـي الثلاجة، إضافة إلـى محاولات وطرائق أخرى نجحت فيها إلى حد ما.

كان مع الأخ عبد الله في الزنزانة نفسها الأخ نزار رمضان وهو من كـوادر حمـاس مـن بلـدة تـل قـرب نابلـس، وقد تم عزلـه بعد أن دبّر هو

www.ibtesama.com

وزميل له يدعى محمد الرشق من قباطية قضاء جنين عملية هرب ناجحة من سجن عسقلان في أواخر عام 2002، حيث نجحا في الفرار والتجوال في عسقلان. ولكن، في صبيحة اليوم الثاني، تم اعتقالهما مجدّداً، وقامت مصلحة السجون بعزلهما كعقوبة على محاولة الهرب، وهو شاب محكوم بالسجن المؤبد، خلوق ويهتم بالرياضة والدراسة وقراءة القرآن، وقد نقل من العزل الانفرادي بعد أن قضى أكثر من سنتين إلى أقسام السجن العادي.

كما تواجد في زنزانة أخرى مجاورة لعبد الله ونزار ورقمها 2 كل من الأخ محمد حمادة من القدس حيث قضى نحو سنة قبل نقله إلى السجن العادي أيضاً، وكذلك الأخ رائد أبو ظاهر من رام الله والذي تواجد ستة أشهر ثم نقل إلى قسم العزل الجماعي في سجن «إيشل» وهو خريج جامعة بير زيت، ويحمل شهادة البكالوريوس في الصحافة والإعلام، ومن كوادر حماس، وحكم بالسجن المؤبد، وكما أُحضرَ بعد وجودي في هذه الزنزانة بسبعة أشهر الأخ أحمد المغربي(*) وهو من أسرة مناضلة، ووالده من العاملين بالثورة الفلسطينية وحركة فتح منذ السبعينيات وأصيب في إحدى المواجهات مع الاحتلال الإسرائيلي في لبنان، وغادر لبنان مع أسرته عام 1982 مع قوات الثورة الفلسطينية التي خرجت من لبنان، حيث أقام في ليبيا وفي عمان، وعاد مع القوات الفلسطينية العائدة إلى الوطن بعد إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية.

تُقيم أسرة المغربي في مخيم الدهيشة الواقع قرب مدينة بيت لحم، وقد استشهد شقيق أحمد وهو محمود المغربي في أثناء محاولته

(*) أحمد المغربي – من سكان بيت لحم، اعتقل في 2002/5/27 وحكم بالسجن المؤبد مدى الحياة 22 مرة.

www.ibtesama.com

وضع عبوة ناسفة في بداية الانتفاضة، كما اعتقل اثنان من إخوته وهم علي ومحمد إضافة إليه، وصدر حكم بحقه بالسجن المؤبد عدة مرات. وهو من قادة كتائب شهداء الأقصى، ومن الكوادر الفتحاوية البارزة ذات الانتماء الأصيل والمخلصة لرسالة الوطن ورسالة الحرية والعودة والاستقلال، وقد تعرض منزلهم للنسف مرتين من قبل قوات الاحتلال، ولا يزال أحمد منذ ما يقارب سبع سنوات في العزل الانفرادي أي بقرار من «الشاباك» بدعوى أنه يقوم بتنظيم عمليات مسلحة من داخل السجن. وإضافة إلى الإخوة المناضلين كان هنالك بعض الإخوة المرضى نفسياً في القسم بسبب عدم قدرتهم على العيش في غرف السجن، وعدد من الجنائيين اليهود والعرب.

كان أكثر ما يزعج في القسم هو الطرق على الأبواب في ساعات وأوقات غير محددة، بحجة إخراج بعض الأسرى لاسيّما الجنائيين، ويمكن أن يقوم أحدهم بذلك في أثناء النوم عند الساعة الثانية أو الثالثة من بعد منتصف الليل أو السادسة أو في أي وقت، وقد حاولت إقناعهم أن يفعلوا ذلك في أي وقت من العاشرة صباحاً وحتى الثانية عشرة ليلاً وأن يتجنبوا هذا الإزعاج الصعب بعد الثانية عشرة ليلاً حتى العاشرة صباحا،وقد استجاب هؤلاء لهذا الاقتراح مع عدة خروق في الأسبوع الواحد.

ويسمح لكل أسير في قسم العزل بابتياع أشياء من الكانتين مرتين بالشهر بما لا يزيد عن ألف شيكل شهرياً، ولا يجوز أن ينقل أحد شيئاً لغيره، أو يشتري له من حسابه، ولذلك عمدنا إلى ترتيب ذلك لمن ليس لديه كانتين بوضع ما يلزم في حسابه من الخارج من جهة، وكذلك بشراء الأغراض وتقاسمها ما أمكن من جهة أخرى، وكان التعاون تاماً وعلى أفضل ما يكون بين جميع الإخوة من دون أي حواجز. والحقيقة أن عدم

www.ibtesama.com

حصول الأسير في العزل الانفرادي على مبلغ في حسابه للكانتين مسألة صعبة جداً، ويشعر فيها الأسير بالضيق الشديد. فهو لا يستطيع أن يتدبر أمره من دون الكانتين، وقد حرصت وزارة الأسرى والفصائل أحياناً والأهالي دوما على تزويد أبنائهم بالمبالغ المطلوبة للكانتين، الأمر هنا يختلف عنه في السجون والأقسام الأخرى العادية، حيث إن الكانتين في السجن جماعياً وتوزع بالتساوي من المبلغ الذي تحوله السلطة للأسرى كافة منذ سنوات، كما أن بعض الفصائل تضع مبلغاً في حساب أعضائها في كل سجن يوزع بالتساوي بين الأعضاء، أما ما يحوله الأهل فيبقى خاصا بكل أسير ليبتاع ما يريد من خلال الكانتين.

ومن أبرز من عاشوا تجربة العزل الانفرادي إضافة للإخوة المذكورين سابقاً، كل من الإخوة محمد عطونة، زاهر جبارين، ناصر عويص، ماجد المصري، عبد الناصر عيسى، أحمد شكري، يحيى السنوار، جمال أبو الهيجاء، معتز حجازي، محمد جمال النتشة، أحمد سعدات، (الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، عاهد أبو غلمة، ثابت المرداوي، مازن ملصة، محمد جابر عبدة، هاني جابر، صالح دار موسى،هشام شرباتي، إبراهيم حامد، عطوة العمور، مهاوش نعيمات، بالإضافة إلى أشخاص آخرين.

الفورة

كان الوقت المخصص لكل أسير في العزل الانفرادي ساعة من الزمن يخرج فيها الأسير إلى ساحة الفورة أو النزهة، والحال هنا كما هو الحال في باقي أقسام العزل الأخرى، والساحة هنا تبعد أقل من ستة أمتار عن باب الزنزانة، وهي ساحة كبيرة وأكبر بكثير من ساحة سجني أيالون وشطه وغيرهما، وطولها عشرون متراً على الأقل، وعرضها

www.ibtesama.com

عشرة أمتار، وهي مسقوفة بعدة طبقات من الحديد والقضبان والأسلاك الشائكة، وجدرانها مرتفعة بحيث يستحيل مشاهدة أي شيء باستثناء السماء المشوهة بالقضبان لدرجة تجعل الإنسان يتمنى أن يرى السماء كما هي من دون تشويه.

والميزة الإيجابية لهذه الساحة وبهذا القسم هي أن الزنازين التي تكون في الصف المقابل تطل نوافذها على الساحة بحيث يمكن لي ولأي أسير يخرج للفورة أن يتحدث مع الأسرى في أي زنزانة من الزنازين المطلة على الساحة، وهذا بحد ذاته شيء هام جداً، ويكسر عزلة الأسير ووحدته سواءً أكان في الزنزانة أم في ساحة الفورة، فهي خاصية ممتازة لتبادل الحديث والنقاش وتناول بعض الأخبار والتأكد من أن القدرة على الحديث ما زالت على ما هي عليه، وأن الإنسان لم يتغير من جرّاء هذا الصمت القاتل في الزنزانة وأنه في حالة طبيعية.

إن هذه الساعة كانت تجعلني أشعر - وبالتأكيد كغيري من الأسرى - بأنني أكسر العزلة، وأقضيها، أو أقضي جزءاً منها في حالة طبيعية فيها حس الناس ورائحة البشر، ومع أن تبادل الحديث كان مملا أحياناً بسبب الروتين القاتل، إلا أن الأحداث والتطورات الفلسطينية والعربية، والهموم المستجدة تجعل مادة الحديث متجددة يومياً وعلى مدار الساعة من خلال التلفزيون والراديو والصحف، وقد تصادف وجود أحد كتب تعليم العبرية الأول من سلسلة مؤلفة من أربعة كتب يتعلم من خلالها المهاجرون المستوطنون الجدد القادمون لدوله الاحتلال مع أحد الإخوة في الزنازين، فاقترحت على الإخوة أن أقوم بتدريسهم هذا الكتاب حتى يتسنى لهم متابعة الأخبار والحديث مع الشرطة وقراءة الصحف، وقد أقبل الإخوة على ذلك بشغف كبير، وبالفعل وخلال عدة

www.ibtesama.com

شهور انتهيت من تدريسهم من وراء النافذة، اعتماداً على الأذن. لقد أنهوا الكتاب الأول بجدارة وامتياز في تعلم العبرية وخاصة الإخوة عبد الله البرغوثي، وأحمد المغربي، ونزار رمضان، ولاحقاً تدربوا على دراسة الصحف العبرية بمعدل قطعة يومياً يقرأها أحدهم وأسأله في الكلمات، وبعد ذلك سجلوا اشتراكاً في صحيفتي يديعوت أحرانوت ومعاريف.

والحقيقة أن اللغة العبرية ضرورة لكل أسير، وخاصةً في العزل الانفرادي حتى يتسنى للأسير التفاهم مع السجّانين والحفاظ على بعض حقوقه وفهمها، حتى يتسنى له قراءة الصحف العبرية التي يسمح لها وحدها بالدخول إلى الزنازين بشكل عام، وبسبب القنوات التلفزيونية الإسرائيلية المتوفرة، وكذلك للتفاهم مع السجناء الجنائيين اليهود في الأقسام نفسها. وقد فرح الإخوة كثيراً بهذه التجربة مع أنها تمت من خلف النافذة وبصعوبة واعتماداً على الأذن والسمع بالدرجة الأولى، وبحكم حصولي على عدد كبير من الكتب، فقد كان الإخوة يملكون فرصة قراءة جزء هام، حيث كنت أرسلها لهم، وساعدتهم كثيراً في قضاء الوقت في القيام بشيء مفيد وهام وفي محاربة الملل والروتين.

ومن جانبي، فقد استفدت من هذا الوقت في هذه الزنزانة التي قضيت فيها ما يقارب الستمئة يوم في القراءة أكثر من الزنازين الأخرى، حيث شعرت ببعض الاستقرار والتعايش مع هذا الوضع، وكنت مُهيّأً للمكوث عدة سنوات في هذا القبر الصغير، وقرأت هنا الكمية الكبرى خلال مرحلة العزل الانفرادي، وخصصت بضعة أشهر لقراءة بعض الكتب والروايات باللغة الإنجليزية، واستخرجت منها مئات الكلمات الجديدة وكنت أواظب على حفظ معانيها، ولقد سجلتها في دفاتر، وكنت أستغل فترة الفورة أحياناً لقراءتها ومراجعتها، هذا بالإضافة لقراءتي عشرات الكتب الأخرى (باللغتين العبرية والعربية).

www.ibtesama.com

العزل الانفرادي والمحامي

على الرغم مما ذكرته سابقاً من أنه لا جدوى من وجود محامٍ في المحاكم الإسرائيلية، وضرورة مقاطعة هذه المحاكم، إلا أن المحامي يكتسب أهمية خاصة لزيارته الأسير في السجن عموماً وفي العزل الانفرادي خصوصاً. ومع أن السلطة الفلسطينية ووزارة الأسرى ونادي الأسير والعديد من المؤسسات الحقوقية التي تعنى بالأسرى تخصص محامين ليدافعوا عن الأسرى ويزوروهم، إلا أن هذا العدد لا يغطي إلا جزءاً يسيراً من الأسرى، والغالبية الساحقة من الأسرى لم يحظوا بزيارة محامٍ منذ صدور حكم بحقهم، بل إن هناك من قضى أكثر من خمسة عشر عاما ولم يحظَ بزيارة محامٍ.

وزيارة المحامي للأسير تكتسب أهمية خاصة، ليس لأن المحامي سيحرر الأسير من سجنه، وليس لأنه يقدم له شيئاً، ولكنّ أهميتها ذات قيمة معنوية بالنسبة للأسير، فهي تحمل رسالة إليه حركته - أو سلطته أو تنظيمه - تهتمّ به وتتابع شؤونه، وهي تشعر الأسير بأن سنوات الأسر والاعتقال لم تجعله نسياً منسياً، هذا إضافة لحاجة كثير من الأسرى الذين لا تتاح لهم زيارة عائلية إلا من خلال المحامي للاطمئنان على الأسرة والأهل ولطمأنة الأسرة والأهل عليه، وهنالك مئات الأسرى الذين توفي ذووهم من الدرجة الأولى وهم في السجن، ولم يعد هناك من يستطيع زيارتهم. عندها، يقضي هؤلاء سنوات الاعتقال الطويلة بلا زيارات، الأمر الذي يؤثر كثيراً في نفسية الأسير، خاصة وهو يرى زملاءه ورفاقه الأسرى يحظون بزيارة من قِبَل ذويهم ويحافظون على التواصل معهم من خلال الزيارة، وأن هؤلاء لا يحتاجون إلى محامين، كما تشكل زيارة المحامي بعض التعويض المحدود لهم عن زيارة الأهل.

www.ibtesama.com

إن زيارة المحامي تصبح أكثر إلحاحاً، وحاجة إنسانية وعملية للأسرى من الأشقاء العرب في السجون الإسرائيلية الذين حرموا من زيارة ذويهم، وكبروا في السجون، وقضوا فيها سنوات طويلة ولم يقابلوا أبناءهم وأمهاتهم وأشقاءهم وأقاربهم، وبعضهم فقد معظم هؤلاء في أثناء فترة وجوده في السجن. ومن أبرز الأمثلة، المناضل اللبناني المعروف سمير القنطار الذي قضى 28 عاما في السجون التي دخلها وهو بعمر دون السابعة عشرة، ولم يحظَ بزيارة والدته أو والده الذي توفي وهو في السجن. إن زيارة المحامي تصبح في مثل حالة الأسرى من الأشقاء العرب غاية في الأهمية، وتُشكّل رئة يتنفس منها الأسير وكذلك الأهل والأصدقاء.

أما في العزل الانفرادي، حيث الغالبية الساحقة من حالات العزل الانفرادي ممنوعة من الزيارة العائلية، فإن زيارة المحامي للأسير المعزول تكتسب أهمية استثنائية وهامة جداً. أولاً، للتواصل مع الأهل وللاطمئنان المتبادل بين الأسير وأهله. وثانياً، ليشعر الأسير أن هناك اهتماماً به من أهله أو تنظيمه أو شعبه أو سلطته أو مؤسسات الوطن، هذا الشعور الذي يمنح الأسير في حالة العزل الانفرادي الكثير من العون والكثير من القوة المعنوية، ويعزز من صموده وثقته وإيمانه، ويخفف عنه حالة العزلة، وكذلك فإن هذا الأمر يجعل إدارة السجن في العزل أكثر حذراً في التعامل مع الأسير خشية فضح أي إجراء أو ممارسة بحقه. يضاف إلى ذلك أن الأسير يشعر بطمأنينة أكبر تمكنه من إيصال همومه ومشكلاته للرأي العام.

في حالة العزل التي عشتها، وبسبب حظر الزيارات العائلية وغيرها، ووجودي في عزل مطلق، كانت زيارة المحامي في غاية الأهمية بالنسبة لي، وينطبق هذا على كل أسير بسبب شعوره بالوحدة، وحاجة إلى كل

www.ibtesama.com

ذلك أيضاً. يضاف إلى ذلك أن التواصل مع المحامي مكنني من متابعة التطورات الفلسطينية في معظم المجالات والمحطات والأحداث، ومن أن أكـون فـي الصـورة إلـى حـد كبير، ومكننـي من التواصل المكثف مع الأهل والأصدقاء، ومع قيادات الحركة، وقيادات الفصائل، ومؤسسات السلطة، ومع الحملة الشعبية الفلسطينية والعربية، ومع الرأي العام، ومع وسائل الإعلام.

لقـد تمكـن المحامـي مـن أن ينقل معظم ما يجري، وتمكنت غالباً من نقل آرائي ووجهة نظري تجاه التطورات؛ ولو متأخراً نسـبياً بطبيعة الحال. كما مكنني من الاطمئنان على أسرتي وزوجتي الحبيبة وأولادي الأحبة ووالدتي وأشـقائي وأصدقائي وإخوة ورفاق النضال والمسـيرة. وقـد بـذل المحامـون الذيـن دأبـوا على زيارتي جهدهم لنقل الحقيقة لي ونقل رسائلي على أكمل وجه، وواصلوا بشكل يثير الإعجاب والتقدير والاحترام زيارتي مهما كانت الظروف، وبخاصة الأخوين خضر شقيرات والياس صباغ.

كانت لزيارة المحامي في أيام الأعياد أهمية خاصة، بالرغم من أن العيـد فـي الزنزانـة الانفراديـة لا طعـم له ولا لون ولا رائحة ويمر كباقي الأيام. وحتى إنّ مصافحة الأسرى كانت ممنوعة في هذا اليوم، أو اللقاء ولو لنصف ساعة في ساحة الفورة، ثم إنه لا يوجد في المكان ما يوحي بأن هنالك عيداً سوى أننا نتوقف عن الصيام بعد رمضان، ونتناول إفطارنا نهاراً وليس بعد آذان المغرب.

ولقد قدّرت زيارة المحامي لي في هذا اليوم؛ أي في العيد. ومن دون شك كان يوم العيد أحد الأيام المؤلمة في العزل الانفرادي، فأي عيد هذا الذي تقضيه في هذا القبر الصغير برفقة الفئران والجرذان والنمل والصراصير ووراء باب مغلق؟ أي عيد هذا الذي أقضيه بعيداً عن الأهل

www.ibtesama.com

وأسرتي وأصدقائي وأبناء شعبي؟ أي عيد هذا الذي أفتح فيه عينيّ فجراً وأمامي السجّان والجدران والقضبان؟ وأي عيد هذا الذي تقضيه وحدك، وتصلي فيه وحدك، أو تأكل وحدك، ولا تجد أحداً لتصافحه أو تطبع قبلة على وجنتيه؟ أتذكر في العيد كيف كنت أصحو مبكراً بعد نوم ساعات قليلة، أغتسل وأتوضأ وأصلي وأصطحب أحياناً القسام وشرف وعرب وأقود سيارتي مسرعاً لأؤدّي الصلاة الجماعية صبيحة العيد في مسجد قريتي كوبر حيث الفرحة بلقاء الجميع وتأدية واجب التحية والسلام والمصافحة، وكم كنت أشعر بالمتعة والدفء في هذا اللقاء، كما أتذكّر مشهد مئات الصغار وهم يملأون الطرقات والشوارع والأزقة، والزينة على المحلات والدكاكين، والأطفال الذين يرتدون الملابس الجديدة أو شبه الجديدة ويلعبون ويضحكون ويركضون وأيديهم ملأى بالحلوى والألعاب المختلفة.

أتذكر كيف كان يحيط بي جميع أهل البلدة الطيبة أمام المسجد، وكيف كنت أصافح كبار السن أولا، وكيف كنت بعد المسجد أذهب إلى ديوان العائلة حيث يجتمع الصغير والكبير لمدة ساعة إلى ساعتين، ثم ينفضُّ الجمع، ويذهب الناس إلى بيوتهم حيث الافطارات الصباحية، وحيث الجولات المتبادلة للمعايدة والمصافحة ولزيارة الأقارب وصلة الرحم، وأتذكر الأعياد التي كنت أحياناً أذهب فيها للصلاة في مسجد جمال عبد الناصر في مدينه البيرة، وأصافح مئات بل آلاف الأصدقاء، ثم أنتقل إلى مقبرة الشهداء لقراءة الفاتحة، ووضع أكاليل من الزهور على قبورهم وتأدية التحية والسلام لهم وعليهم، ومعاهدتهم سراً وعلانية على الوفاء لدمائهم ولأرواحهم الطاهرة ومواصلة مسيرة الحرية والعودة والاستقلال، وأتذكر مصافحة أبناء الشهداء وزوجاتهم وآبائهم وأقاربهم. لم أشعر في حياتي بالمرارة عند مصافحة أحد ولا بالألم كشعوري عند

www.ibtesama.com

مصافحة طفل استشـهد والده أو أمه، أو تقبيله، أو مصافحة أم أو أب استشـهد ابنهما، وكان هذا الألم يتحول في قلبي ووجداني وعقلي إلى طاقة نضال وعطاء وعمل ووفاء.

أحياناً، كانت زيارة المحامي في يوم العيد تذكرني بالعيد الذي لا نشـعر بـه فـي الزنزانـة. وكانـت صورة أولادي فـي هذا اليوم تملأ العقل والقلب والوجدان، وأتساءل هل استيقظ القسام؟ وهل ارتدت أميرة قلبي وطفلتي الحبيبة ربى ذلك الفسـتان الجميل الذي اشـتريته لها خصيصا للعيد، أم أصبح صغيراً عليها فهي تكبر وتنمو، وأنا هنا في الزنزانة بلا حراك تكبر في السّـنّ، هل اسـتيقظ شـرف مبكراً كعادته وارتدى ملابس العيد التي كان يجب أن يفرح ويحتفي بها كثيراً ويهتم بشأنها أكثر من إخوانه؟ هل استحم عرب هذا الصباح، ولبس أجمل ما لديه وهو صاحب الـذوق الرفيـع ومحـب الأناقـة؟ وهل هنـاك مَن يصطحبهم ليؤدوا صلاة العيد في مسـجد القرية ويأخذهم من رام الله وإليها؟؟ أم أنهم يؤدونها هذه المرة في مسجد جمال عبد الناصر؟ أم توقفوا عن تأدية صلاة العيد؟

من سـيقبّلهم هذا الصباح الباكر ويطبع قبلاته على وجناتهم؟ ومن سيشـهد لأناقة عرب وترتيبه ملابسـه، ووسـامه شـرف وجمال فسـتان ربى والنور الذي يشـع من وجه القسـام؟؟ من يقبّل يد زوجتي في هذا اليوم ويطبع قبلة الوفاء على وجنتيها؟؟ من سيقول لها إنّ هذا الفستان أجمل مـن هـذا الفسـتان أو ذاك فـي هـذا اليـوم؟؟ كيـف لـي أن أعتذر لأطفالي وزوجتـي عـن غيابـي لأسـباب خارجـة عـن إرادتي في هـذا اليوم؟؟كيف سـأعتذر لوالدتي عن عدم تقبيل يدها ثلاث مرات وعشـر مرات؟؟ أين طعـم الحلـوى الـذي تجـده فـي الطرقات والمنازل وفي السـاحات؟ ومن يعـرض عليـك الضيافـة الآن وفـي هـذه الزنزانـة؟؟ أين البيـت الذي يعجُّ بالأهـل والأصدقـاء والأحبـة والجيران حتى منتصف الليل، لدرجة تشـعر

www.ibtesama.com

معها حين تذهب إلى النوم بعد منتصف الليل أن خدّيك ملتهبان بسبب تبادل القبل مع الضيوف؟

أين الفرح رغم كل المرارة والألم والشهداء والدموع؟؟ إنني لا أجد حولي سوى سجّانين أراهم كل يوم، وجدران أراها كل يوم، وفئران أراها كل يوم، ونافذتي في ساحة فارغة أتمشى فيها لوحدي، وسماء تغطيها قضبان الحديد والأسلاك الشائكة. لا أحد يقدم لك التهنئة بالعيد أو يسلم عليك أو يصافحك بحرارة، لا أحد لا أحد، فليس بإمكانك في هذا اليوم سوى أن تفعل ما تفعله كل يوم، وأن تنسى أن هذا يوم عيد لأن عيدك هو حريتك، ولأن حريتك هي وطنك السيد الحر، ولأن عيدك هو كبرياؤك الوطني.

ثم إنني أعيش هذا الحرمان والعذاب حتى أصنع عيداً أكبر من كل الأعياد، عيداً للحرية والاستقلال، حيث يفرح كل الشعب ويبتسم الوطن. إنها معاناة من أجل أن يفرح أولادي وأبناء شعبي، ومن أجل أن يعم الفرح لكل الناس، ثم من قال إن الإنسان يستطيع أن يحتفل بالعيد وهو ليس حرا، إن عيد الأحرار هو حريتهم وسعادتهم واستقلالهم. وحتى نصنع ذلك العيد الأكبر والفرح الأعظم لا بد من أن يكون هنالك من يستشهد، ومن يصاب، ومن يُسجن، ومن يُعذب، ومن يجوع، ومن يقاتل، ومن يناضل، ومن يعمل ويزرع ويصنع، فهذه المسيرة المليئة بالدم والعرق والدموع والمعاناة والعذاب ستنتهي بعد الأعياد حيث نصلي جماعة في أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين؛ في المسجد الأقصى وفي ساحات القدس.

كذلك كان شهر رمضان الفضيل يُقبل المرة تلو الأخرى، وها أنت بين الجدران وحدك، تحاول أن تشعر أنه فعلا شهر رمضان، ولكن كيف لك أن تشعر به هنا؟ حيث إن له طقوساً وعادات وتقاليد خاصة

www.ibtesama.com

تجعلك تفرح به، والحقيقة أنني ومنذ الطفولة ثمة علاقة حميمة وخاصة جداً بيني وبينه، فأنا أستقبل هذا الشهر وأصومه رغم قسوته في الطفولة، قبل إكمال السنة السادسة من عمري. ومنذ ذلك الحين وأنا أحرص على صيامه حتى عندما أكون مسافراً، أتمسك بالصوم وأشعر دوماً بمتعة خاصة بأجواء روحية لهذا الشهر الفضيل.

هنا في الزنزانة لا مائدة جاهزة، بل صحن طبيخ تسلمته قبل ساعتين من موعد الآذان، وهو بارد تماماً، إضافة إلى حبة بندورة أو خيارة وقطعة من الخبز، أين هذه المائدة من موائد رمضان في البيت أو لدى الأهل والأصدقاء والضيافة؟؟ أتذكر أنني قضيت نسبة جيدة من إفطارات رمضان برفقة أهالي الشهداء ومع الجرحى ومع المقاتلين، أتذكر الموائد التي كانت تقيمها العديد من المؤسسات بهذه المناسبة مع ذوي الاحتياجات الخاصة والأيتام، أو بعض الأندية والمؤسسات، أتذكر الآن مائدة أمي والأهل والأصدقاء وأتذكر مائدة المنزل، وكيف كنتُ قبل ساعة من الآذان أتجول مع قسام وشرف وعرب وربى لشراء بعض الحاجيات مثل التمر الهندي، والليمون، والحلويات ونقضي الوقت استعداداً للآذان، إنه شهر صلة الرحم والزيارات العائلية والأصدقاء والناس والأهل.

www.ibtesama.com



www.ibtesama.com

الفَصْلُ الخامِسُ

حياتي في زنازين العزل الانفرادي

(عجز الاحتلال عن إنهاء دوري النضالي
على الرغم من السجن والعزل...
فإرادة الإنسان وإيمانه أقوى
من القيود الحديدية والأسوار
العالية وعتمة الزنزانة)

www.ibtesama.com



www.ibtesama.com

حياتي في زنازين العزل الانفرادي

لا حياة في الزنزانة

مـن نعـم الله علـى الإنسـان أن العقـل عصّـي علـى الحبـس عكس الجسـد. وهنـا، فـي هـذه الزنزانـة الضيقة والمعتمـة حيث الوحدة القاتلة تشـعر بعظمـة العقـل والـروح لأن كل القـوة التي تملكها دولة الاحتلال بما في ذلك السلاح النووي لم تنجح في حبس عقلي وروحي وإرادتي وإيماني وإن تمكنت من حبس جسدي، وهنا تكتشف بشكل حسي عظمة الخيـال وقيمتـه فهـو عصـي على الحبس والاعتقال، به تحلّق في الفضاء ومـن خلالـه تتجـول فـي أزقـة الوطن وشـوارعه... تتجول في كل مدينة وقرية ومخيم وخربة وزقاق وشـارع وحارة، ومن خلاله تتذكر الزوجة الحبيبة ورفيقة الدرب وشـريكة العمر وحارسـة الحلم التي تحملت ما لا يحتمل، وتتذكر الأولاد وتقبّلهم وتضحك معهم وتسـمع ضحكاتهم وصراخهم وتتذكر نهفات كل واحد منهم، كما تتذكر الأصدقاء ورفاق الـدرب، فمنهـم مـن قضـى نحبه ومنهم من ينتظر، منهم المخلص الوفي والصادق، ومنهم الذي لم يتذكرك لحظة واحدة، إن هذا الخيال الرائع يطلق سراحك رغماً عن أنف العدو ويحطم الأسوار والأسلاك الشائكة والأبواب الحديدية، ويجعلك حراً تفكر وتتأمل وتسمع وترى وتحس، إن خيالك هو حريتك في هذه الزنزانة المظلمة، أما جسـدك فهو مقيّد اليديـن والقدميـن ومحـروم مـن صنع الحياة اليومية، بل من أصغر وأتفه الأشياء التي تكتشف قيمتها هنا، وتكتشف مرارة الحرمان من أن تكون حراً بكامل كيانك الإنساني.

www.ibtesama.com

هنا لا تجد من تقول له صباح الخير أو مساء الخير أو مرحباً أو السلام عليكم أو كيف حالك أو تشاركه أفكارك، أو تسمع منه تعليقاً على مشهد من مسلسل أو خبر على الشاشة، هنا لا تعرف الفرح أو السعادة. اليوم يشبه الأمس، والأمس يشبه اليوم، كما هو لا يتغير ولا يتحرك، فقط تشعر أن العالم يتغير من خلال ما تراه على شاشة التلفاز أو من خلال رسائل الزوجة الحبيبة والأولاد التي تصلك بواسطة المحامي، فهذا ترفّع من صف كذا إلى صف كذا وأصبح في المرحلة الإعدادية، وذاك في الثانوية، وتلاحظ من الصور أن شكل الأولاد قد تغيّر، وكذلك المحامي، وأنت لا تدرك أو لا تنتبه أنك تغيرت في الشكل والقسمات. هنا لا تسمع ضحكات الصغار أو الأولاد في الشوارع، ولا صوت الباعة على دوار المنارة في رام الله، بائع الجرائد والكعك والفلافل والحلويات. هنا قبر تعيش فيه حياً، إنها قبور مخصصة للأحياء. هنا لا ترى من النساء إلا اثنتين من السجّانات يشكل وجودهن تشويهاً لصورة المرأة ولرقتها ولجمالها ولطفها وعظمتها، كنت حزيناً في داخلي لأن امرأة تغلق باب الزنزانة، وتضع القيود في يدي وقدمي خاصة وأنني طوال حياتي من أنصار المرأة، وداعم لحقوقها كاملة، وأعتبر نفسي مناضلاً من أجلها لإيماني أن عظمة أي مجتمع تتحدد في جانب رئيسي بمكانة المرأة فيه. هنا لا ترى نساءً ولا صبايا ممشوقات الطول، جميلات العيون، معتدات بجمالهن، ولا تلمح امرأة بكامل أناقتها تجلس في أحد المطاعم أو المقاهي في رام الله، ولا تسمع ضحكات الصبايا الخجولة. هنا لا تشم عطر النساء الذي يملأ الروح ويوقظ الإحساس، ولا تلفت انتباهك امرأة مارة في الشارع، ترقب العيون جمال فستانها أو عينيها أو شعرها أو مشيتها. هنا لا وجود لحس النساء لذا لا وجود للحياة، فالحياة حيث وجدت المرأة وحيث لا تكون لا حياة طبيعية أو حقيقية.

www.ibtesama.com

هنـا لا تسـتطيع دخـول مكتبـة واختيار كتـاب تتلهف لقراءته. وكم كنـت أسـتمتع فـي الماضـي بالتجول في المكتبـات واختيار الكتب، وأنا أشتهي بعض الكتب كما يشتهي العاشق حبيبته. أتذكر تجوالي في أحد الأيـام فـي القاهـرة، حيـث أخصـص يومـاً للمكتبات كمـا فعلت في كل بلـد تمكنـت مـن زيارتـه، وقـد غصت في ذاك اليوم في مكتبات القاهرة، وكنـت فـي زيـارة برفقـة زوجتـي لكننـي عدت إلى الفنـدق ومعي ثلاث حقائب من الكتب وكان الامتعاض بادياً على زوجتي وقالت: «هل جئنا للقاهرة لنأخذ كتباً أم لنتجول ونتفسـح وننبسـط؟» فقلت لها: «تعلمين حبي للكتب وهذه فرصة، وأنا من سيحملها على أي حال». وكان أحد أسـباب امتعاضها أن شـقتنا التي نعيش فيها في رام الله صغيرة لا تتسـع للكتب التي امتلأت بها كل زاوية.

مـن متـع الحيـاة قـراءة كتاب تحبه وتندمج فيه وتسـتمتع بمطالعته، وخاصـة فـي السـجن، وأكثـر خصوصية في الزنزانـة الانفرادية. إن قراءة روايـة جميلـة لا يفوقهـا متعـة أي أمـر آخـر، فهـي تحـرر الإنسـان مـن هـذا المـكان وتخرجـه مـن الزنزانـة، حيث يعيش أحـداث الرواية خارج الجدران والأسـوار والأسـلاك الشـائكة. الوقت الذي نقضيه في القراءة داخل الزنزانة أو السـجن نكون فيه أحراراً خارج المكان، لأن الإنسـان كله عقل وجسد وخيال يحلق ويتجول وينشغل مع أحداث الرواية من مكان لآخر. وأنا أتسـاءل هنا وأنا أقرأ الروايات وأكتب، ما الفرق بيني وبيـن مـن يقـرأ الآن فـي طائـرة أو علـى ظهـر سـفينة أو من يجلس على أحد الشواطئ أو على شرفة منزل، هل يعيش الرواية كما أعيشها أنا في هذا القبر المخصص للأحياء؟ والحقيقة أنني أستغرب نفسي أحياناً عندما أشعر إلى هذا الحد بالفرح والانسجام رغم المكان الرهيب.

الوقـت هنـا يمضـي حـاداً، يقطـع من عمرك كحد السـكين، ويوزع

www.ibtesama.com

سنين عمرك أشلاء. هنا تُطلق العنان للخيال، وتفكر في كل الأشياء من أتفهها إلى أعظمها، ومن أبسطها إلى أكثرها تعقيداً، تفكر في قدرة الإنسان الهائلة على التكيف والتحمل، تفكر في سلوكه، وفي سر وجوده، في فلسفته للفداء والتضحية والاستشهاد والإيمان بالمبادئ والمُثل، وتفكر في المفاهيم المختلفة وفي سر الحياة والموت، وفي تطور الحياة الإنسانية من البدائية المتوحشة إلى حالة الإنسان اليوم، وما أنجزه في مجالات العلوم الطبيعية والتكنولوجيا والطب والتعليم والبحوث، وفي حقوق الإنسان والتعددية الفكرية والحريات والسياسة وتطور وظيفة الدولة كأكبر تنظيم وكيان أنشأه الإنسان. وفي الوقت نفسه، تلاحظ العوالم المختلفة باختلاف الأديان والأعراق والألوان واللغات والمستويات الاقتصادية، فهناك أمم متخمة ومرفهة ولديها وفرة ومستوى حياة عالٍ جداً، وهناك أمم تعيش الفقر والجوع والجهل والموت بسبب نقص الغذاء والدواء، وشعوب ترزح تحت وطأة الاحتلال والاستعمار، وتعاني من القهر والظلم والاضطهاد، ومع ذلك فإن الإنسان ينظر باحترام لتلك المحاولات التي تبذلها في هذا العصر دول ومنظمات وجمعيات وحكومات وأفراد من أجل تقارب الأمم والتطور والنهوض والحوار والتفاهم. وسيظل من مصلحة شعوب الأرض كافة أن تتكاتف من أجل إنهاء الاحتلال والقهر والظلم والتمييز العنصري والمجاعة والفقر والمرض، ليس فقط لأن الأخلاق والمثل والمفاهيم الإنسانية تستدعي ذلك بل لأن مصالح الأمم والدول والشعوب والأفراد تقتضي ذلك.

هنا أشعر بكل التضامن والتأييد والتعاطف مع كل الشعوب المقهورة والمظلومة، ومع المظلومين والمضطهدين والمقهورين والفقراء والمحرومين في هذا العالم، لأنني أنتمي لهؤلاء وأنا منهم ومثلهم، أحلم بعالم خالٍ من الاحتلال والاستعمار والقهر والظلم والحروب

www.ibtesama.com

والمجاعـات والفقـر والتمييـز والتعصـب، وأحلم بعالـم متصالح مع ذاته وعوالمه ثقافياً ودينياً واقتصادياً يعيش بسلام وأمن وتسامح ومحبة وأخوة ومساواة.

المطالعة ومتابعة الأحداث

لـم يكـن لـدي عنـد دخـول العزل الانفرادي سـوى عـدد قليل من الكتب جمعتها سريعا من الإخوة الأسرى إضافة إلى القرآن الكريم، وبعد فترة قصيرة بدأ ممثل الصليب الأحمر يحضر لي ثمانية كتب كل زيارة، أي كل خمسـة أشـهر أو سـتة أشـهر، كانت تشـتريها زوجتي وترسلها مع الصليب الأحمر، ويقوم بدوره بترتيب إحضارها لي. منذ سنوات طويلة تمكن الأسرى من الحصول على إذن بإدخال الكتب من خلال زيارات الأهل الشـهرية، ويختلف الأمر من إدارة سـجن إلى آخر، كما أن إدارة السجون تسمح بنوعية ما وترفض أخرى، وتُحدد كميتها.

وحرص الأسرى على تكوين مكتبة في كل سجن، يشرفون عليها بأنفسـهم، وتمكنـوا بعـد نضـال طويـل وصعـب وعنيـد من فـرض نظام داخلي بكل سـجن يتمتع بحد أدنى من الإدارة الذاتية، لا سـيما لجهة تنشـيط الحياة اليومية الثقافية والتعليمية داخل السـجون حيث انتشـرت فيها برامج تعليم يقدمها الأسرى لبعضهم بعضاً من دورات تعليم لغات عربية وعبرية وإنجليزية، إضافة إلى دروس تثقيفية حول تاريخ فلسطين، وأدبيـات الفصائـل الفلسـطينية، وتاريـخ العـرب والمسـلمين، وتجـارب حـركات التحـرر، والكثيـر مـن الروايات وكتب الأدب والقصص، فضلاً عن التوعية في شؤون الدين والشريعة الإسلامية.

وهنـاك العديـد مـن الأسـرى الذيـن التحقـوا للدراسـة بالمراسـلة بالجامعة العبرية المفتوحة في تل أبيب، وبعضهم أنهى دراسته وحصل

www.ibtesama.com

على البكالوريوس في العديد من التخصصات، علما أن الدراسة تتم باللغة العبرية، ومن جانبي فقد تعودت على المطالعة منذ طفولتي تقريباً، وتعززت هذه الهواية بشكل كبير ومكثَّف ومفيد خلال سنوات الاعتقال، حيث كرّست معظم وقتي للدراسة وتعلم اللغات العبرية والإنجليزية، إضافة إلى مئات الكتب والكراسات والدراسات.

كانت الزنزانة الانفرادية على رداءة ظروفها وقسوتها، فرصة طيبة لممارسة القراءة والمطالعة، ولكن المشكلة الأساسية كانت تكمن في كمية الكتب المحدودة، ولا سيما في الشهور الأولى قبل أن يصبح الأمر مختلفاً قليلاً بعد بضعة أشهر.

بعد أشهر قليلة، خصصت فترة محددة لدراسة القرآن الكريم وحفظ ما استطعت منه، واستغلال هذه الخلوة الإجبارية مع النفس ومع الله سبحانه وتعالى للتفكير والتأمل بشكل أعمق، ومن الصعب أن يتوفر ظرف أفضل من هذا المكان للمارسة التأمل. وكما هو حال كل بني البشر فإن السؤال عن الخلق والتكوين والوجود وسر هذا الكون، ومئات الأسئلة الأخرى، تدور في العقل وتستحق أن يفكر فيها الإنسان. بدأت بقراءة القرآن الكريم بشكل مكثف وبالبحث والتفصيل، وحفظت بعض الأجزاء، وقرأت بعض الأجزاء بدقة، وفي مقدمتها النصوص القرآنية المتعلقة بالمسيحية والمسيحيين، خاصة أن لفلسطين خصوصية لناحية الدين المسيحي بوصفها مهد الديانة المسيحية، وباعتبار أن السيد المسيح عليه السلام ولد وعاش في هذه البلاد، وانبعث نوره من فلسطين ليبشر الناس في كل مكان بالمحبة والسلام والإيمان، صابراً على العذاب والمشقّات التي واجهته في رحلة التبشير، كما أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في هذا الوطن المقدس مميزة جدًّا وتعززت خلال عقود طويلة من الزمن بالعيش المشترك والنضال من أجل الحرية والاستقلال.

www.ibtesama.com

بعـد قـراءة مـا يتعلـق بهذا الشـأن في القـرآن الكريـم، توصلت إلى نتيجة مفادها أن التعايش السلمي والتعاون المشترك على قاعدة الاحترام المتبادل هما في صلب الرؤية القرآنية للديانة المسيحية.

القضيـة الثانيـة التـي حاولـت دراسـتها بعمـق هـي تلـك الآيات المتعلقـة بالمـرأة، وكان واضحـاً أن الله تعالـى خاطـب المرأة والرجل معاً من دون تفريق بينهما، كما دعا إلى إنصاف المرأة ومنحها كامل حقوقها، والحقيقة أنني كنت وما زلت من المؤمنين بضرورة الشراكة بين المرأة والرجل على قدم المساواة ومن دون تفريق أو تمييز، ومؤمناً بـأن تقـدّم أي مجتمـع ومـدى حضاريتـه وقوتـه يعتمـدان بدرجة كبيرة علـى مـدى إنصـاف المـرأة ومنحهـا حقوقهـا الكاملة، وأنـا على قناعة تامة بقدرة المرأة على القيام بدور حاسـم إلى جانب الرجل في بناء المجتمـع، وأثبتـت الكثيـر مـن التطـورات والأحداث فـي العالـم مدى الطاقـة العظيمـة التـي تختزلهـا المـرأة وتوظفها لصالح مجتمعها إذا ما أتيحـت لهـا الفرصـة لأخـذ دورهـا. وأنـا على يقين أنـه يتعذر في هذا العصر تطوير أي مجتمع والرقي به علمياً واقتصادياً وتنموياً وسياسياً من دون شراكة حقيقية وكاملة بين الرجل والمرأة، وتقاسم الأدوار على نحو خلاق بينهما. ومن المؤسف أن بعض المجتمعات ما زالت تعطل الطاقـة الهائلـة لـدى المـرأة، وتحرمها وتحـرم المجتمع من إمكاناتها، ومما يدعو للأسـى أحياناً الجدل الذي يفتعله بعض المتعصبين تجاه حق المرأة في المشاركة المجتمعية والسياسية، ورفضهم منحها حقوقها الأساسية الدنيا.

ليس من المفهوم أو المقبول أن يستمر النقاش حول ما إذا كان من حق المرأة قيادة السيارة، بينما أصبحت المرأة تقود أمّة بكاملها وتتبوأ الموقـع الأول فـي كثيـر مـن البلـدان. وليـس من المفهـوم الجدل حول

www.ibtesama.com

حقهـا فـي التصويـت والاقتـراع والترشـح، بدعوى تعارض هذه الحقوق مع النصوص الدينية.

في الحالة الفلسـطينية لعبت المرأة الفلسـطينية دوراً رائداً مُشـاركةً الرجل في النضال من اجل التحرر الوطني والعودة والحرية والاستقلال، وقدمت وما زالت نموذجاً يحتذى في الوعي وأصالة الانتماء والاستعداد للتضحيـة والنضـال ضـد الاحتـلال. ومنذ بداية الغـزو الصهيوني لبلادنا شاركت المرأة بهذا الشكل أو ذاك في النضال إلى جانب الرجل، ولم تقتصر مشـاركتها على أسـلوب دون آخر، بل حملت السـلاح وقاتلت العدو في كل مراحل الثورة الفلسطينية.

مـن أجـل المقاومـة قدّمـت المـرأة الفلسـطينية مثالا قـل نظيره في الانتفاضـة الشـعبية الأولـى، ولعبـت دوراً رئيسـياً فـي فعالياتهـا كافّـة، وقيادتهـا واسـتمرارها، وكذلـك فـي انتفاضة الأقصـى المباركة انخرطت المرأة وقدمت نماذج في الاستشهاد والفداء.

إن مشاركة المرأة الفلسطينية لا تزال قائمة في كل مجال وحقل،فهي شـريك حقيقي وأصيل في العملية التربوية والتعليمية في البلاد، وتسـهم بشكل فعال بما تشهده بلادنا من ثورة تعليمية وثقافية، كما أن انخراطها في مؤسسـات المجتمع الرسـمية والشـعبية والمدنية والحزبية والسياسـية كافّة دليل على حيوية المرأة الفلسطينية.

ورغم أن القانون الأساسي الفلسطيني نص على الحقوق المتساوية بيـن الرجـل والمـرأة، وعلـى الرغـم من زيادة التمثيل للمرأة في البرلمان الفلسطيني- المجلس التشريعي- إلا أن هذا التمثيل لا زال قاصراً عن إيفاء المرأة بعضاً من حقها، كما أن تمثيلها في مؤسسـات صنع القرار مـن حكومـة وهيئـات قيادية للفصائل والبرلمان ومؤسسـات م.ت.ف ما زال تمثيـلاً قاصـراً لا ينسـجم مـع حجـم فعاليـة المرأة ومسـاهمتها على

www.ibtesama.com

صعيد المجتمع والنضال الوطني.

من الواضح أن تجربتي مع والدتي وجدتي، ثم مع زوجتي ومع كثير من النساء خلال العمل في مجالات عديدة عززت لديّ القناعة بجدارة المرأة الفلسطينية، ولا أزال أشعر بالاعتزاز لما تقوم به النساء الفلسطينيات فـي كل المجـالات، ومـا تقـوم به زوجات الأسـرى والمعتقلين وأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم، حيث الصمود والصبر والتحمل والمثابرة والمساندة والدعم والتشجيع والقيام بالمسؤوليات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية للأسرة والأولاد وتحمل عذاب الرحلة الشاقة من سنوات اعتقال طويلة ومريرة، لأن عذاب أسرة الأسير لا يقل عن عذاب الأسير نفسه.

في هذا الإطار فقد سجلت آلاف النساء نماذج من الصبر والتحمل ستظل فـي الذاكـرة ولـن تمحوهـا الأيام. وفي الحقيقـة فإن تجربتي مع زوجتي الحبيبة عززت وكرست لدي الكثير من القناعات الراسخة طوال حياتي حيال قيمة المرأة وعظمتها، وما يمكن أن تضيفه من حيوية وتجدد وروعـة وجمـال علـى الحيـاة، فقد قامت بجهـد مبدع وخلاق، وحملت قضيتي وقضية جميع الأسرى، ولا تزال كذلك.

لقد كانت تجربة التعمق في القرآن الكريم، والتفكير في الإيمان، وإطلاق العنان للعقل لأعمال التفكير العميق والتأمل رغم عتمة الزنزانة، تجربـة مفيـدة وهامـة رغـم أننـي لا أدعي أنني وجدت إجابات لكثير من الأسئلة التي دارت في ذهني ولا تزال، ويبدو أنها أسئلة مفتوحة لن تجد إجابـة أبـداً. إن تـلاوة القـرآن وحفظـه عزّزا لـدي القوة والإيمان والصبر على الظلم والقهر وهذه الزنازين والمقابر التي لا تليق ببني البشـر ولا تصلـح إلا لمـن فكـر فيهـا وصنعها وأشـرف عليها. وكان الصبر والجلد والتحمـل المسـلح بالإيمـان المطلـق بحقنـا المقدس فـي هذه البلاد هو مفتاح الصمود ومواجهة الظروف الصعبة.

www.ibtesama.com

تمكنت في هذه الأثناء من مطالعة مجموعة من الكتب العبرية التي تتناول الصراع مع الفلسطينيين وذات الطابع السياسي، ومن أبرزها كتاب حول الانتفاضة بعنوان (الحرب السابعة) للمؤلفين «آفي ساخاروف» و«عاموس هرئيل»K وهما صحفيان يختصان بالشأن الفلسطيني والعربي> والكتاب عبارة عن جمع معلومات أسرد من خلالها أحداث الانتفاضة وأهم فصولها، بالاستعانة ببعض الشهادات الفلسطينية والإسرائيلية، وهو يحاول شرح كيف تطورت الانتفاضة لتصبح حرباً إسرائيلية فلسطينية سابعة. ويبقى الكتاب مفيداً رغم أنه أقرب إلى تحقيق صحفي منه إلى محاولة سياسية أو فكرية لقراءة الانتفاضة، وكان الكاتبان قد حاولا قبل إصدار الكتاب الحصول على تصريح لزيارتي في الزنزانة، إلا أن حكومة شارون رفضت ذلك، لأن وضعي كان يخضع لمكتب رئيس الحكومة شارون، وهو الذي يقرر إذا كان يسمح لأحد بمقابلتي أم لا، وغاب شارون عن الوعي من دون أن يصادق على أي زيارة عائلية أو مقابلة صحفية رغم إلحاح العشرات من وسائل الإعلام المحلية والعربية والإسرائيلية والدولية وطلبها ذلك، ورغم توجه قسم منهم للمحاكم الإسرائيلية، وكان ذلك جزءاً من سياسة إحكام العزل في محاولة لإخماد صوتي وإبعاده وخنقه وإنهاء تأثيره، ولكنه وحكومته الفاشية فشلوا في ذلك.

قرأت كتاباً آخر بالعبرية مهمّاً ومميزاً للكاتبين الإسرائيليين «عوفر شيلح» و«رفيف دروكر» باسم (بومرنغ- الضربة المرتدة)، ويعالج الكتاب فشل القيادة الإسرائيلية في مواجهة الانتفاضة الثانية، وهو قراءة لمواقف وأساليب ووسائل إسرائيل في محاولاتها القضاء على الانتفاضة، ويتركز حول إدارة شارون ووزير حربه شاؤول موفاز ورئيس «الشاباك» آفي ديختر ورئيس أركان جيشه بوغي يعلون ورئيس الاستخبارات العسكرية

www.ibtesama.com

زئيف فركش ورئيس الموساد مئير داغان لهذه الحرب، وكذلك حول قادة الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة وقادة الشرطة، إضافة إلى دور رؤساء مجلس الأمن القومي وكبار الضباط، وموقف رئيس الحكومة ومجلس الوزراء المصغر، وموقف الوزراء كل على حدة.

يشمل الكتاب قراءة إسرائيل للانتفاضة باعتبارها حرباً خطط لها وقادها ياسر عرفات. ويحاول الكاتبان بحث هذه الفرضية مع ميل واضح لعدم تصديقها، وقد وجدت أنه من المفيد الاطلاع على الكتاب الذي لا يخلو من بعض المعلومات الخاطئة، لاعتماده على مصادر إسرائيلية فقط.

كما تسنّت لي فرصة قراءة كتاب آخر بعنوان (على بعد خطوة) وهو لمحامٍ إسرائيلي عمل مستشاراً لدى رئيس الحكومة الأسبق إيهود باراك ويدعى جلعاد شير، ويتعلق بالمفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية التي شارك فيها المؤلف خلال عهد باراك، وما قبلها مركزاً على مفاوضات كامب ديفيد. وقرأت عدداً آخر من الكتب العبرية لعاملين في الموساد وأجهزة الأمن الإسرائيلية، وكذلك قرأت عدداً من الكتب الإنجليزية وحاولت زيادة معلوماتي ومفرداتي بهذه اللغة، وقرأت كتباً أهمها كتاب الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون (حياتي)، وكتاب المنسق الأميركي لعملية التسوية دينيس روس (السلام المفقود)، وعدداً من الكتب التاريخية الأخرى التي استمتعت بقراءتها، ورواية للكاتب الأميركي ماريو بورز مؤلف العراب باسم (أوميرتا) تتحدث عن المافيا في أميركا وإيطاليا.

أما باللغة العربية فقرأت العشرات من الكتب، وكنت أحياناً أعتمد على التباطؤ في إنهاء كتاب أو رواية حيث كنت أخشى أن ينتهي الكتاب وأجلس في الفراغ. وما إن كان ممثل الصليب الأحمر يحضر معه ما

www.ibtesama.com

بين ستة إلى ثمانية كتب حتى أنكب عليها بشغف وسرور نفسي، ولكن ما إن أبدأ بالقراءة وأنهي الواحد تلو الآخر في فترة قصيرة حتى أعود للتباطؤ خشية من إنهائها بشكل سريع.

ومن أبرز ما قرأته في اللغة العربية الإصدارات الأخيرة للكاتب المصري الكبير محمد حسنين هيكل مثل (الإمبراطورية الأميركية) و(المفاوضات السرية العربية الإسرائيلية)، وكتابه حول حرب الخليج، والعديد من الكتب الأخرى من تأليفه، وعدد من المؤلفات الفلسطينية للكاتب الراحل ومستشار الرئيس عرفات السيد ممدوح نوفل (طبخة أوسلو) و(ليلة انتخاب الرئيس)، وكتاب السيد أحمد قريع رئيس الوزراء الفلسطيني الأسبق (الرواية الكاملة لأوسلو)، والكثير من الكتب الفكرية والإيديولوجية والاجتماعية والأدبية، وعدد من دواوين الشاعر الكبير الراحل محمود درويش. إن قراءة الشعر تملأ الإنسان بكثير من المتعة وحب اللغة العربية، فهذا الشاعر الكبير يمنح اللغة بعداً ومعنى جميلين يبعثان الكثير من الأمل في الحياة والمستقبل. وقد فرحت بشكل خاص بديوان شعر بعنوان (ماذا تفعلين بي) وصلني رغم الحواجز والأسلاك والبعد الجغرافي من شاعر عزيز ووفيّ، مع أنني لم التقِ به في حياتي بشكل مباشر، لكنه وقف إلى جانب النضال الفلسطيني دوما وإلى جانبي شخصياً، وخصص لقضيتي أكثر من ثلاث حلقات من برنامجه التلفزيوني الشهير (خليك بالبيت) في تلفزيون المستقبل، وهو الصديق العزيز والمناضل زاهي وهبي، والحقيقة أن الأخ زاهي أظهر اهتماماً خاصا بقضية الأسرى والمعتقلين دوما في كتاباته وبرامجه، وهو مناضل لبناني اعتقل في سجون الاحتلال الصهيوني في أثناء اجتياح لبنان عام 1982.

أما قراءة الروايات فتكتسبُ معنىً خاصاً داخل الزنزانة، وتخفف من العزلة، لأنك تتعايش مع آخرين في أحداث تشعر بأنها تفك العزلة قليلا،

www.ibtesama.com

ومن أبرز الروايات ثلاثية الكاتبة العربية أحلام مستغانمي من الجزائر، وهذه الثلاثية هي: (فوضى الحواس، ذاكرة الجسد، وعابر سرير).

كما قرأت بشكل خاص جداً روايات الكاتب والصديق المفكر الكبير الراحل، ابن عمي، د.حسين جميل البرغوثي، ومنها (مرايا سائلة) و(الضوء الأزرق) و(الضفة الثالثة لنهر الأردن) و(سأكون بين اللوز)، وكتاب على شكل رواية بعنوان (أحلام بالحرية) للمناضلة عائشة عودة، تلخص فيها ببراءة تجربتها في التحقيق والاعتقال، ورواية (عالم صوفي) و(شيفرة دافنشي) و(الخيميائي)، وغيرها من الروايات والكتب، والكثير من إصدارات مؤسسة مواطن الفلسطينية التي تعنى بتشجيع الفكر الديمقراطي وقيم الحوار والتعددية وحرية الرأي والشراكة في مؤسسات المجتمع المدني، ومشكلات الأحزاب السياسية والنظام السياسي وما إلى ذلك.

أما الصحف فإن سلطات الاحتلال لا تسمح بدخول العربية والفلسطينية منها باستثناء جريدة القدس التي تخضع لرقابتها، وهي الصحيفة الأقدم والأكثر انتشاراً في فلسطين، وتصل من خلال الصليب الأحمر الذي يقوم بنقلها، وتُوزع مجانا على السجون، وفي العزل الانفرادي كانت تصل بشكل متقطع بتأخير أسابيع وأحياناً أشهر، وكانت مهمة بالنسبة لمتابعة الأخبار المحلية والفلسطينية بشكل خاص، كنت أتلهف لوصولها وقراءتها بالتفصيل ابتداء بالوفيات والأخبار المحلية، واذكر أنني تسلمت أعداد شهري تموز وآب في كانون الأول أي بعد خمسة أشهر من صدورها، ومع ذلك فرحت بها وقرأتها كلها، فهي بالنسبة لي جديدة وحديثة الصدور، ولا مكان للزمن داخل الزنازين، فهو ثابت لا يتحرك، والاتصال بالخارج يتم فقط عن طريق أخبار الراديو والتلفزيون والصحف والمحامين، أو زيارة العائلة التي تجعل الأسير

www.ibtesama.com

يشعر بحركة الزمن، فالروتين داخل الزنزانة شيء مذهل ومقيت لأن الجدران والعتمة ووجوه السجّانين وأدوات الطعام ومواعيد العدّ اليومي وشكل الباب والملابس لا تتغير أبداً.

أما النوع الثاني من الصحف فهو الصحف الإسرائيلية العبرية. ولقد سمحت سلطات الاحتلال منذ زمن طويل للأسرى بالاشتراك بها، ودأب الأسرى على شراء صحيفتي (يديعوت أحرانوت، ومعاريف) بالتناوب لمن يجيدون العبرية، وطلبت وأنا في الزنزانة الاشتراك في الصحف الثلاث (يديعوت أحرانوت، ومعاريف، وهآرتس)، وساعدتني تلك الصحف العبرية على المتابعة والاطلاع الجيد إلى حد كبير ومعرفة التطورات داخل دولة الاحتلال في المجالات كافة.

ويلاحظ أن وسائل الإعلام الإسرائيلية اتجهت بصورة عامة نحو التطرف، وتحوّل الكثير من الصحفيين المعروفين سابقاً بمواقف أكثر ليبرالية ونقد لدولة الاحتلال إلى الدفاع عن جرائم دولتهم ضد الشعب الفلسطيني، وسخّرت الصحافة الإسرائيلية بما في ذلك التلفزة والإذاعة نفسها لخدمة الجيش والبطش والقمع، وابتعدت عن ممارسة دورها المهني والنقدي، واصطفت مع طابور جيش الاحتلال، غير عدد قليل ومحدود حافظ على الموضوعية ومواقف ناقدة لجرائم الاحتلال، ولكنهم قلة قليلة، وفي هذا الإطار فقد تميزت صحيفة هآرتس بمواقف أكثر ليبرالية وانفتاحاً، وأفردت المجال لكثير من الأقلام للتعبير عن مواقف أصحابها الناقدة واللاذعة أحياناً، وأظهرت اهتماماً بالشأن الفلسطيني، وظهر عدد كبير ممن كتبوا في هذا الاتجاه ومن أبرز هؤلاء الذين يستحقون الإشارة والتقدير لمواقفهم «جدعون ليفي» و«عميره هيس»، كما أن مقالات لعدد آخر من الصحفيين اتسمت بالموضوعية النسبية في العديد من الأحداث مثل «عكيفا ألدار» وغيره من الصحفيين والكتّاب

www.ibtesama.com

الذيـن حافظـوا علـى حـد أدنى مـن المهنية والموضوعيـة، وفي الفضائية الإسرائيلية برز في الشأن الفلسطيني عبر تغطيته وتقاريره الصحفي «يورام بينور» في القناة الثانية.

كنـت أقـرأ الصحـف العبريـة الثـلاث يوميـاً، وهـي بـلا شـك غنية بالمقـالات والتحليـلات بشـكل عام، وتتنـاول مختلف القضايا، وهنالك تفـاوت مـن صحيفـة إلـى أخـرى، ومـن قناة إلى أخـرى، ومن إذاعة إلى أخرى. وكانت القراءة اليومية للصحف تسـاعدني على متابعة التفاصيل والتطورات في دولة الاحتلال كافة، ويضاف إلى ذلك القنوات التلفزيونية الثلاث «الأولى والثانية والعاشرة».

وقد شـكل التلفزيون بشـكل عام أداة هامة للأسـرى كافّة، وخفف عنهم عزلتهم في السـجون، وأذكر أن أجيالاً كاملة قضت سـنوات منذ عام 1967 وحتى عام 1990 من دون أن يكون لديها الحق أو الفرصة في مشاهدة التلفزيون في السجون، وعشت شخصياً تلك الحقبة الصعبة التي خـلا فيهـا السـجن مـن أي مصـدر للإعلام، واضطرت حكومة الاحتلال للموافقة على أجهزة التلفاز للأسرى الذين يشترونها على حسابهم بعد سلسلة من الإضرابات المتواصلة، إضافة إلى أن إسرائيل طبقت أنظمة خاصـة علـى الأسـرى فـي الجوانـب التـي تزيد حياتهم قسـوة وصعوبة، ولكنها في ظل منح آلاف المعتقلين الجنائيين اليهود كل شيء والادعاء أنها تطبق القوانين نفسها على الجميع اضطرت لتقديم بعض التنازلات للأسـرى الفلسـطينيين والعرب، والحقيقة أن التلفزيون أسـهم في تغيير مهم في أجواء السجون، ومكّن الآلاف ممن قضوا سنوات طويلة - ولا يزالون كذلك - من متابعة التطورات السياسـية والاقتصادية والإنسـانية والعلمية والثقافية وغيرها من خلال التلفاز.

كان التلفاز الذي اشتريته من الكانتين يشكل كياناً إنسانياً إلى حد

www.ibtesama.com

كبير يخفف عني قسوة العزلة، ويضعني في ظرف إنساني إلى حد ما، حيث يكسر الوحدة. فأنا لا أرى الأسرى، ولا أختلط معهم، ونادراً ما أتحدث مع أحد، وإن حصل فبواسطة الصوت العالي لبضع دقائق حيث يصعب فهم الكلام بالصراخ.

كنت أسمع الأخبار بصورة أساسية، وكانت هناك محطات فضائية للقنوات الإسرائيلية الثلاث، وفي عزل سجن أيالون كنت أشاهد قناة أبو ظبي وLBC والمستقبل وسورية والأردن، وفي سجون أخرى كانت القنوات أقل؛ مثل سجن بئر السبع حيث لا توجد قناة أبو ظبي كما لا توجد قنوات إخبارية رئيسية سوى المصرية وLBC وفلسطين، وتابعت الكثير من النقاشات والندوات والتحليلات وأقوال الصحف من خلال التلفزيون، وكسر هذا قليلاً من العزلة وجعلني أقرب إلى مسرح الأحداث ولو نظرياً. كما تابعت البرامج المميزة لعدد من القنوات مثل أبو ظبي التي كانت تقدم تقارير إخبارية مميزة وأفلاماً أجنبية حديثة وناجحة، وبعض الحلقات الثقافية والمقابلات والحوارات مع شخصيات فكرية عربية.

أما الفضائية المصرية فكانت ممتعة في شهر رمضان على نحو خاص بطبيعة السهرات والمقابلات والحوارات ونقل الأجواء الرمضانية الجميلة في مصر، والتي حظيت بفرصة التعرف على أجوائها لتصادف وجودي في مصر أكثر من مرة مع قدوم شهر رمضان، وشعرت بجو خاص يعيشه المصريون في هذا الشهر الفضيل ويحتفلون به ويعيشونه تماماً؛ الأمر الذي أسعدني جداً، إضافة إلى أن برامج الصباح المصرية كانت شيقة وغنية بالأخبار والتحليلات واللقاءات مع شخصيات سياسية وفكرية معروفة إضافة إلى قراءة عناوين الصحف وبعض الحفلات اللافتة.

www.ibtesama.com

أما تلفزيون فلسطين الذي يُفترض أن يكون القناة الأكثر حيوية وقوة وتأثيراً فقد ظلت قناته رسمية تقليدية، واتسمت بالأداء البطيء والعجز والقصور في مواكبة الأحداث. وبغض النظر عن الإمكانات المحدودة، فإن هذا التلفزيون في إمكانه تقديم الأفضل حيث يعجز المرء عن تفسير سبب هذا العجز الذي اتسمت به هذه القناة طوال السنوات الماضية منذ نشأتها عام 1994، علماً أن الكفاءات الفلسطينية الإعلامية والصحفية منتشرة في الكثير من وسائل الإعلام المرموقة عربياً ودولياً، كما أن أداء العديد من المحطات المحلية الفلسطينية الإذاعية والتلفزيونية يتفوق على أداء تلفزيون فلسطين. والمتابع لهذه القناة يشعر بكثير من الحزن والأسى على الأداء العاجز والقاصر. فمهمة التلفزيون هي تعزيز الحياة الديمقراطية، وتشجيع قيم الحوار والرأي الآخر، وإفساح المجال لكل الآراء، وتشجيع الحياة الديمقراطية البرلمانية. ومع الأسف، فإن إسهام هذه القناة في ذلك كان محدوداً إن لم يكن سلبياً، كما عجزت عن نقل الصورة الحقيقية الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية للمجتمع الفلسطيني، كما أن التغطية ظلت قاصرة ولا تتجاوز غزة ورام الله، ومن المؤسف أنها لم تستقطب الخبرات الفلسطينية. وبطبيعة الحال لا يعني هذا أننا نقلل من إنجازات هذه القناة وتضحيات الأوفياء العاملين فيها والمخلصين وهم كثيرون، وإنما هذا النقد موجه إلى الإدارة السياسية والإدارة العامة وليس للعاملين الذين قد لا تسمح الظروف لغالبيتهم بتفعيل طاقاتهم وإمكانياتهم.

أما قناة LBC اللبنانية فقد كانت لفترة طويلة القناة الوحيدة التي نسمع من خلالها نشرة الأخبار في زنازين عزل بئر السبع، حيث كانت تحرص على متابعة التطورات في فلسطين وتهتم بالخبر الفلسطيني، إلى أن احتل الخبر العراقي وبعض الأحداث في السعودية الاهتمام، ولكن

www.ibtesama.com

هذا لم يلغِ بأي حال الحضور الفلسطيني في تلك المحطة؛ وإن تراجع كثيراً. وتابعت باهتمام برنامج «الحدث» الذي يبث يوم الأحد، كما أن البرنامج الصباحي «نهاركم سعيد» كان لافتا، وكنت أضحك أحياناً عندما يبدأ نهاري في الزنزانة بينما يفتتح المذيع أو المذيعة البرنامج بجملة نهاركم سعيد. ومن أهم ما في هذا البرنامج عناوين الصحف اللبنانية وهي كثيرة ومتعددة الاتجاهات والألوان السياسية والفكرية، وتتسم بكثير من مساحة الحرية في التعبير، كما أنني تعرفت إلى الكثير من رواد هذا البرنامج الذي كان يشهد حوارات ساخنة جداً يجريها إعلاميون متألقون بغض النظر عن توجهاتهم السياسية، وكنت أشعر بكثير من السرور لحيوية الشعب اللبناني، ولهذه التعددية والقدرة على تجاوز الآلام وجراحات الماضي المريرة والقاسية، وكنت وما زلت أتمنى من العرب الحرص على هذا البلد الجميل، وأن يساعدوه ويحرسوه ولا يتدخلوا في شؤونه بشكل سلبي، مثلما أتمنى أن يبقى لبنان إحدى المنارات الحرة في هذا العالم العربي. فهو بلد الإبداع، وينبعث منه الكثير من الإنتاج الفكري والأدبي والسياسي والفني المفيد. كنت أراقب التحولات في هذا البلد الذي يحظى بخصوصية لدى الفلسطينيين الذين جمعهم تاريخ مشترك مع الشعب اللبناني بحلوه ومره، وشكّل نجاح لبنان في معركتين مهمتين وبارزتين إنجازاً تاريخياً عظيماً: الأول، التحرير الذي أنجزته المقاومة والشعب اللبناني بقيادة حزب الله الذي قدم نموذجاً مهماً ولافتاً في المقاومة والمسؤولية تجاه الآخرين. والثاني، معركة الإعمار التي أعادت بناء لبنان والتي صنعها الشعب اللبناني وقادها إلى حدٍّ كبير الراحل الشهيد رفيق الحريري. كما أن طي صفحة الحرب الأهلية القذرة وتعزيز التفاهم ولغة العيش المشترك يشكلان إنجازاً يستحق التفاخر به. ورغم ذلك فإن غصة في القلب تعتمل لدي بسبب الظلم الذي مارسته الدولة اللبنانية

www.ibtesama.com

تجاه اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في لبنان منذ ستة عقود في ظروف أمنية وسياسية واقتصادية ومعيشية وتعليمية غاية في البؤس والسوء، إلى درجة أن الفلسطينيين محرومون من مزاولة أكثر من ثمانين مهنة، ومن تملك شقة، أو الدراسة في الجامعات، أو فتح العيادات ومزاولة الأعمال الحرة. إنهم خارج النسيج اللبناني تماما. وهم مسجونون ومحصورون في مخيمات بائسة، وأوضاعهم شديدة الصعوبة والتعقيد، ويعرف أشقاؤنا في لبنان أن الفلسطينيين الأشد تمسكا بحق العودة هم اللاجئون في لبنان الذين دفعوا ثمنا غالياً وتضحيات جسيمة في الثورة والنضال ومسيرة التحرر الفلسطينية. وحان الوقت للبنانيين لكي يرفعوا الظلم عن الفلسطينيين في لبنان، ويمنحوهم الحقوق المدنية والإنسانية. إن معاناتهم لن تطول إن شاء الله، وسيكونون في طليعة العائدين إلى فلسطين قريبا.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الدور الذي تلعبه الإذاعات المحلية الفلسطينية التي يصل بث جزء كبير منها إلى السجون، حيث استفاد الأسرى من تغطيتها للأخبار المحلية، ومن البرامج التي خصصتها لهم ولذويهم على مدار الأسبوع ولساعات طويلة. وأصبحت تلك المحطات وسيلة هامة للتواصل والاطمئنان بين الأسرى والأهالي في ظل منع الزيارات عن المعتقلين. أما بالنسبة للزنزانة الانفرادية فلهذه المحطات أهمية خاصة، إذ إنها تمكن الأسير من متابعة الأخبار والتطورات والأحداث خاصة المحلية منها. تابعت عدداً من المحطات المحلية ومن أبرزها إذاعة الحرية التي تبث من مدينة الخليل التي منحت اهتماماً خاصا للأسرى، وخصصت لهم برامج أسبوعية، واستفدت من نشراتها وتغطيتها لتصريحات وأخبار أو بيانات تخصني. وأظهر طاقم الإذاعة تعاطفاً معي وتضامناً أثلجا صدري وقوى من عزيمتي، حيث إن للكلمة أثرها في الأسير الذي يعيش في عزلة تامة، ويدرك مدى وفاء شعبنا

www.ibtesama.com

العظيم لأبنائه ومناضليه. كما تمكنت من متابعة إذاعتي الحرية وصوت الشباب اللتين تبثان من غزة، وإذاعات نغم في قلقيلية، وصوت الخليل ومرح وأنغام وأمواج وأجيال التي تقدم نشرات إخبارية على مدار الساعة تمكّن الأسير من المتابعة المميزة للأحداث الفلسطينية، وإذاعة صوت النجاح التابعة لجامعة النجاح الوطنية في نابلس التي تقدم تغطية شاملة ومميزة للأحداث والتطورات المحلية.

كانت متابعة محطات الإذاعة والتلفزيون وقراءة الصحف تساعداني على متابعة الأحداث بشيء كبير من الدقة، ومعايشتها أولا بأول، وتركزت متابعتي على تطورات الانتفاضة ومجرياتها، والعدوان الصهيوني الوحشي المتواصل منذ اليوم الأول لانطلاق الانتفاضة. وكان هدوء الزنزانة يجعلني أكثر قدرة على قراءة التطورات ورؤية الأحداث ومعرفة ما يدور في دولة الاحتلال من خلال المتابعة التفصيلية للإعلام الصهيوني المرئي والمسموع والمقروء على مدار الساعة.

كانت الجرائم الصهيونية لا تتوقف، وتزداد شراسة يوماً بعد يوم، بهدف كسر إرادة المقاومة بعد أن انهارت كل المحاولات للوصول إلى سلام يحفظ الحد الأدنى من حقوقنا. وقد تابعت عملية غسل الدماغ والكذب والتزوير الذي تمارسه القيادات الصهيونية السياسية والأمنية على شعبها لضمان تأييده لنهج العدوان وتغطية جرائمها البشعة. والحقيقة أن الغالبية الساحقة من الإسرائيليين أيدت العدوان، ووقفت خلف شارون وموفاز. وأكدت الأحداث وما قبلها من تجربة عشر سنوات من التفاوض أن المجتمع الصهيوني لم يتهيأ للسلام الحقيقي بشروط الحد الأدنى، وأن الإسرائيليين لا يريدون سلاماً بل أرضاً وأمناً واستعباداً للفلسطينيين، وأن الدولة التي يتحدثون عنها ليست أكثر من حكم ذاتي تحت الاحتلال.

www.ibtesama.com

كنت أتابع الجرائم الصهيونية وأنا أعتصر ألماً لمعاناة شعبنا. ولم يكن شيء يؤلمني أكثر من هذه المعاناة، كالحصار الاقتصادي والعسكري الشديد، وحرب التجويع، وتقطيع أوصال الوطن الواحد وتمزيقه، ونشر مئات حواجز الذل والقهر والتعذيب، وممارسة أبشع أنواع التفتيش بهدف الإذلال، ومواصلة سياسة الاعتقالات على نطاق غير مسبوق وبشكل يستنزف شعبنا، فضلاً عن الاستمرار في تهويد القدس، وبناء المستوطنات، وإغلاق المؤسسات الوطنية، ومصادرة الأراضي، وتتويج ذلك كله بجدار الفصل العنصري، وسياسة الاغتيالات التي طالت المئات من الكوادر والقادة. لكن، في الوقت نفسه كان يشد من أزري، ويعزز من صمودي، ويبعث في نفسي القوة والعزيمة استمرارُ الانتفاضة وعمليات المقاومة، التي كانت تؤكد فشل السياسة الصهيونية، وتثبت أن الانتفاضة والمقاومة هما حركة الشعب الفلسطيني للحرية والاستقلال، وأنهما ليستا من فعل جماعة أو قيادة أو فصيل أو سلطة، وإنما من صنع الشعب الفلسطيني العظيم؛ من صنع صغاره وكباره، ومواطنين وسياسيين، وعمال وفلاحين، وطلبة وشبيبة، ونساء ورجال، مخيمات وقرى ومدن، ويشارك في هذه الانتفاضة أيضاً كلُّ مثقف ومتعلم وصحفي وكاتب، إنها انتفاضة الناس، انتفاضة الشعب صاحب الإرادة والوطنية. كنت مع سقوط كل شهيد أقرأ الفاتحة، وأحياناً أصلي لروحه بعض الركعات، يهمني أن تنتهي معاناة شعبنا بهذا الشكل أو ذلك، ولكن بشرط أن يحقق أهدافه الوطنية.

كانت لدي قناعة وإيمان بقدرة شعبنا على الصمود وتحقيق الاستقلال الوطني. ولم تتزعزع هذه القناعة والإيمان للحظة واحدة في حياتي. وكانت سنوات العزلة تزيد لدي هذه القناعة، بأن شعبنا اتخذ قراراً تاريخياً غير قابل للتراجع بإنهاء عبودية الاحتلال والانعتاق ونيل الحرية والعودة والاستقلال، كنت وما زلت مؤمنا أن إسرائيل يمكن أن تهزم

www.ibtesama.com

جيشاً نظامياً أو دولة ما في المنطقة، ويمكن أن تحقق النصر على فصيل أو قائد أو مجموعة ما، ولكنها لا تستطيع مهما كانت قوتها أن تقهر أو تهزم إرادة شعب عظيم مصمم على المقاومة، وأثبت الشعب الفلسطيني الصابر والصامد والمرابط قدرته التي فاجأت قادة تل أبيب، هذا الشعب الـذي يقاتـل ويصمـد منـذ أكثـر مـن مئـة عام من الزمن، ولـم ينحنِ أمام الاحتلال والعدوان والإرهاب والقتل والدمار والاغتيال والجوع والحصار والاعتقال، وظل قادة إسرائيل على ذهولهم من صلابة هذا الشعب وقوة إيمانه بحقوقه الوطنية المشروعة.

كان شـريط طويـل مـن التضحيـات التـي قدمهـا شـعبنا يـدور فـي رأسـي وأنـا فـي زنزانتـي أفكـر بمـا حل بشـعبنا من نكبة ونكسـة وضياع للوطـن وحملـة تشـريد وتهجيـر غيـر مسـبوقة. رغـم هذه المعانـاة التي تتوارثهـا الأجيـال خـلال قـرن مـن الزمـن أحاول دومـا أن أرى بوضوح نقـاط القـوة والضعـف عنـد العـدو بكل أبعادها، ونقـاط القوة والضعف عند شعبنا وحركته الوطنية وقيادته، وأحاول أن أضع يدي على مواطن الضعف والخلل التي تسـود في حالتنا لأن شـعباً عظيماً بهذا القدر من العطـاء والتضحيـة والصمـود يجـب أن يحصـل علـى نتائج أفضل وأكبر لتضحياتـه ونضالـه، كمـا أنـه يسـتحق أن يصنع قراره، وأن يقوده من هم بعلـو هامتـه وعنفوانـه وصلابتـه، ويسـتحق أن يحظـى بقيـادة تتمكن من تحقيـق أهدافـه الوطنيـة بأقصـر الطرائـق وأقل التضحيـات وبمعاناة أقل، كنت أفكر في آفة الفرقة والنزاع والخلاف الذي تشق الساحة الفلسطينية وتنعكس على الحركة الوطنية وعلى ضرورة صياغة استراتيجية فلسطينية واحدة موحدة، وعلى ضرورة توحيد الإطار القيادي، وتوحيد الأدوات والوسـائل والأسـاليب النضالية، وكل ذلك على قاعدة أن هذه الأرض هي أرض الآباء والأجداد، وأن حقنا التاريخي فيها باقٍ إلى الأبد ولن

www.ibtesama.com

تمحـوه محـاولات التزويـر، ومـن حـق شـعبنا أن ينعم بالحريـة والعودة والاسـتقلال والسـلام في أرضه، وأن يقيم دولته الوطنية المسـتقلة كاملة السـيادة وعاصمتهـا القـدس الشـريف، وأن يمـارس حقـه في العودة إلى أرضه التي شرد منها.

من الضرورة أن يجتمع شـعبنا على قاعدة سياسـية واضحة تؤكد على التمسـك بخيار المقاومة إلى جانب العمل السياسـي والدبلوماسـي والتفاوضي، وأنه لا تعارض في ذلك، ولكن بوعي كامل. إن إسقاط خيار المقاومة هو إسقاط لخيار الحرية والعودة والاستقلال، فهذا العدو المحتل والمتغطـرس لا يمكـن أن يرحـل احتلالـه إلا بعـد أن يتحـول الاحتـلال إلى عبء ثقيل عليه بخسائر مادية وبشرية واقتصادية وسياسية وإعلامية وعسكرية وأخلاقية، إن مهمة الانتفاضة والمقاومة هي تحويل الاحتلال إلـى مشـروع خاسـر لـدى أصحابـه المجرمين، كانت هـذه الأفكار تدور في ذهني وأنا أتابع كل صغيرة وكبيرة، وتزداد قناعتي بقدرة شعبنا على إنجاز حقوقه الوطنية وطرد الاحتلال.

الهاتف المحمول

فـي منتصـف التسـعينيات، ومـع انتشـار ظاهـرة الهاتـف النقال بدأ بعض الأسرى التفكير بتهريب بعض أجهزة الهواتف النقّالة إلى السجن، وخاصـة أن الهاتـف المحمـول يكسـر عزلتهـم عن العالم الخارجي، ولا سـيما أن بعضهم يقضي عشـرات السـنين في السـجون، وأن الكثير منهم لـم يحـظَ برؤيـة قريـب أو الاتصـال بصديـق أو أخ أو أخـت، خاصة أن الزيـارات العائليـة تقتصـر فـي أغلـب الأحيـان على الأقربـاء من الدرجة الأولى. ويشـاهد الأسـرى الفلسـطينيون التسـهيلات التي تقدمها إدارة السـجون للمعتقلين الجنائيين حيث توفر لهم أجهزة هواتف يسـتطيعون

www.ibtesama.com

مـن خلالهـا الاتصـال بمـن يريـدون. وشـكل الحصـول علـى الهاتـف المحمول داخل السجن هاجساً للأسرى بعد أن سمعوا عنه، خاصة للأسرى المحرومين من الزيارات العائلية، ولا سيما الأسرى العرب وأسرى الدوريات. فبعض هؤلاء قضى أكثر من ربع قرن من دون أن يحظى بزيارة لأمه وأبيه وأهله مثل الاخوة المناضلين سمير القنطار، وعبد الكريم عبيد، ومصطفى الديراني، وأنور ياسين، وسلطان العجلوني، ومئات غيرهم، وما هذا الواقع سوى دليل إضافي على هذه المعاناة التي تفوق مقدرة الكائن البشري والإنساني على التحمّل. وكان أول من فكر وخطط لحيازة هذه الأجهزة هم الإخوة العرب، وخاصة معتقلي حزب الله في سجني نفحة وعسقلان.

وسرعان ما حققوا ما حلموا به، وتمكنوا من تهريب الأجهزة. ولكن ذلك بقي على نطاق محدود، وتوسع الأمر قليلاً في العام 2000 بعد السطو الصهيوني المسلح على الضفة الغربية واعتقال الآلاف، وقد أبدع الأسرى وخاصة الجدد منهم في تهريب هذه الأجهزة إلى درجة وصلت أعدادها إلى المئات، وربما في مرحلة لاحقة إلى الآلاف. وشكل دخول المحمول على هذا النطاق الواسع فرصة هامة للأسرى للتواصل مع الأهل والأقارب والأصدقاء ورفاق الدرب، وكان الحصول عليه حلماً هاماً حققه الأسرى القدامى، وقد أعادوا صلاتهم المقطوعة منذ زمن طويل مع الأهل والأصدقاء والمجتمع، وتمكنوا من متابعة المتغيرات الاجتماعية والأسرية والسياسية والتنظيمية بصورة أدق، وإن كان الاهتمام الرئيس لاستخدامه لدى غالبية الأسرى قد انصب على الأهل والأسرة بالدرجة الأولى.

إن ما ادعته حكومة الاحتلال وسلطات السجون و«الشاباك» من أن الأسرى يستغلون هذه الأجهزة لأغراض المقاومة، ويقومون بالتحريض

www.ibtesama.com

على العمل المسلح، وأنهم ينظمون الخلايا عبر الهاتف، وأنهم مسؤولون عن العديد من العمليات الاستشهادية غيرُ دقيق، وفيه مبالغة شديدة لتبرير حملة القمع الشديدة والملاحقة التي شنتها سلطات الاحتلال من أجل وضع حدٍّ نهائي لهذه الظاهرة، عامدة إلى تحويل حياة الأسرى إلى جحيم حتى يتخلص الأسرى بأنفسهم من هذه الأجهزة التي دفعوا ثمناً غالياً بسبب وجودها لديهم، حيث صادرت سلطات الاحتلال الكثير من حقوق الأسرى وقلصتها إلى حدود كبيرة جداً، وهي مكتسبات كانوا قد أنجزوها خلال عقود من النضال والكفاح، وتعمدت سلطات السجون ذلك بهدف ردع الأسرى ليتوقفوا عن تهريب هذه الأجهزة، وبالتأكيد إن حرمان الأسرى من الاتصال بالأهالي، ومن الزيارات العائلية يجعل حياتهم صعبة ومريرة، فلا أقسى من أن يعيش الإنسان في عالم المجهول لا يعلم شيئاً عن مصير أهله. وقد خاض الأسرى العديد من الإضرابات، وكان أحد مطالبهم منحهم حق الاتصال التلفوني مع الأهل، ولكن السلطات رفضت ذلك على مدار العقود الأربعة الماضية، واستخدم الأسرى وسائل وأساليب شتى لا حصر لها لتهريب أجهزة الهاتف المحمول وإدخالها، وحققوا الكثير رغم القيود والتفتيش والملاحقة والعقوبات، وأبدعوا في تهريب الأجهزة بوسائل لا تخطر على بال أحد.

في شهر أيار 2003 داهم السجّانون وشرطة التفتيش زنزانتي. وبعد تفتيش بسيط وجدوا بحوزتي هاتفاً محمولاً، وبدا عليهم هول الصدمة حيث إن الزنزانة التي أعيش فيها من أكثر الزنازين حراسة ومراقبة ولم يسمح لي بأي زيارة عائلية ولم أرَ أحداً فمن أين وصل الجهاز؟؟؟ كانت إدارة السجون و«الشاباك» في حالة من الصدمة، فقد تم عزلي بادعاء أنني أشكل خطراً على دولة الاحتلال، وأن وجودي بين الأسرى سيمكنني من العمل، ومن الاتصال بمجموعة خلايا فدائية خارج السجن،

www.ibtesama.com

وأنه يلحق ضرراً بالغاً بالأمن الصهيوني، وأنني سأقوم بتشغيل الأسرى لإلحاق الضرر بدولة الاحتلال، والحقيقة أن إدارة السجون و«الشاباك» لـم تجـدا أي تفسـير لوجـود الجهـاز المحمول بحوزتـي ولم تتمكنا من معرفـة كيـف وصـل إلـى الزنزانـة. والجدير بالذكـر أن الأخوين محمود عيسى وهاني جابر قد شاركاني استخدام هذا الجهاز.

شعرت أنني حققت نصراً جديداً على «الشاباك» ومصلحة السجون بحيازة الجهاز في زنزانتي الانفرادية. وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة في تاريخ زنازين العزل الانفرادي التي يتمكن فيها أحد من تهريب هذا الجهاز الذي أسهم في فك عزلتي القاسية ولو قليلاً لأنني حرصت على اسـتخدامه للاتصـال مـع شـخص واحـد لا ينفضـح أمـره، ومن الصعب الحديث في التفاصيل الآن لأسباب مفهومة.

عندما حققوا معي حول الجهاز أبلغتهم أن هذه لعبة من الشرطة في السجن، وأنهم الذين وضعوه ولا علم لي به أبدا!!! ومن الغريب أن خبر اكتشـاف الجهاز بحوزتي كان العنوان الرئيسـي على الصفحة الأولى مع صورة كبيرة لي في صحيفة «يديعوت أحرانوت» وهي الصحيفة الأولى في إسرائيل. وبدا الأمر وكأنهم اكتشفوا في زنزانتي أسلحة دمار شامل!!

الهدنة

كان التواصل مع الخارج والعمل من داخل الزنزانة مهمتين صعبتين وشبه مستحيلتين. ولكن، كان لدي إصرار على مواصلة العمل النضالي والإسهام بأي طريقة ممكنة في تعزيز الانتفاضة والمقاومة الباسلة وتقوية الوحدة الوطنية التي آمنت دوماً أنها السـياج الذي يحمي نضال شـعبنا ومقاومته وتعزيزها، متطلعاً دوماً للعمل على تخفيف معاناة شعبنا إيمانا مني أن تخفيف المعاناة سـيعزز من صمود وصلابة شـعبنا في مواجهة

www.ibtesama.com

الاحتـلال. ومنـذ انطلاقـة الانتفاضـة، وفـي أكثر من محطـة قبل اعتقالي دعمت مبادرات وقف إطلاق النار المؤقت «استراحة محارب» وذلك لعدم الاصطدام مع القيادة السياسية وتمزيق الوضع الداخلي من جهة، وبهدف كسب المزيد من الوقت وبعض الراحة لبناء ما ضربه الاحتلال في بنية المقاومة وتشكيلاتها المختلفة وتقويته من جهة أخرى، وكنت على قناعة تامة أن العدو المتغطرس لن يمنح أي فرصة ولو مؤقتة لوقف العـدوان، إضافـة إلـى أنني كنـت وما زلت على قناعة بأن الوقف الدائم لإطلاق النار يتحقق عندما يرحل المحتلون الصهاينة عن أرضنا، وتتاح لنا الفرصة لإقامة دولتنا المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

كانت أول مرة يعلن فيها الرئيس الراحل ياسـر عرفات عن وقف لإطـلاق النـار فـي أعقـاب عمليـة «الدولفيناريـوم» فـي تل أبيـب بتاريخ 2001/6/10 لكـن دولـة الاحتـلال لـم تستجب لذلـك مطلقاً، وواصلت عدوانهـا، وسـبق ذلـك الإعـلان فـي الشـهر الأول مـن الانتفاضـة فـي 17/ 10/ 2000 بعد اتفاق شـرم الشـيخ عن وقف لما سـمي العنف، ولم تلتزم إسرائيل بأي بند في ذلك الاتفاق البائس والهش أصلا.

كان أبـرز إعـلان فلسـطيني عـن وقـف إطـلاق النـار قـد صـدر فـي 19/ 12/ 2001 عشـية زيـارة المبعـوث الأميركـي ممثـلا للرئيس الأميركي الجنـرال أنطونـي زينـي. تحدثـت مطـولا آنذاك مع قيـادة حماس والجهاد الإسـلامي بمـا فـي ذلـك مـع كل مـن الأخ خالـد مشـعل رئيـس المكتب السياسـي لحركـة حمـاس، والأخ رمضـان شـلّح الأميـن العـام لحركـة الجهاد الإسلامي، عوضا عن قيادات الحركتين في الأراضي الفلسطينية، وأوضحت لهم أهمية الأمر بالنسبة للرئيس عرفات وحيويته وضرورة منح فرصة للجهد الدولي لوقف العدوان ولمساعدة الرئيس عرفات، وللمحافظة على وحدة الموقف الفلسطيني ووحدة قوى الانتفاضة والمقاومة.

www.ibtesama.com

وأكدت مجدداً أننا سنوظف أي استراحة ولو جزئية لتعزيز وتقوية الانتفاضة والمقاومة، وأن قرارنا الاستراتيجي هو الاستمرار في طريق المقاومة والانتفاضة، وهو خيار غير قابل للمساومة ولن نقبل بأي مبادرة أو مشروع أو اتفاق لا يقود إلى نهاية الاحتلال في إطار جدول زمني واضح وضمانات أكيدة. والحقيقة أن قيادتي حماس والجهاد والقوى كافة قد استجابت لهذه المبادرة وتم الإعلان في 19/ 12/ 2001 عن هدنة ووقف لإطلاق النار، وعقدت شخصياً مؤتمراً صحفياً أعلنت فيه أننا نريد إعطاء فرصة للجهد العربي والدولي لوقف العدوان، وأننا سنرد على أي عدوان أو عملية اقتحام أو اغتيال إسرائيلية.

تم تعميم هذا الموقف مبدئياً، وقمت بالاتصال بجميع قادة المناطق في كتائب شهداء الأقصى والتنظيم وطلبت منهم الالتزام بالقرار الوطني الجماعي بوقف إطلاق النار، وكانت حالة الإرباك واضحة لدى حكومة الاحتلال وأجهزتها نتيجة نجاح هذا القرار وهذه المبادرة، وتجلى لهم بوضوح أن الانتفاضة والمقاومة تسيران بشكل منظم ولهما مرجعية وطنية سياسية تستطيع اتخاذ أي قرار في أي وقت تراه مناسباً وتوافق عليه، والحقيقة أن الالتزام كان مدهشاً وأكثر من المتوقع، واستمر حتى يوم 14/ 01/ 2002حيث قامت حكومة الاحتلال باغتيال القائد الشهيد البطل رائد الكرمي، أحد أبرز مؤسسي وقادة كتائب شهداء الأقصى في فلسطين، والقائد الأول في محافظة طولكرم، وجاءت عملية الاغتيال بعد فشل أكثر من محاولة اغتيال سابقة كان آخرها في آب 2001 حيث أطلقت مروحيات الاحتلال صاروخين على سيارة كانت تقله، ولكنه نجا منها بأعجوبة رغم إصابته وفقدانه إحدى عينيه تقريباً، حيث عملت على علاجه ونقله سراً إلى نابلس. وأرسلت له طبيباً أجنبياً للإشراف على العلاج، وأجريت له علمية جراحية تكللت بالنجاح، وعاد إلى طولكرم

www.ibtesama.com

رغم الحواجز والمطاردة، وتحول الشهيد بعد اغتياله إلى رمز للكتائب علـى مسـتوى فلسـطين، وتمكنـت مجموعات الكتائـب في طولكرم من تنفيذ سلسلة من العلميات الفدائية الجريئة والبطولية ضد قوات الاحتلال والمستوطنين، وقتل وجرح العشرات منهم، وأصبح الكرمي اسماً مؤرقاً لجهـاز «الشـاباك»، ورغـم بعـض الجـدل حـول اغتيالـه إلا أن الحكومة الصهيونية اتخذت القرار ولم تتوقع ردود فعل قوية على جريمة الاغتيال التي أنهت الهدنة الأكثر جدية منذ اندلاع الانتفاضة قبل خمسـة عشـر شهراً من تاريخ الاغتيال، وقد لعب الشهيد القائد دوراً بارزا في إنجاح هـذه الهدنـة، لكـن هـذا الالتـزام لم يمنع العدو من تنفيذ عملية الاغتيال الجبانة بواسطة عبوة ناسفة احتوت كمية كبيرة من المتفجرات وضعت على طريق بيته.

على أثر عملية الاغتيال انهارت الهدنة، وقامت الكتائب بسلسـلة مـن العمليـات هـي الأقـوى منـذ انـدلاع الانتفاضـة رداً على اغتيال أحد أبرز مؤسسـيها وقادتها وفرسـانها، وأدى الرد السـريع والواسـع إلى حالة مـن الذهـول فـي صفـوف دولـة الاحتلال وحكومتهـا وأجهزتها الأمنية، وأثار الكثير من الدهشة لدى الكثيرين، واعترف لاحقاً العديد من قادة الاحتلال بارتكاب خطأ جسيم وغير محسوب باغتيال الكرمي وأن أحداً مـن الأجهـزة لـم يقـدّر أن يكـون الـرد على هذا النحو من القوة والعنف والشجاعة.

فـي أعقـاب الحـرب علـى العـراق فـي آذار 2003، طرحت اللجنة الرباعية الدولية مبادرة لحل الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين تمثلت بخطة «خارطة الطريق»، واشترطت الرباعية بضغط من الرئيس الأميركي جـورج بـوش عـدم التعاطـي مع الرئيس الفلسـطيني ياسـر عرفات الذي اعتبرته إسرائيل وأميركا منذ الشهور الأولى للانتفاضة «غير ذي صفة»،

www.ibtesama.com

وبدأ الحديث عن تعيين قيادة بديلة ترفض الانتفاضة والمقاومة، وبسبب العجز الأميركي والصهيوني عن الإطاحة بياسر عرفات فقد تم الاتفاق على مخرج يتمثل باستحداث منصب رئيس الوزراء للسلطة الفلسطينية، يشكل عنوانا للرباعية الدولية والمجتمع الدولي، ويأخذ جزءا هاماً من صلاحيات رئيس السلطة. وبعد جدال طويل اتخذ الرئيس عرفات قراراً بالموافقة على تعيين رئيس للوزراء، واختار للمنصب السيد محمود عباس «أبو مازن» أحد رفاقه منذ أربعة عقود وأحد قادة حركة فتح وم.ت.ف. لعب دوراً أساسياً في اتفاق أوسلو، واتخذ موقفاً سلبياً من الانتفاضة الثانية رافضاً المقاومة المسلحة.

لاقى تعيينه موافقة المجلس التشريعي وترحيباً دولياً واسعا، في جزء كبير منه مناكفة لياسر عرفات وليس حباً بأبي مازن. وكان الهدف من التعيين البدء بتنفيذ خطة خارطة الطريق الدولية كما زعموا. وبدأت حوارات فلسطينية داخلية للتوصل إلى هدنة ليتمكن أبو مازن وحكومته من العمل، وعلى الرغم من ترحيب حكومة الاحتلال وإشادتها برئيس الحكومة الجديد أبي مازن، إلا أن هذا كان شكلياً فقط وبهدف واحد ووحيد؛ ألا وهو إضعاف ياسر عرفات. ومن البداية كان واضحاً أن حكومة العدو لن تقدم شيئاً لأبي مازن وأنها تناور فقط.

إسهاماً مني في الحوار الداخلي، وبسبب العلاقة التي تواصلت حتى من داخل الزنزانة مع قادة الفصائل الفلسطينية ومع الرئيس عرفات وأبي مازن فقد قررت التدخل لإنجاح مبادرة الهدنة مرة أخرى لقناعتي أن ذلك سيجنب الساحة الفلسطينية مخاطر الفرقة والانقسام وربما أكثر من ذلك، ومن أجل تخفيف المعاناة عن شعبنا ما أمكن؛ حتى لو كان لوقت قصير ومحدود، ولإعطاء فرصة لقوى المقاومة لترميم أوضاعها بسبب الاستنزاف الشديد الذي تتعرض له من جراء العدوان

www.ibtesama.com

الصهيوني الواسع والإجرامي على مدار الساعة منذ سنوات، وأرسلت اثنين من الإخوة من قيادات حركة فتح إلى دمشق وهما أحمد غنيم وقدورة فارس ومعهما المحامي خضر شقيرات الذي كان يتواصل معي منذ بداية اعتقالي. التقى الوفد مع قيادة حماس والجهاد ودار حوار طويل ومفصّل حول الوضع الفلسطيني، وحملوا رسالة شاملة للأخوين خالد مشعل ورمضان شلح وتم التنسيق مع أبي مازن والرئيس عرفات الذي لم يكن متشجعا للأمر لأسباب معروفة، وبعد تبادل عدد من الرسائل والتوضيحات فقد تم التوصل إلى بيان مشترك تقرر الإعلان عنه وتوقيعه باسمي إلى جانب خالد مشعل ورمضان شلح، وشكّل ذلك مفاجأة لكثير من قيادات الفصائل التي كانت تتحاور في غزة ورام الله من دون الوصول إلى نتائج. وسرعان ما تم الإجماع على هذا الاتفاق والالتزام به، رغم أن بعض القيادات الفلسطينية عبّرت عن امتعاضها من الوصول إلى اتفاق بهذا الحجم والأهمية من دون علمها أو مشاركتها أو الأخذ برأيها، واعتبرت أن هذا الاتفاق يضعف القيادة الرسمية ويؤشر على ولادة قيادة جديدة يمثّل رمزها الموقّعون على الاتفاق.

لقي الاتفاق ترحيباً شعبياً كبيراً جداً بما في ذلك لدى تشكيلات المقاومة المسلحة. أما حكومة الاحتلال فقد قررت محاربة هذه الهدنة وإفشالها، واعتبرت أن من قرر هذه الهدنة هم «رموز الإرهاب»، وأن هدفهم كسب الوقت وإعادة بناء الخلايا والمجموعات المسلحة، وقد جاءت الأحداث لتؤكد صحة هذا التحليل. حيث عمدت إسرائيل إلى نسف الهدنة، وواصلت عدوانها بالحصار والإغلاق والحواجز والاعتقالات الواسعة والاغتيالات ورفضت أي انسحاب من المدن وتحرير الأسرى، بل كالت المديح لأبي مازن وفي الوقت نفسه عملت

www.ibtesama.com

كل ما تستطيع لإفشاله وإضعافه ولم تقدّم له شيئا، وكانت سبباً رئيسياً في إفشاله.

والحقيقة أن الشعب الفلسطيني استبشر خيراً بتشكيل حكومة أبي مازن، وظن للوهلة الأولى أنها ستنجح في وقف العدوان وتخفيف معاناة الشعب الفلسطيني، بما في ذلك إنهاء الحصار والحواجز والاغتيالات والاعتقالات والإفراج عن الأسرى، واعتقد أن هذه الحكومة ستقوم بقيادة عملية إصلاح شاملة في السلطة الوطنية وأجهزتها. وعلى الرغم من النوايا الطيبة للحكومة، ومحاولتنا مساعدتها لما فيه مصلحة شعبنا، إلا أن هذه الحكومة لم تكن أمامها فرصة للنجاح في ظل سياسة عدوانية إسرائيلية أميركية، وفي ظل وضع عراقيل داخلية. وليس سرًّا أن الرئيس عرفات وضع العراقيل أمام نجاح هذه الحكومة وعمل على تقصير أيامها، وسقطت الحكومة بأسرع مما توقع الكثيرون بما في ذلك رئيس الحكومة نفسه السيد محمود عباس.

لقد أثبتت تلك الفترة أنه على الرغم من وجودي في العزل الانفرادي، ورغم الحصار المطلق المفروض علي، إلا أنني نجحت في القيام بدور مهم في ترتيب الهدنة والمساعدة على تجنب الفتنة الداخلية. وسبّب هذا الأمر صدمة لدى حكومة الاحتلال عندما سمعت من وسائل الإعلام عن دوري في الهدنة، فهي للوهلة الأولى لم تصدق ذلك بسبب عزلتي المطلقة التي كان يشدد عليها دوماً رئيس حكومة الاحتلال المجرم شارون. لقد عجز الاحتلال عن إنهاء دوري النضالي والسياسي والتنظيمي على الرغم من السجن والعزل، وأثبتت تلك الفترة أن إرادة الإنسان وإيمانه أقوى من القيود الحديدية والأسلاك الشائكة والأسوار العالية وعتمة الزنزانة. ومنحني هذا الأمر مزيداً من الثقة والعزيمة والقوة الصمود، وعزز لدي إرادة التحدي للمحتل والسجّان،

www.ibtesama.com

وأثلـج صـدري هـذا التعـاون الرائع الذي أبداه الإخوة في قيادة الفصائل والترحيـب الشـعبي والالتفـاف حـول الاتفاق، وقد سـاءني كثيراً موقف البعـض القليـل الـذي أعلـن «أنـه لا يجـوز أن يقرر لنا أحد من الزنزانة» قائلاً: «وماذا نفعل نحن هنا في القيادة؟؟».

كان الأولى لهذا البعض المريض أن يقدّر هذا الدور الذي يشكل تحدياً للمحتل، وليس تجاوزاً لأحد أو منافسة على موقع. وأحزنني كثيراً أن البعـض يحسـدني حتـى علـى الزنزانـة!!! ربمـا أراد البعض أن تكون الزنزانة هي نهاية المشـوار، وأن يتم إسـدال السـتار على دوري وصوتي وموقفـي الـذي أزعـج العجـزة والمتقاعسـين والانتهازييـن والفاسـدين والجبناء الذين كان وما زال دورهم سلبياً وعبئاً على الشعب الفلسطيني ونضاله وكفاحه المتواصل.

القلق الصحي

مـن الأمـور التـي تثيـر القلـق في نفس الأسـير منـذ اللحظة الأولى للتحقيـق الوضـع الصحـي، وخاصـة لمـن يعانـي مـن بعـض الأمـراض والمتاعب الصحية، حيث يخشى الأسير من تدهور صحته في ظل غياب الرعاية الصحية الحقيقية، وإن كانت هنالك فرصة لعرض الأسـير على طبيب عيادات التحقيق أو عيادات السجن لاحقا. وفي ظل نقص الطعام، وسـوء التغذية خلال التحقيق، ونقصان الوزن، وظهور بعض الأمراض أو المتاعب يزداد القلق لدى الأسير، ويحاول المحققون إرهاب الأسير وتخويفه من تدهور وضعه الصحي عموما. ومن المعروف أن الأسرى في السـجون يعانون بشـدة من نقص الفحوص الطبية والإشـراف الطبي المناسـب، وفـي فتـرات سـابقة لـم يكـن يتوفـر أصـلاً أي مسـتوى جيد من الرعاية الصحية. ولكن هذا الأمر تحسـن قليلاً في السـجون بفعل

www.ibtesama.com

المطالبات والإضرابات والنضال الذي خاضه الأسرى. ومع ذلك، لا يزال مئات الأسرى يعانون من غياب الرعاية، ومن تدهور حالتهم الصحية. وهنالك العشرات من الأسرى الذين استشهدوا بسبب الإهمال الطبي ونقص الرعاية خلال السنوات الماضية. وصحيح أنه يتاح للأسير مقابلة الطبيب مرة في الأسبوعين، ولكنه طبيب عام «يفتي» في كل الأمراض والأوجاع، ويقدم علاجاً وأدوية تكون في الغالب تقليدية من الأصناف التي تسكّن الألم مؤقتاً، ولا تزيد عن كونها مسكنات.

وبغياب الفحص الطبي لمعاينة المريض تتفاقم الأمراض في كثير من الحالات. فإذا احتاج الأسير إلى فحص فإن الأمر يقتضي مرور عدة أشهر وأحياناً سنة لإجراء تصوير أشعة أو فحص للدم أو تخطيط للقلب أو غير ذلك، وإذا احتاج المرء إلى عملية جراحية فإن عليه انتظار الدور وفق قائمة طويلة. وقد يستفحل المرض، أو يتوفى الأسير قبل أن تُجرى له عملية جراحية، وإن اختلف الأمر نسبياً من سجن إلى آخر.

في الزنزانة الانفرادية يكون القلق أكبر حيث الوحدة والعزلة المطلقة، في حين تستطيع الاستعانة في داخل السجن العادي بالإخوة والزملاء في الغرف والقسم، ويساعدك زملاؤك في استدعاء الممرض إذا ما ظهرت بوادر تعب أو تدهور خطير مع أنه يقدم دواء مسكّناً فقط، ولا يتواجد طبيب في ساعات الليل. بينما في العزل الانفرادي تشعر بقسوة المرض وبالحاجة للناس، فإذا شعرت بالتعب والألم فليس هناك من يستدعي لك الممرض أو يطرق الباب حتى يحضر الشرطي الذي بدوره قد يصل بعد ساعة، وبعد ذلك يقرر إذا كان بإمكانه دعوة الممرض أم لا، وحتى في حالة حضور الممرض فإن الدواء السحري المسموح له صرفه من دون الرجوع لطبيب هو دواء يدعى (أكامول) بغض النظر عن طبيعة المرض أو الألم أو مكانه، فهو يسأل من وراء الباب المغلق

www.ibtesama.com

ومن نافذته الصغيرة، ومهما قلت أو قدمت من أوصاف فإنه سيعطيك حبة الدواء نفسها (أكامول).

كان بعض الأسرى من باب السخرية ينادي الممرض ويقول له إن لديه ألم في (الجرابين) فيعطيه الممرض حبة الدواء نفسها التي طلبها زميله قبل دقائق. والحقيقة أنني أحمد الله لأنني لم أعانِ من المرض في أثناء التحقيق؛ على رغم معاناتي قبل الاعتقال من التهابات أو ديسك في الرقبة والظهر والجهة اليمنى كاملة في جسمي. وعلى الرغم من الشبح والقيود على مدار شهور فإنني لم أعانِ من آلام حقيقية أو جدية، واقتصرت المعاناة على الباسور الذي التهب كثيراً وكان مدمياً، وعلى بعض التقيحات بسبب الجلوس لفترة طويلة على كرسي التحقيق. أما في الزنزانة فقد مرت عليّ العديد من محطات الألم والأوجاع كان أبرزها في الشهور الأولى من العزل، كالضيق الشديد في التنفس إلى درجة كان يصعب معها النوم لبضع ساعات، حيث كنت أصحو شبه مخنوق في أحيان كثيرة. وقد تجاوزت هذه الحالة بالاستعانة ببعض الأدوية التي وصفتها بنفسي للطبيب، وأذكر أنني احتجت إلى فحص للدم آنذاك فجاء الطبيب وطلب مني مد يدي من نافذة صغيره للزنزانة ليأخذ الدم، لكن السجّان أصرَّ على تقييدي أولاً. وفي مره أخرى كنت أعاني من ألم شديد في الحنجرة رغم أنني لا أتحدث وأكاد لا أستخدم صوتي. ولكن ذلك كان من آثار الخطابات والكلمات التي لا تتوقف وبخاصة مع انطلاقه الانتفاضة واستخدامي للصوت العالي، وبدا أن الأوتار الصوتية تعاني من التعب والإرهاق، وقد ألحّ عليّ الكثير من الإخوة لإجراء فحص نظراً لخطورة الحالة حتى قبل الاعتقال، وقد طلبت ذلك في العزل الانفرادي وحظيت به بعد مرور ما يزيد عن ثلاثة عشر شهرا، واستغرق الفحص أقل من دقيقتين حيث أكد لي الطبيب

www.ibtesama.com

أنه ليس هناك ما يدعو للقلق إطلاقا.

أما بخصوص آلام الديسك في الرقبة والألم الشديد في اليد اليمنى من جرائه، فقد كنت أتحمله لبضعة أيام من دون علاج، وكذلك الساق اليمنى وآلام الظهر، مستعيناً ببعض المسكنات لعدة أيام، وبعض التمارين الرياضية الخفيفة. وأكثر من مرة شعرت بقسوة المرض خصوصاً عندما أصبت بحالة أنفلونزا مع ارتفاع بدرجة الحرارة وما يرافقها من صداع وعدم القدرة على تناول الطعام أو الحركة، والشعور بالبرد الشديد لدى نهوضي من تحت الأغطية من أجل قضاء الحاجة. هذا المرض يذكرني بحاجتي لأُمي وزوجتي وأولادي. فهنا ليس هناك أحد يواسيك ويخفف عنك الألم، وليس هناك من يحضر لك كوباً من الشاي أو حساءً أو طعاماً، وليس هناك من يمسح بيده على رأسك، أو يضع يده على جبينك ليقيس درجة حرارتك.

هنا في الزنزانة أجلس وحدي، وأحملق في هذه الجدران التي أحفظها عن ظهر قلب، وأحفظ كل حفرة فيها وماذا يخرج أو يدخل منها وإليها، أجلس وأنا لا أعرف كيف سيكون حالي بعد ساعات أو أيام واشعر في هذه اللحظات الصعبة باشتياقي الشديد لبيتي وأسرتي وحضن زوجتي ودفء أولادي وأهلي وأصدقائي. ومن دون شك فإن حالة العزل الثقيلة تجعل الإنسان يفكر إن كان هذا القبر سيتحول إلى قبر حقيقي. أن تموت في زنزانة أمر صعب ومرير، مع أنه والحمد لله لم ينتبني أي قلق بهذا الشأن، ولم أفكر فيه إلا لحظات عابرة، وكنت على ثقة وإيمان أنني سأجتاز هذا التحدي بنجاح وسلام، وكان وما زال كثير من الإخوة يستغربون تفاؤلي الدائم بالمستقبل رغم الظروف المستحيلة أحياناً، وتمتعي بمعنويات عالية وإيمان لا يتزعزع بالنصر والحرية.

أذكر أن رئيس مصلحة السجون آنذاك يعقوب جانوت ومساعديه

www.ibtesama.com

وضباط كبار من مصلحة السجون حضروا إلى زنزانتي في إطار جولاتهم التي يقومون بها دوماً في السجون وأقسام العزل، وأذكر أن ضابطاً منهم خاطب رئيسه قائلاً: «إن مروان البرغوثي ما زال يتصرف وكأنه في رام الله أو غزة وليس وراء القضبان، ويتحدث عن نهاية قريبة لما يسميه الاحتلال الصهيوني وهو في زنزانة انفرادية معزول عن العالم، ومن الواضح أن أمثال مروان البرغوثي لا يتغيرون أبداً». وفي زيارة أخرى قال جانوت وهو برتبة جنرال وقائد سابق لقوات حرس الحدود الصهيونية ورئيس قسم الهجرة في الشرطة، وفقد إحدى عينيه على ما يبدو في اشتباك مع مجموعه فدائية: «إنني أعجب كيف بقيت على قيد الحياة. كان يجب أن تموت، ومن المؤسف أنك لا تزال حيًّا».

التضامن وتردد الأصداء في الزنزانة

ذكرت سابقاً أن المحققين يحاولون بكل قوة إشعار المعتقل أنه في عالم المجهول، وأن أحداً لا يستطيع الوصول إليه، وأن بإمكانهم أن يفعلوا بالأسير ما يشاءون من دون أن يعلم أحد، وأن أحداً لا يسأل عنه، وأن أهله أو تنظيمه لم يرسلوا له محامياً رغم مرور أسابيع وأحياناً شهور على اعتقاله بينما يكونون هم الذين منعوا المحامي من الزيارة، وكل هذا يستهدف تحطيم معنويات الأسير لعل مشاعر الغضب والسخط تسيطر عليه وتدفعه للانكسار.

أما في العزل الانفرادي فلا يوجد تحقيق، والظروف أفضل من فترة التحقيق وأكثر استقراراً وراحة إلا أن لها صعوباتها الخاصة. وأحد أهداف العزل الانفرادي هو قطع صلات الأسير بالأهل والمجتمع والتنظيم والعالم الخارجي بشكل عام، وتحطيمه نفسياً وصحياً والتأثير على تفكيره وعقله خلال العزلة والوحدة، والحقيقة أن أي خبر طيب عن الأهل والأصدقاء يفرح الأسير ويشد من أزره. ومن تجربتي في

www.ibtesama.com

هـذا المجـال فإننـي وبـلا شـك أشـعر بالاعتزاز والتقديـر لكل من وقف بجانبي وتضامن معي، وأعتبر ذلك تضامناً مع الانتفاضة والمقاومة ووفاء لفلسطين وشعبها وقضيتها.

شـكل التضامـن الفلسـطيني الشـعبي الكامـل، والرسـمي الجزئي، والتضامن العربي والدولي الكبير من الأصدقاء ومحبي الحرية والسلام فـي العالـم قـوة معنويـة عـززت مـن صمـودي ومن صلابـة موقفي ومن قدرتي على التحدي. إن كل خبر أو تظاهرة أو صورة ترفع في مسـيرة أو اعتصـام أو مهرجـان أو نـدوة أو تصريـح صحفـي أو بيـان أو مقابلـة أو قصيـدة أو مقـال، كان يشـكل تعزيـزا لينبـوع صمـود وثبات وإيمان لا ينضب، وكان يجعلني أشد قوة في وجه السجّان. وفي هذا الإطار، فإنني أسجل اعتزازي بالحملة الشعبية لتحريري التي أسسها الأهل والأصدقاء والإخوة، حيث تم تحويلها إلى مؤسسـة تعمل على كل الصعد لفضح السياسة الإسرائيلية، وخاصة في ما يتعلق باختطافي واعتقالي وما يتعلق بالأسرى والمعتقلين كافة. وقد قامت الحملة بمئات الأنشطة والفعاليات على المسـتوى الفلسـطيني في الداخل والخارج وعلى المسـتوى العربي والدولـي، وقـد عمـل الإخـوة والأخـوات في الحملة على تنظيم أوسـع حركـة للتضامـن لا تـزال مسـتمرة ومتواصلـة، وقد لعبت زوجتي ورفيقة عمـري ودربـي المحاميـة فـدوى البرغوثـي دوراً بـارزا وقيادياً فـي هذه الحملة ةلا تزال كذلك، وهي تقف على رأسها وشاركت في كل الأنشطة المحلية، وفي عشـرات اللقاءات والزيارات العربية والدولية، وتحملت الكثيـر مـن العنـاء والمشـقة والتنقـل والسـفر، في شـرح قضية الأسـرى وحقهـم فـي حريتهـم باعتبارها قضية وطنية وحقوقية ونضالية وإنسـانية، وتمكنت بالإسهام في الجهد المبذول في سبيل تحرير الأسرى والتعريف بقضيتهـم. وقـد تجولـت فـي أكثـر من أربعين دولة، والتقـت عدداً كبيراً

www.ibtesama.com

من رؤسـائها ووزراء خارجيتها ومسـؤولي العديد من هذه الدول وقادة لأحزاب وأعضاء البرلمان وممثلي الرأي العام والأكاديميين وجمعيات التضامن والسلك الدبلوماسي في غالبية الدول التي زارتها، وكذلك مع عشرات وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وقد تمكنت من أن تكون خير سفير لقضية حرية الأسرى. لقد تمكنتُ من الاطلاع على جزء يسير مما كتب تضامنا معي عربياً ودولياً، وسمعتُ بعضها من وسائل الإعلام؛ وهذا عزز من معنوياتي ومن قناعاتي.

إن قضية فلسطين هي قضية الحرية والعدالة الأولى في العالم. وإن التضامن مع فلسطين تضامنٌ مع قضايا الحق والعدل والحرية في هذا الكون. وقد آمنت دوما أن قلوب أبناء الأمتين العربية والإسلامية مـع فلسـطين والانتفاضـة التـي تمثل الإرادة الحـرة لهذه الأمة؛ إرادة الحرية والحياة والاستقلال والكرامة. إن صوت التضامن معي ترددت أصداؤه في زنزانتي الصغيرة، وسمعت موقف التضامن الذي انطلق مـن مصـر ومـن أدبائهـا وشـعرائها وفنانيها ومناضليها، ومن الشـعب المصري بشـرائحه كافة، من طلبة وعمال وفلاحين ونسـاء ورجال، وقرأت شعر عبد الرحمن الابنودي (ارفع يديك) وعشرات القصائد الأخـرى لفـاروق شوشـه، وغيرهـا لكثيـر مـن الصحافييـن والكتاب وأساتذة الجامعات، إنه لمن الصعب توصيف الأثر المعنوي الهائل الـذي تركـه هـذا التضامـن والكلمات والقصائد والمقالات والبيانات في نفسي ونفوس آلاف الأسرى والمعتقلين. وكذلك الأمر في سوريا رسـمياً وشـعبياً، حيث اسـتقبل الإخوة في دمشـق زوجتي على أعلى المسـتويات، وأبـدوا كل التضامـن والدعـم. وكذلـك الأمـر في لبنان حيث كان التعاطف والتأييد والاستقبال من قبل معظم اللبنانيين وعلى المستويات كافة، وبطبيعة الحال في البلاد العربية كافة التي تمكنت

www.ibtesama.com

من زيارتها. أما تعاطف الفلسطينيين في الوطن والشتات وتضامنهم فقد كان وما زال يفوق كل وصف. ولم يقتصر الأمر على الساحتين الفلسطينية والعربية بل إن التضامن كان واسعا في عشرات الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية.

إن التضامن بأي شكل من الأشكال له قدرة تخترق أسوار السجن والأسلاك الشائكة والقضبان الحديدية، وتخترق جدران الزنزانة. إنه يعزز إرادة الحرية والصمود والتحدي في نفس المناضل وتزيد من كبريائه وتحديه للمحتلين والسجّانين. وقد صدف في العديد من المرات أنهم لاحظوا مظاهر هذا التضامن من خلال وسائل إعلامهم فكان هذا الأمر يؤثر على المحتلين السجّانين، وفي كل الأحوال فإن هذا جزء هام من المعركة التي يخوضها المناضل في الزنزانة ضد محتليه.

إن السجون تختلف الآن عما كانت عليه الحال سابقاً. حيث صار بمقدور الأسرى مراقبة ومتابعة ما يجري بكثير من الدقة والتفصيل بحكم توفر أجهزة التلفاز وعدد من المحطات الفضائية، وكذلك الصحف العبرية وأجهزة الراديو، وإن إمكانية متابعة التطورات داخل السجون تجعل من حركة التضامن والفعاليات والأنشطة مع الأسرى وقضية تحررهم وحريتهم في غاية الأهمية، وتؤثر في صمودهم ومعنوياتهم وفي قدرتهم على تحمل معاناة الأسر والاعتقال والعذاب. وإن ما تنقله وسائل الإعلام الفلسطينية والمحلية حول الأسرى ومعاناتهم وهمومهم وقضاياهم والأنشطة والفعاليات يراقبها الأسرى بكثير من الاهتمام. فهم يشاهدون الاعتصامات الأسبوعية أمام مقرات الصليب الأحمر أو مقرات الأمم المتحدة، ويلاحظون مشاركة ذويهم وأسرهم في هذه النشاطات، وكذلك يشاهدون المسيرات والتظاهرات، ويقرأون المقالات الخاصة بهم، ويسمعون ويشاهدون تصريحات القادة والمسؤولين، ويكتشفون

www.ibtesama.com

مـدى جديتهـا مـن عدمهـا ومـدى مصداقيتها، ويعرفـون من خلال ذلك مدى معرفة أصحاب التصريحات بقضية الأسرى ومعاناتهم.

وكذلك يتابعون ما يتعلق بهم في وسائل الإعلام العربية والدولية المتوفرة ولو بالحد الأدنى. إن الأسرى رغم الاعتقال وسنوات السجن الطويلـة، ورغـم العـزل والقهـر لا يعيشـون فـي جزيرة بعيـدة أو منفصلة عـن عالمهـم، بـل إن أكثـر النـاس متابعـة للمستجدات والتطورات هم الأسـرى. وحجم ما يسـمعونه من أخبار وندوات وتعليقات يفوق بكثير حجم المتابعة خارج أسوار السجن في العديد من المجالات، السياسية منها على وجه الخصوص.

القسام

شـاءت الأقدار أن أكون معتقلا في هذا السـجن نفسـه، سـجن بئر السـبع، وفي هذا القســم بالذات قبل ثمانية عشـر عاماً، في غرفة كبيرة مجاورة تماماً لقسم العزل، كنت آنذاك برفقة خمسة وثلاثين مناضلاً من قيادات وكوادر عدد من الفصائل الفلسطينية، وكنت متحدثاً باسمهم.

في شـهر أيلول من عام 1985، قررنا خوض إضراب عن الطعام، وفي اليوم الخامس عشـر حضر المحامي لزيارتي، ونقل لي خبراً سـاراً وسـعيداً. في وقت عصيب وقاسٍ ومرير في السـجن، وخلال إضراب مفتـوح عـن الطعـام، وفـي حالـة صحية صعبة، جاءني الخبر السـعيد أن زوجتـي، فـدوى، فـي صبـاح ذلـك اليـوم 3/ 10/ 1985، وضعت مولوداً صبياً في قسم الولادة في مستشفى رام الله.

نسـيت الإضـراب، وثقـل وطـأة الجـوع القاتـل، والحالـة الصحية الصعبة، وامتلأت بفرح وشـعور لم أعهده في حياتي، فلقد أصبح لديّ ولـدٌ، ويـا لهـا مـن لحظـة رائعـة. طمأنني المحامي على سـلامة زوجتي والمولود ثم غادر، لكن ليس قبل أن أكرر تأكيدي له أن يحمل المولود

www.ibtesama.com

اسم القسام. علماً أنني كنت قد اتفقت على ذلك مع زوجتي مسبقا، ولكن ذلك الإصرار كان من باب المزيد من التأكيد، حيث أحمل تقديراً خاصا لشجاعة هذا الشيخ الجليل العربي السوري وحكمه، فهو الذي قاد حركة مناضلة في فلسطين، واستشهد فيها، وظل رمزاً من رموز الكفاح الفلسطيني، وانطلاقاً من إيماني بضرورة أن نخلد رموزنا الثورية وعلى الأقل أن نمنح أبناءنا أسماءهم.

واليوم، 23/ 12/ 2003، أجلس في زنزانتي رقم 5 في السجن ذاته الذي تلقيت فيه خبراً سعيداً بولادة ابني البكر القسام، لأتلقى خبراً آخر يتعلق به، ولكن هذه المرة نبأ اعتقاله على نقطة العبور من عمان إلى الضفة الغربية المسماة (الجسر)، أتلقاه عبر إحدى وسائل الإعلام. فلقد كان القسام عائداً من الجامعة الأميركية في القاهرة التي بدأ الدراسة فيها وأنهى الفصل الأول تقريباً، لقضاء أسبوع مع والدته وإخوته الذين لم يفارقهم يوماً، وكان صعباً عليه الغياب عدة أشهر في القاهرة، فاغتنم فرصة عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة للعودة إلى أهله ومدينته رام الله التي يحبها جداً، فاعتقله المحتلون واقتادوه إلى الزنازين والتحقيق. وكان وقع هذا الخبر سيئا كثيراً وثقيلا، فقد كان حلمي دوماً ومنذ اعتقالي الأول قبل هذا الاعتقال بثلاثة عقود أن لا أرى ابني يوماً في السجن، وأن نتمكن نحن وجيلنا من إنهاء الاحتلال ونيل الحرية والاستقلال وبناء الدولة التي ينعم فيها أولادنا بالحياة الحرة الكريمة، وأن لا يعيشوا العذاب والمعاناة اللذين عشناهما على مر السنين، لكن ما أخشاه قد وقع الآن، وها هو القسام ينضم إلى والده في الاعتقال ولم يكمل سن الثامنة عشرة.

كان الموقف صعباً ويزيده صعوبة وجودي في الزنزانة، إن تصور القيود على معصمي القسام مؤلمٌ لي، ووجوده في زنزانة خاضعاً للتحقيق من قبل هؤلاء المجرمين المحتلين يثير حالة من الغضب في نفسي،

www.ibtesama.com

وأعرف أنهم سيتعمدون إهانته وقهره وتعذيبه، وشعرت بقسوة اعتقاله ومرارته على والدته وإخوته الذين ينتظرون وصوله على أحر من الجمر، وقد جهزوا وحضروا له الكثير من الحاجيات، وإذ بالمفاجأة تقع على رؤوسهم قاسية وتصادف في هذا اليوم أن زوجتي فدوى تناقش رسالة الماجستير في القانون وتستعد للاحتفال بعودة القسام ونيل شهادة الماجستير. إن قلقي على والدته وإخوته وليس فقط عليه، فأنا أثق بقدرة القسام ووعيه وثقافته وصموده وصلابته، وفهمت تماماً أن أحد الأهداف الرئيسية من وراء هذا الاعتقال هو الانتقام مني عبر اعتقاله وهذا في صميم عقلية الصهاينة المحتلين.

تجدر الإشارة إلى أن الإسرائيليين قد اعتقلوا القسام سابقاً في بداية الانتفاضة، وادعوا أن لديهم صوراً للعديد من الشبان الذين ألقوا الحجارة على الجيش الإسرائيلي الموجود عند حاجز سرداً العسكري عام 2000، وأن القسام كان من بينهم، وقد اتصل آنذاك مسؤول الارتباط الفلسطيني بالتنسيق مع نظيره الإسرائيلي، وبعد الفحص أبلغه أن القسام ليس معتقلا لديهم، وبعد ذلك أعلن الناطق بلسان جيش الاحتلال أن الخبر الذي نشرته بعض الوكالات عن اعتقال نجل مروان البرغوثي القسام غير صحيح بتاتاً. وقد زاد هذا الأمر من قلقي، وعندما كرر مسؤول الارتباط السؤال أبلغوه ثانية أن القسام ليس معتقلا لديهم، وأن هنالك شاباً لديهم في الخامسة عشرة من عمره، وذكروا مواصفاته وأنه لا يحمل بطاقة هوية بسبب صغر سنه، وأكد لهم اسمه، ولكنهم ليسوا متأكدين من الأمر، فذهب مسؤول الارتباط بنفسه إلى مركز التوقيف القريب من رام الله وقابل هذا الشاب (الطفل) وهو بالفعل القسام وسأله عن اسمه، فذكر القسام له اسماً آخر، لكن المسؤول الفلسطيني أبلغه أنه جاء لاصطحابه معه، فقال له القسام: «إذا كنت سأغادر معك فأنا

www.ibtesama.com

قسـام البرغوثي». والمهم، تبين لنا لاحقاً أن القسـام أنكر اسـمه وأعطى جنود الاحتلال اسماً آخر ومن هنا جاء الالتباس.

وبعد الإفراج عنه ليلاً سـألته: من أين جاءت لك هذه الفكرة أن تنكر اسـمك؟ فأجابني قائلاً: «حتى لا أجيب عن أي سـؤال يتعلق بك أو بالشباب المحيطين بك». ومنذ تلك اللحظة ازدادت ثقتي به صلابة.

بعـد اعتقالـه هـذه المـرة عـام 2003، هدده المحققون بقتله بسـبب تصريحاته للصحافة عن استعداده للقيام بعملية استشهادية. والحقيقة أنه كان يشـارك بفعاليـة فـي المظاهـرات والمسـيرات والمواجهات وأصيب أكثر من مرة. وعندما كانت أمه تطلب مني أن أحثه على عدم المشاركة بسـبب صغر سـنّه، كنت أرد عليها: «الله يحميه ويحمي جميع الشـباب، ولا تقلقي فالإنسان لا يحصل له إلا ما هو مقدر ومكتوب، وما يجري لأبناء الناس يجري لأبنائنا».

هذا بطبيعة الحال لم يلغِ قلقي عليه يوماً من الأيام، ولكنني كنت دومـاً مسـتعداً لتقبـل أي ثمـن فـي هذه المعركـة التاريخية التي يخوضها شـعبنا من خلال الانتفاضة والمقاومة. وبعد مرور ثلاث سـنوات على اعتقالي ما زال القسام يقبع في سجون الاحتلال، ولم تتسنَّ لي رؤيته منذ اعتقالي وحتى هذا اليوم، والحقيقة أنني لم أرَ يوماً نفسي ولا أولادي ولا زوجتي ولا أهلي بعيداً عن المعركة بهذا القدر أو ذاك. وسبق للاحتلال أن اعتقل والدتي وحقق معها أسابيع طويلة في مركز تحقيق المسكوبية، كما اعتقل جميع أشقائي الخمسة كذلك، كما أن العشرات من أقربائي استشهدوا طوال سنوات الاحتلال، وهنالك المئات ممن اعتقلوا، وما زال أكثر من مئة وخمسين من أقربائي وراء القضبان، وفي مقدمتهم فخري البرغوثي ونائل البرغوثي حيث قضيا حتى الآن 32 عاماً خلف القضبان.

كان أحد أشد المشاهد إيلاماً لي أنني كنت في طريقي إلى المحكمة في تل أبيب، وكانت البوسـطة (سـيارة نقل الأسـرى) تتوقف عادة في

www.ibtesama.com

سجن الرملة في (المعبر). وهناك في قسم (المعبر) كان قبالتي ثلاثة أطفال ينادون عليَّ. وعندما انتبهت، وجدت أن طولهم لا يصل إلى النافذة الواقعة في وسط الباب، أعددت لهم الطعام وأرسلته مع أحد عمال القسم من السجناء الجنائيين. واكتشفت أن أعمارهم بين ثلاثة عشر عاماً وأربعة عشر عاماً، وتذكرت مباشرة أنهم في عمر أولادي. وفكرت أي عقلية هذه التي لا ترحم طفلاً أو امرأة أو شيخاً أو مُقعداً أو معاقاً؟ أي دولة تطرد شعباً بأسره وتعتقله وتضايقه ليلاً ونهاراً، وتهدم بيوته وتسجن أطفاله؟ أي نوع من البشر هؤلاء المحتلون المجرمون؟

لم يكن ألمي مقتصراً على القسام، بل على كل أبناء جيله الذين يعتبرون الجيل الأشجع والأعظم بين الفلسطينيين، والذين يقدمون نموذجاً من التضحية والفداء والاستشهاد ومواجهة المحتل، لم يسبقهم إليه أي جيل في تاريخ شعبنا. ألمي أن هؤلاء مكانهم كباقي أطفال العالم في المدارس، والجامعات، وخلف أجهزة الكمبيوتر، وفي الملاعب، والساحات، والمكتبات، والمسابح، والأندية وهم يتمتعون بالحياة، لا أن يُزج بهم في الزنازنين والسجون، وأشعر أن آباءهم وأجدادهم يتحملون مسؤولية كبيره نتيجة عجزهم عن إنجاز الحرية والعودة والاستقلال وإقامة الدولة؛ دولتهم الوطنية التي يعيشون فيها أحرارا.

وأنا في زنزانتي نقل لي ممثل الصليب الأحمر رسالة من ابني القسام في سجنه قال فيها: «لا تهتم يا أبي، ولا تقلق. فلم يتمكنوا من انتزاع كلمة واحدة مني، وخرجت من التحقيق من دون إفادة مطلقا، وأنا فخور بأنني ابنك، ومستعد لدفع فاتورة أنني ابن مروان البرغوثي مهما كانت ثقيلة، واعلم يا أبي أنني رجل وقادر على مواجهة التحديات، فلقد علمتني أن فلسطين أكبر من كل شيء وتستحق أن نضحي من أجلها بكل شيء»......

www.ibtesama.com

وقال أيضاً: «إن كل شيء على ما يرام، والإخوة بطرفي يهدونك السلام. وأنا في سجن عوفر(*)، وفيه مئات الأسرى، وأوضاعي جيدة، لا تقلق أبدا، أنت تعرف يا أبي محبتي للحرية»......

لقد شعرت بالراحة لدى قراءتي هذه الرسالة من القسام، مع أن الجملة الأخيرة أشعرتني بالألم الشديد.

الحقيقة أن الألم كبير لدى الآباء الذين يُعتقل أبناؤهم معهم في السجون، وكذلك الأشقاء. وإن كان ذلك أخف قليلاً من وجود الأب والابن، ولكن يمكن القول إن هناك بضع مئات يكون لهم في الأسر قريب أو أكثر من الدرجة الأولى، وأحياناً الأم والابن والأخ والأخت وأغلب الأحيان الأشقاء الإخوة. وهناك عشرات الأسر التي يوجد أكثر من ثلاثة من أفرادها داخل السجن، كالحال مع عائلة الأخ ناصر أبو حميد من مخيم الأمعري في رام الله، حيث إنّ ستة أشقاء اعتقلوا للمرة الخامسة، وخمسة منهم حُكموا بالسجن المؤبد مدى الحياة، وأحدهم حكم لسنوات طويلة، كما أن شقيقهم السابع عبد المنعم أبو حميد اغتيل على أيدي قوات الاحتلال. وكذلك الحال مع عائلة الأخ أحمد المغربي من مخيم الدهيشة، وعائلة فخري البرغوثي، وعائلة عمر البرغوثي، ومئات العائلات الفلسطينية الأخرى.

أما الهم الآخر الذي يقلقني في هذه الزنزانة فهو مصير والدتي التي أقدرها وأحبها كثيراً، والتي عاشت معاناة مريرة طوال عمرها. فقد فقدت زوجها منذ ما يقارب ربع قرن، ولكنها وجدت في أبنائها الزوج والأب والأم والأخ والأخت، لقد فقدت والدتي أمها مبكراً جداً وكذلك والدها وزوجها، ولكن حياتها كانت تكمن في أبنائها السبعة الذين كرست عمرها كله لهم.

(*) يقع سجن عوفر بين مدينتي القدس ورام الله.

www.ibtesama.com

أعود بذاكرتي إلى شريط طويل من حياتي مع والدتي وأسأل نفسي يا ترى هل سأراها ثانية(*)؟ هل سأتمكن من تقبيل يدها الطاهرة قريبا؟ وهل سأبوح لها بما لم أقله لها من قبل مع أنني أحبها وأقدرها بلا حدود، ولأقول لها أنني تعلمت منها دروساً كان لها عظيم الأثر في مسيرتي النضالية؟ إنها لا تعرف كم كان لها تأثير في ذلك. لماذا لم أقل لها ما يدور في ذهني الآن من قبل؟ هل سيمنحها الله العمر الطويل حتى أكون خارج هذا السجن وهذه الزنزانة؟ وهل سيمنحني العمر أيضاً الطويل؟؟

هل سنلتقي مجدداً ونتحدث وأقص لها عن هذه الرحلة الصعبة والمريرة المليئة بالعرق والدم والدموع وهي التي طالما شجعتني على تحدي الاحتلال ومواصلة النضال وعدم الانحناء أمام التحديات والصعاب؟ على أي حال ليس لي إلا أن أدعو لها بطول العمر والصحة والعافية وأن أتمكن من لقائها.

إن ما تتحمله الأمهات من آلام لدى أسر أبنائهن وبناتهن لا يوازيه هَمٌّ، فهن يبقين في حالة من القلق، ويتحملن بعناد السفر لزيارة الأسير أو الأسيرة في السجن والانتظار الطويل هناك، حيث تستغرق عملية السفر إلى السجن ما بين 10- إلى 15 ساعة، وزيارة الأسير بحد ذاتها لا تزيد عن 45 دقيقة. وهناك أمهات يُواظبن منذ أكثر من ربع قرن من الزمن على زيارة أبنائهن وذويهن في سجون الاحتلال. وإن من أكثر الأمور إيلاماً للأسير وفاة والده أو والدته أو أحد أقربائه من الدرجة الأولى، ولا سيما الأب والأم، حيث تَصعُب المواساة في السجن ويستحيل الوداع.

وعودة إلى موضوع القسام فقد كتبت له من زنزانتي رسالة رداً على رسالته قلت له فيها:

(*) توفيت والدة مروان البرغوثي بتاريخ 2007/3/21.

www.ibtesama.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ولدي الحبيب...

ابني الغالي...

أخي ورفيق الدرب......... العزيز قسام

كل عام وأنت بألف خير بمناسبة عيد ميلادك المجيد حيث نطفئ في الثالث من أكتوبر 2005، شمعة العشرين من عمرك المديد بإذن الله.

حبيبـي الغالـي... في هـذه الأيام، ومن زنزانتي الصغيرة، أخط لك هذه الرسالة آملا أن تصلك في زنزانتك أيضاً وفي سجنك. حيث إن اللـه وحـده يعلـم حجم الألـم الذي أشعر به وأنت تقضي بل وتكمل الآن عامك الثاني وراء القضبان، فلا شيء أصعب على المرء من أن يشعر أو يرى أو يسمع أن ابنه وولده وفلذة كبده يُعتقل ويُزج به في السجن، خاصة أنني أيضاً في السجن وأعرف معنى القيد، فكم هو صعب علي أن تكـون أنـت معصـوب العينين ومكبّل اليدين ومقيّد القدمين، خاصة وأنك تعتقل وأنت في عمر الورد والزهور.

حبيبي القسام........ في هذه الأيام، تعود بي الذاكرة إلى يوم ميلادك الأغر، في صبيحة الثالث من أكتوبر عام 1985 بعد الساعة الثالثة صباحا، كم كنت أشعر بالألم والفرحة معا عند ميلادك، فقد تصادف أن وضعتـك أمـك وأنـا في السجن، فـي سجن بئر السبع، حيث كنت آنذاك ومجموعة من المناضلين، نحو 35 مناضلاً، في عزل سجن بئر السبع، نقلنـا إليـه مـن سجـن جنيـد في نابلس في بداية شهـر أيلول عام 1985. وتصـادف ميـلادك ليـس فقـط في أثناء السجن بل أيضاً في أثناء خوضنا إضرابـاً مفتوحـاً عـن الطعـام، وقد كانت أياماً صعبـة وقاسية ومريرة، فحـرب الأمعـاء الخاويـة التي خاضهـا الأسرى في عشـرات المناسبات والمحطـات فـي تاريـخ الحركة الأسيرة، كانت وما زالت تشكل السلاح الوحيـد والأخيـر للدفـاع عـن حقوقهم في مواجهـة جلاديهم، وفي سبيل المحافظة على كرامتهم.

www.ibtesama.com

خــلال العقــود الأربعــة منذ احتلال عام 1967، دخل الأسرى في أكثــر مــن إضــراب عن الطعام، سواء أكانت إضرابات جماعية، أي في السجون كافة، أو في سجون بعينها. وقد أدى ذلك إلى استشهاد العشرات في هذه الإضرابات وإصابة المئات بالأمراض المزمنة، التي أدت لاحقا إلى استشهاد العشرات منهم.

كان أول شهــداء الحركــة الأسيــرة الشهيــد عبــد القــادر أبــو الفحم الــذي استشهــد فــي أثنــاء الإضراب عن الطعام في سجن عسقلان بتاريخ 1970/7/4 وسجــل مثــلا بالصمــود والإرادة. ثــم تتالت الإضرابات في السجــون بشــكل تدريجــي ممــا أدخــل بعضــن التحسينات علــى الظروف الاعتقالية والمعيشية. وكان الإضراب الأخير الذي بدأ في 2004/8/15 واحــداً مــن أصعــب وأقسى الإضرابات خلال العقــود الأربعة الأخيرة، حيــث شنــت سلطــات الاحتلال هجمة وحشية غيــر مسبوقة على السجون كافــة فــي محاولــة منها كســر الإضراب وكســر إرادة الأسرى، معتمدة أبشــع الأساليــب وأقذرهــا، من تفريق وتوزيع لقيــادات الأسرى، ونقل الأســرى مــن قســم إلــى آخر، ومن غرفة إلى أخــرى، أكثر من مرة، وفي اليوم نفسه، ومن سجن إلى آخر، في ظروف يشعر معها الأسير بالضعــف والوهــن، وكذلــك التفتيش على مــدار الساعة، والحرمان من أبســط الحقــوق، والامتنــاع عــن تقديم السوائل بما في ذلك الحرمان من الملح الذي يساهم في منع التعفن في المعدة والأمعاء.

كما تعرض المئات للضرب والإهانة، وامتنع الجلادون عن تقديم أي مساعــدة للمرضــى، بــل وقــام بعض «الأطباء» العاملين في السجون بابتزاز المرضى ومساومتهم بكسر الإضراب مقابل إنقاذ حياتهم أو منحهم حبة دواء، إضافة إلى القيام بحملة من الإشاعات الكاذبة والمغرضة، بأن فلاناً من القيادات فك إضرابه وأن عِلاناً لم يضرب، ووصل بهم الأمر إلى حد توزيع صورة لي وأنا أتناول الطعام في الزنزانة الانفرادية، تم التقاطها قبل الإضراب لكنهم ادعوا أنها التُقطت خلاله، وقد تعرضت إلى حملة بشعة من التنكيل خلال هذا الإضراب الذي استمر لمدة 24 يوما.

www.ibtesama.com

ومـع أن الإخـوة فـي العـزل الانفرادي لم يكن مطلوباً منهم الإضراب، بسبـب خصوصيـة وضعهـم القاسـي، لكننـي أردت التضامن مع الإخوة الأسرى، رغم انقطاعي التام عنهم وعن أخبارهم في فترة العزل وفي فترة الإضراب على وجه الخصوص.

إن الحركة الأسيرة الفلسطينية قدمت نموذجاً لأسرى حركات التحرر في العالم، نموذجاً من الصمود والتحدي، نموذجاً من التنظيم الداخلي، نموذجاً من الوعي والثقافة السياسية والوطنية، ونموذجاً للسلوك الوطني الثوري والأخلاقي قل نظيره. رغم الظروف الصعبة والقاسية والمريرة، تمكـن الأسـرى مـن حمل الراية من جيل إلى جيل، ومن المحافظة على وطنيـة هـذه الرايـة ونظافتها وثوريتهـا، وتحولت المعتقلات التي أرادها المحتلون الغزاة مكانا تتحطم فيه إرادة المناضلين والمقاتلين والفدائيين، وتنكسـر فيـه شوكتهـم الوطنيـة، ليتحولـوا فيهـا إلى طوابير مـن اليأس والإحباط والانحراف السلوكي، تحولت إلى مدارس يتخرج منها آلاف المناضلين والمجاهدين الذين شكّل لهم الاعتقال تجربة هامة في مسيرتهم النضاليـة تـزودوا فيهـا بكثير من العلم والمعرفة والخبرة والتجربة. وقد أصبحت بصمات الأسرى واضحة على تجربة الحركة الفلسطينية النضالية والسياسية والعسكرية والأمنية والثقافية والأدبية وبنيتها، وأسهم الأسرى بتجربتهم الغنية في تعزيز النضال الوطني الفلسطيني.

نعم، حبيبي وقرة عيني القسام......... لقد جاء ميلادك وأنا في اليـوم الثالـث عشـر مـن الإضراب عن الطعـام، وأقبع في غرفة مع 35 مناضلاً جميعهم معتقلون إدارياً ومن خيرة المناضلين والكوادر من مختلف التنظيمـات الفلسطينيـة الموجـودة آنذاك، وقد تصادف أنني كنت المتحدث باسـم الأسـرى فـي هـذا الإضـراب، وقد حرمنا مـن أي زيارة، وكنت مشغـول البـال لأننـي اعتقلـت ووالدتك حامل بـك وتبقى لها أقل من شهر ونصف على موعد الولادة، وأخذت أعد الأيام والساعات إلى أن حضر إلـي المحامـي، ثـم الخـال الغالي المرحوم أبو سيف، الذي أبلغني أنك قد رأيت النور صبيحة ذلك اليوم الثالث من أكتوبر. تغيّر شعوري مباشرة.

www.ibtesama.com

لقد أصبح لدي ولد، ولد اسمه القسام..... غمرني شعور بالفرحة رغم مرارة الإضراب والأمعاء الخاوية والوزن الذي تدنى إلى 47 كغم. فمن جهـة، الفرحـة تمـلأ قلبي.... ومن جهـة أخرى، تفترسني قسوة الجوع ومرارة الظرف. وقد حمدت الله أنك ولدت سالماً، وأن والدتك الحبيبة سالمة أيضاً، عدت إلى الغرفة حيث التف حولي الإخوة الأربعة والثلاثون مـن دون استثنـاء لتهنئتـي بولادتـك. ولم أكـن أملك سوى قليل من الملح وزعته على الإخوة حلوان ميلادك العظيم،الذي تصادف مع أوائل شهر أكتوبر الذي يثير فينا مشاعر العزة والكبرياء بمناسبة حرب أكتوبر(*).

ثـم استلقيـت على سريري (المسمـى بلغة الأسرى البرش) وأخذت أفكـر فيـك طويـلا، مـا هو شكل القسام ؟؟ كيـف هو لون عينيه وبشرته وكيـف سيكـون شعـره، وطولـه وجماله؟؟ رحت أرسـم لك صورة في خيالي، ولكن البشر رغم أن عددهم بالمليارات شاء الله تعالى أن يكونوا مختلفين، ولم أفلح في رسم الصورة الحقيقية لك رغم بذلي جهداً هائلاً لأتصورك في ذهني. وأكثر من ذلك، فقد انتابني شعور أظن أنه يراود جميع الآباء لدى ولادة مولودهم البكر، وهو شعور أحاول أن أترجمه إلـى كلمـات وجمـل وأن أفسـره ولكننـي عاجز عن ذلـك، ولعله شعور لا يترجـم ولا يفسـر. كـم فرحـت وكم شعرت بالسعادة وبشيء غريب، فلـم يكـن لـدي مثـل هذا الشعور قبل ميلادك. وما إن عرفت أنك رأيت النور وأن كل شيء على ما يرام حتى تملكني شعور بالاعتزاز والفرح ومشاعر أخرى لا أقدر على تفسيرها أو التعبير عنها.

مرت الأيام بعد ذلك طويلة وقاسية وصعبة، رغم أننا أنهينا الإضراب، إلا إنني حُرمت من رؤيتك ولم أحظَ بزيارتكم لي لأتعرف عليك... كيف لا وأنـت ابنـي حبيبـي، ولـدي الذي انتظرت أن أراه بفارغ الصبر. وبعد عدة أشهر تم نقلنا من سجن بئر السبع وإعادتنا إلى سجن الجنيد في نابلس، حيث كانت المفاجأة الرائعة لأنني سأراك من خلال «شبك» الزيارة. ولن

(*) المقصود هنا حرب أكتوبر عام 1973 بين الدول العربية وإسرائيل.

www.ibtesama.com

أنسى تلك اللحظة، حيث إنني كنت أتحرق شوقاً لرؤيتك، وفي حالة انفعال داخلـي، مـع أننـي دومـاً أخفي انفعالاتي أمـام السجّانين، خرجت للزيارة وأنـا متوتـر قليـلا، حيـث كان علينا الانتظار بالغرفة بعـد إبلاغنا بالزيارة وضرورة الاستعداد، انتظرنا أكثر من ساعة لنخرج بعد ذلك من الغرف ولنعبـر أكثـر مـن ستـة أبواب تفتح الواحد تلو الآخر. انتظرنا عند كل باب أكثـر مـن خمـس إلـى عشر دقائق، ثم دخلنا إلى غرفة الانتظار وبعد نحو نصف ساعة، اصطحبنا ضابط سجّان إلى غرفة الزيارة، حيث كنا أكثر من عشرة إخوة، كل واحد منا يصوّب عينيه باتجاه الشبك، ويتفحص الوجوه ليرى إن كانت أمه أو أبوه أو ابنه من بين الزائرين.

بعـد أن قدمـت التحيـة والسـلام إلـى الجميع، كانـت المفاجأة. فقد حضـرت مـن دون مقدمـات، واقتربـت من البلاط الطويـل على امتداد «شبك» الزيارة الذي يفصلنا عن الأهل، وفتحت عينيّ لأرى أمامي طفلاً جميلاً رائعاً ومدهشاً، والأهم أجمل من كل الصور التي رسمتها لك في خيالي. لم أتمكن من الحديث، وأصبت بكثير من الدهشة. لقد كانت لحظة عظيمة. فأخيراً شاهدت ابني، ولكنني لم أستطع لمسه أو احتضانه أو تقبيله بسبـب هـذا الحاجـز الاحتلالـي القاهر، تنهدت أكثر من مرة وأخذت نفساً وبالتـدرج تحدثـت مـع والدتك وجدّتك، هنّأتهمـا بالمولود القسام، وكان ذلك ربما في نهاية كانون الأول أو بداية كانون الثاني 1985\1986.

لقد عدت من الزيارة وأنا في غاية الفرح والسعادة والسرور، ولكن فـي داخلـي بعضـ الألـم. لأن الأمر الطبيعي أن يكون الزوج إلى جانب زوجته عندما تضع مولودها، ومن الطبيعي أن يقف إلى جانبها ويشجعها فهي تحتاج إليه حتماً في مثل هذا الموقف. فهي لحظات صعبة في حياة أي امرأة أو زوجة. وكذلك من حق أي أب على وجه الأرض أن يرى ابنه وولده لحظة الولادة. كما أنه من حق المولود أن يلقى الرعاية، وأن يفتـح عينيـه ليـرى والده أمامـه بغض النظر إن كان الطفل يفهم ويعرف لحظة الولادة أم لا، ليس من العدل في شيء أن ترى ابنك لأول مرة من خلف القضبان والأسلاك الشائكة، وليس من العدل أن لا تستطيع تقبيله

www.ibtesama.com

أو احتضانــه ولــو لدقيقــة واحدة، وليس من العدل هذا الحرمان المشترك لــلأب والأم والابــن، لهــذا فأنــا أعتــذر لك يا حبيبي وقرة عيني لأنني لم أتمكن من أن أكون أول من تراه عيناك بعد ولادتك. مع أن هذا ليس نتيجــة إهمــال أو تقصيــر أو انشغــال فــي عمل خاص أو كسب تجاري أو تأدية وظيفة أو عمل بأجر، بل لأنني كنت في رحلة التأدية الواجب في سبيل حرية هذا الوطن وكرامته، وفي سبيل هذا الشعب العظيم.

حبيبي القسام... لقد ولدت بعد مرور عام على زواجنا أنا وأمك، حيث كان ذلك الزواج في 1984/10/21، وأنت ولدت في 1985/10/3، ربما لم تسمح لي الظروف أن أحدثك عن حكايتي مع والدتك، زوجتي الحبيبة فدوى، ورفيقة الدرب وشريكة العمر. أنت تعرف أننا كنا نعيش في البلدة نفسها، قرية كوبر. وأقول لك إن ظرفي الشخصي كان صعباً، وكذلــك الأمــر بالنسبــة إلــى ظرف العائلة الاجتماعــي والاقتصادي. فقد عاشــت أسرتنــا ظروفــاً ربمــا هي الأقسى والأصعــب والأمرّ في بلدتنا. عرفنــا أنــا وإخوتــي والوالد والوالدة حياة صعبة، عرفنا الحرمان والفقر والجوع والعوز، وقسوة المسكن والملبس والطعام، وصعوبة الحصول علــى رســوم المدرســة وملابسها، وهــذه الظروف عاشتها كثير من أسر شعبنا، وبعضها ما زال يعاني الكثير من الفقر والجوع والعوز. وكانت ظــروف أهــل والدتــك أفضــل مقارنة مع وضعنا، وقد تميز جدك «العم أبو شاهر» باعتزازه بنفسه، وبحرصه على تنظيم حياته اليومية، كما أنه كان عسكريــاً لفتــرة طويلــة مــن حياته إلى أن حصل على التقاعد، وكان يمتلك بيتاً جميلاً وأراضي وإمكانيات، وكان أول من أرسل بناته لإكمال الدراسة الإعدادية والثانوية والجامعية في رام الله وعمان، متحملا أعباء كبيرة جداً. مع أن ظروفه كانت معقولة بالمقارنة مع ظرفنا إلا أن أحداً لم يكن ليلومه لو لم يرسل بناته للدراسة وتحمل أعباء كبيرة، حيث إن مدارســ القريــة للذكــور والإناث كانت للمرحلة الابتدائية فقط، وقد كان هــذا سببــاً فــي حرمــان ذكور وإناث كثيرين مــن إكمال دراستهم، حيث عمــل الاحتــلال عمــداً إلى ضرب التعليــم والتضييق على المدارس بشتى

www.ibtesama.com

الوسائل والطرائق. ولهذا كان يدير جهاز التربية والتعليم ضابط عسكري تحكّم بعملية تعيين المدرسين، وتعرض المئات منهم للفصل بسبب نشاطهم الوطنـي أو لأنهـم ذكـروا اسم فلسطيـن في المدارس. عبث هذا الضابط في المنهج التعليمي، كما أن الاحتلال رغم الضرائب الباهظة التي كان يجمعها من الناس لم يقم ببناء المدارس والمستشفيات، بل كان يقف عائقاً أمام بناء مدارس على نفقة الأهالي والمواطنين.

وقد درست الإعدادية والثانوية في مدرسة بيرزيت، وتحملت أسوة بزملائي الطلاب الكثير لأننا كنا نذهب ونعود مشياً على الأقدام قاطعين مسافة 8–10 كم يومياً.

باختصـار، لقـد تعرفـت علـى والدتك، زوجتـي وحبيبتي ورفيقة دربي، وهي في المدرسة الإعدادية، ولا أخفيك أنني كنت أزداد إعجاباً بهـا يومـاً بعـد يـوم. فقد كانت تلميـذة جميلة جداً، وتلبس مريولاً أخضر وشبـرة بيضـاء. وجهـا كالقمر، وعيناها الخضـراوان تجعلانها كاللبؤة، وشعرها هو الأطول بين مئات الطالبات. وباختصار كانت كالغزالة تشع جمالاً، وفي الوقت نفسه كانت مثلاً للالتزام والسلوك الرائع، والأولى في صفها بصورة دائمة تقريباً، ومتفوقة في المواد العلمية بجدارة مميزة. وقد شاءت الأقدار أن تعرضت للاعتقال وأنا في الصف الثاني الثانوي، حيث تبقى عام واحد للتوجيهي، وقضيت السنوات الممتدة من العام 1978 إلى العام 1983 في السجن، وقد تقدم الكثيرون لطلب يد والدتك لكنها رفضـت بإصـرار، رغـم عدم قدرتها في البداية على تفسير هذا الرفض لوالدها المحافظ كثيراً، ومع ذلك فقد صمدت، ثم أبلغته بوضوح أنها تريد انتظاري حتى أخرج من السجن، وبعد خروجي منه فعلاً أعلنا الخطوبة، وبعد سنة ونصف تقريباً كان الزواج. وللتذكير فقد حاولنا أكثر من مرة أن نتـزوج، وحددنـا أكثـر من مـرة تاريخاً لزواجنا، ولكن صادف أن كنـت مطلوبـاً لقـوات الاحتـلال مما اضطرنا للتأجيـل، وقد اعتقلت فعلاً فـي أيلـول 1984 وخرجـت فـي منتصف أكتوبر من العام نفسه. عندها، سارعنا لتحديد الموعد قبل حصول اعتقال آخر، وبتاريخ 1984/10/21

www.ibtesama.com

كان زواجنـا. وبعـد ثلاثـة أشهر أخـذت سلطات الاحتلال تطاردني من جديـد حيـن كنـت فـي نهايـة عام 1983 رئيساً لمجلس الطلبة في جامعة بيرزيـت، وكذلـك رئيسـاً لحركة الشبيبة الطلابية في الجامعات والمعاهد في الضفة والقطاع، حيث كانت هنالك لجنة عليا للشبيبة ترأستها بنفسي.

حبيبـي قسـام.... فـي نهايـة شباط أو بدايـة آذار 1985، أبلغتني والدتك بعد كثير من التردد والحذر أنها حامل، وقالت ذلك وهي مرتبكة معتقدة أنني لا أريد ذلك مبكرا، حيث كنت مطارداً، وكانت تتحمل وحدها عبء استكمال دراستها للعلوم والرياضيات، وبعد ذلك انتقلت لتعمل منسقة لرياض الأطفـال فـي الضفة الغربية، وتتابع أكثر من مئة روضة أقامها الاتحاد العام للمرأة للعمل الاجتماعي، وهي منظمة نسائية أنشأتها حركة فتح في الداخل. وكانت والدتك إحدى مؤسسات هذا الإطار وقد أسهمتُ شخصياً بشكل متواضع في وضع نظام هذا الاتحاد، وفي دعمه ومساندته إيماناً مني بدور المرأة.

كانـت الظـروف الاقتصاديـة صعبـة وقاسية في أثنـاء دراستي في الجامعـة، وتحملـت والدتك العـبء الأكبر، وكانت تتقاضى ستين ديناراً شهريـاً مقابـل عملهـا في إنشاء رياض الأطفال وتنسيقها. واضطرها ذلك للتنقل والسفر كثيراً بين المدن والقرى والمخيمات، كانت هي من يصرف علينـا، إلـى جانـب المساعـدة التي لم يبخل بها علينا عمك أبو تامر الذي يعمـل فـي السعوديـة منـذ ثلاثين سنة. المهم أن والدتك فوجئت من حجم سعادتـي وفرحتـي عندمـا أبلغتني أنهـا حامل، عبّرت عن ذلك وقلت لها إن هـذا خبـر ممتـاز ورائـع، والحمد لله على ذلك، والحقيقة أن فرحتي كانـت لسببيـن، الأول أننـي كمـا كل زوج يريد أن يرى أولاداً، وكنت أقول لوالدتك إنه يتوجب علينا أن ننهي «موضوع» الإنجاب خلال خمس سنوات وإنني أرغب في رؤية أولادي يكبرون معاً. والسبب الثاني الذي جعلنـي أفـرح كثيـراً بخبـر الحمل، هو أنني كنت عام 1978 قد تعرضت لتعذيب وتحقيق وحشي على أيدي المخابرات الإسرائيلية، وتحديداً على أيـدي المحقـق الـذي يدعى «سامي» وهـو اسم مستعار طبعاً، وكان هذا

www.ibtesama.com

بإشــراف محقــق آخــر يدعى «غزال» وهو الآن نائب رئيس المخابرات الإسرائيليــة، واسمــه الحقيقــي عوفر ديكل. ومن التعذيب الذي تعرضت لــه أســوة بــالآلاف من المناضلين إلى جانب عمليــة الشَبْح لأيام وأسابيع والتنكيل والضرب، ضربات شديدة على أعضائي التناسلية « المحاشم». بعد أن تم تجريدي من جميع الملابس بما فيها الداخلية وكنت عارياً تماماً. فقـد أوقفـت إلــى الحائــط، ثم ضُربت بعصا غليظة ضربة شديدة، أصبت بالإغمــاء علــى أثرهــا واستفقت بعــد عدة دقائق وأنا على الأرض غارق فــي الميــاه التــي سكبها المحققون علي لأستعيد وعيي، والدماء تنزف من جبيني بسبب اصطدامي بالحائط. يومها قال لي المحقق المدعو « سامي»: «لــن تستطيــع أن تخلــف بعــد الآن، ولن ترزق أولاداً. فمن مثلك يجب أن يتوقف نسله». كنت بطبيعة الحال في ذلك الوقت لا أعرف مدى تأثير هــذه الضربــات. ومــع أننــي لم أكن في حالة خوف أو حتى خشية كبيرة إلا أن ما قاله «سامي» ظل يتردد في ذهني.

من هنا، عندما أبلغتني والدتك بأنها حامل، شعرت بالفرحة وبالنصر على المحقق المحتل الحاقد الذي لا يريد لنا نسلاً أو أبناء، ولم أكن قد حدثت والدتك عن قصتي في التحقيق من قبل.

رغم الظروف الاقتصادية القاسية والصعبة التي عاشتها والدتك فإنها كانــت مثــالاً للمرأة المناضلــة والمكافحة التي تتحمل الفقر وقسوة الحياة. والحقيقــة أنــه قبــل خطوبتنــا جلست معها جلسة طويلة، وقلت لها ما معناه أن لي رسالة اخترتها بحرية كاملة وهي رسالة الوطن... رسالة فلسطين وتحريرهــا وحريتهــا، وأنــا الآن خــارج من السجن بعد عدة سنوات من العذاب والألم والقهر، ولكنني تعلمت واكتسبت من السجن ما لم أتعلمه في مدرسة أو في أي مكان. وقد أعددت نفسي جيداً، وأصبحت لدي خبرة جيدة في التجربة النضالية والأمنية ومقارعة الاحتلال، وأنا سأواصل هذا الطريق حتى ينتهي الاحتلال، وإنني أعرف أن هذا كلام كبير، وربما تتساءلين لماذا يقول لي هذا الكلام، ولكنني أريد أن أكون صادقاً، أميناً وواضحاً لأنني لا أنوي تكريس حياتي لامرأة أو لأسرة فقط، إن الأولوية

www.ibtesama.com

هــي للوطــن والشعــب... إنها للانعتــاق من عبودية الاحتلال ومن أجل استرجاع بلادنا المغتصبة... أقول لك إنني أستبعد بناء بيت أو مسكن، وأستبعد أن أملك مالاً؛ فهذا لا يشكل هماً أو اهتماماً لي، وأعتقد أن مستقبلي هــو الاستشهــاد أو الأســر المؤبــد. وأضفت، إنني لا أريد أن تعاني معي لأن الحمل ثقيل والعبء كبير، وأنا أعرف ما يجول في خاطرك الآن وقد تظنين أنني أتهرب من الارتباط، لكنها الحقيقة التي لا بد من قولها.

تابعت قولي لها، لقد قرأت عشرات الكتب وربما المئات، وحظيت بلقاء عدد كبير من قادة الحركة الأسيرة في قسم العزل في سجن طولكرم من مختلف الفصائل ما بين عامي 1979-1983، وقد تعلمت منهم كثيراً، وأنا الآن أكثر استعداداً للتضحية والفداء، وسأبدأ فوراً، وذهابي للجامعة ليس بغرض الحصول على شهادة علمية فقط على الرغم من أهمية ذلك بــل لتكــون موقعــا خاصــاً لي ومنطلقاً للعمل الوطني. إنني أطلب منك أن تأخــذي فرصـــة للتفكيــر قبــل الإجابة. لكن والدتك لــم تأخذ أي فرصة، وقالت حرفياً قبل الإجابة: « هل فلسطين لك وحدك؟» فقلت لا، أجابت: «إذاً أنــا مستعــدة للقيــام بواجبــي، وسأقف إلــى جانبك في كل الظروف والأحــوال، وتــوكل علــى اللــه وأنا معك إلى الأبــد». وبعد هذا الحديث اتفقنا على الخطوبة والزواج.

شهــد العــام 1985، عــام ميلادك، تطورات مهمة. فقد انتخبت في أوائل هذا العام وللمرة الثانية رئيساً لمجلس الطلبة في جامعة بيرزيت، ثم منسقاً للشبيبة الطلابية في الضفة والقطاع، وفي هذا العام أصبحت الشبيبة منتشــرة كالنــار فــي الهشيم في كل ربوع الوطن، في القرى والمخيمات والمدن. هذه المنظمة تشكلت بمبادرة من مجموعة كبيرة من كوادر فتح غالبيتهــم ممــن خرجــوا من السجون في أوائــل الثمانينيات. وما إن جاء عــام 1985، حتــى كان هنالــك عشــرات الآلاف من الأعضاء في الشبيبة الاجتماعيــة والطلابيــة في قطاعات المــرأة والعمال والفلاحين والطلاب والمهنييــن، وغيــر ذلــك، وهــي إطار كنــا نصر أن يكــون ديمقراطياً، ووضعنــا لــه نظامــاً انتخابيــاً فــي كل من الضفة والقطــاع، وكان عشية

www.ibtesama.com

الانتفاضة الأولى هنالك نحو سبعة آلاف كادر منتخب لمنظمات وأطر الشبيبة في الضفة والقطاع؛ وهو الأمر الذي جعلها تصمد أمام ضربات الاحتلال على مدى سنوات طويلة منذ العام 1982 وحتى عام 1993.

وفي 1985/5/20، وقع أهم حدث يتعلق بالأسرى، وهو عملية تبادل الأسرى بين م.ت.ف من خلال الجبهة الشعبية القيادة العامة وإسرائيل، حيث أطلقت إسرائيل سراح 1150 أسيراً، بينهم أكثر من ثمانمئة أسير محكوم بالسجن المؤبد مدى الحياة، عاد غالبيتهم إلى داخل الوطن بينما ذهب قسمٌ آخر إلى الخارج. وعرفت عملية التبادل هذه بصفقة أحمد جبريل (الأمين لعام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة). وكانت هذه الصفقة هي الأهم في تاريخ الحركة الأسيرة منذ العام 1967 وحتى هذا التاريخ 2005. وقد شكل هذا واحداً من أهم الأحداث في العام 1985، حيث اجتاحت الأفراح والاحتفالات عموم الوطن الفلسطيني، وعزز هذا الأمر من زخم الحركة الوطنية الفلسطينية وقوتها. وفي أثناء هذه الفرحة الغامرة، وقيامنا بتنظيم الاحتفالات، وتجوالنا في الوطن تم اعتقالي عند خروجي من قرية صيدا في محافظة طولكرم، وفرضت عليّ الإقامة الجبرية والتي تم بموجبها حرماني من دخول جامعة بيرزيت أو الخروج من بلدتي كوبر على أن أقوم بالتوقيع يومياً لإثبات توجدي في أحد مراكز شرطة الاحتلال في رام الله وكان ذلك بتاريخ 1985/5/24. وبعد مرور خمسة أيام على أمر الإقامة الجبرية، في 1985/5/29، تم اعتقالي مجدداً وأفرج عني بعد خمسين يوماً من التحقيق، وفي 7/20 من العام نفسه تم الإفراج عني مع تجديد فرض الإقامة الجبرية عليَّ في بلدة كوبر.

في 1985/8/5 فجعت بحدث كبير وجلل في حياتي الشخصية، إذ توفي والدي، أي جدك حسيب، رحمه الله والذي كان أفضل راعٍ وصديق وأب لوالدتك، وكان سعيداً جداً عندما علم أنها حامل وكان يشتري لها حاجياتها ويحبها ويرعاها كثيراً، ويحسب الأيام بانتظار أن تضع والدتك مولودها.

كان جدك رحمه الله رجلاً فقيراً ولكنه مكافح، عاش حياة شاقة

www.ibtesama.com

وقاسية. كان يحب الناس كثيراً، ويحبه الناس أكثر ويحترمونه ويقدرون كفاحه وصلابته وبساطته، وكان الكثير من أهل القرية يشاركونه الظروف القاسية ذاتها، مما ولّد لديهم علاقة خاصة به. وكان يتمتع بنفس كريمة رغم كل فقره وعوزه، وقد فقد إحدى عينيه منذ طفولته الأولى، فيما كانت عينه الأخرى شحيحة النظر وأجرى لها أكثر من عملية جراحية. عمل جدك في الكسارات قبل النكبة عام 1948 في راس العين واللد ومجدل الصادق، تزوج في فترة متأخرة كثيراً بمعايير الأربعينيات من القرن العشرين، في سن الخامسة والثلاثين من عمره. كان مثالاً للصدق والمحبة والتعاطف مع الناس رغم أنه لم يعرف القراءة أو الكتابة يوماً، كان من جيل عاش الحرمان والفقر والعوز والأمية. وفي العشر الأولى من عمري تقريباً كان يغيب معظم الوقت في العمل ليعود مرة واحدة كل عدة أسابيع، ولا أذكر الكثير عن علاقتي المباشرة به في ذلك الوقت، ولكن بين العاشرة والثامنة عشرة ربطتنا علاقة ممتازة ومميزة، وكنت حريصاً دائماً على رضاه حتى في أمور لم أكن مقتنعاً بها. انتشرت ظاهرة التسرب من المدارس والعمل في السوق الإسرائيلية في السبعينيات من القرن العشرين، وترك عشرات الالاف من الفلاحين والمزارعين حقولهم وتوجهوا للعمل في إسرائيل، حيث عملت سلطات الاحتلال على ضرب الاقتصاد الفلسطيني، وأغرقت السوق الفلسطينية بمنتجات إسرائيلية منافسة ومدعومة لضرب الزراعة الفلسطينية ومنتجاتها، وفرضت الضرائب، وصادرت الأراضي الزراعية، ومنعت حفر الآبار الارتوازية، وسرقت المياه، وسيطرت على مصادرها، وأغلقت عشرات المصانع، ورفضت منح تراخيص لأي مصانع، وأغلقت الباب أمام الصادرات، وأعاقت استيراد المواد الخام، فتحوّل عشرات الآلاف من المزارعين إلى سوق العمل، واستفادت إسرائيل من الأيدي العاملة الفلسطينية الرخيصة. وأذكر أنه بسبب العوز والفقر كان جدك يقول لي: ماذا تستفيد من المدرسة؟ وفي حال أكملت المدرسة ماذا ستفعل؟ ستعمل مدرّساً؟ فالمدّرس لا يحصل على مرتب أسبوع عمل في إسرائيل؟؟ مُضيفاً أنه لا يستطيع أن يساعد أحد وأنه لا يملك نفقات الدراسة. ومع

www.ibtesama.com

ذلك كنت أُصر على الاستمرار في الدراسة، متفقاً مع جدك على أن أعمل أيام الخميس في ورش محلية في القرية والجوار، ولم يكن جدك بالطبع يكـره العلـم أو التعليـم أو المدرسـة بل كان يكره الفقر والحاجة، ولم يكن لديه الاستعداد للتفكير بالمدى البعيد بل كان ما يشغله هو خبزه اليومي. لقد حظيت بالعمل معه في الزراعة، أنت تعرف « أرض الزعرورة»، ساهمت معه في زراعة مئات من أشجار الزيتون في السبعينيات وهي اليوم مثمرة، وتحتـاج إلـى سلّـم لقطف ثمارها، ولا زلت أحفظها شجرة شجرة وغرسة غرسـة، ولهـا فـي نفسـي محبة خاصة رسخها جدك فـي داخلي وربطني بالأرض كثيراً يوماً بعد يوم، وأدركت منذ ذلك الحين أن الأرض تعطي مـن يعطيهـا، وتـروي مـن يرويها، وتحافظ على من يحافظ عليها، وثمة علاقة خاصة يصعب تفسيرها تنشأ بين الفلاح والمزارع والأرض والشجر ربما علاقة قربى أو صداقة من نوع خاص، الشجرة تنمو كالإنسان، ربما تبتسـم أو تعبسـ، هنالـك أشيـاء لا يمكـن تفسيرها، إلا أن علاقة من نوع خاصـ وفريـد ولافـت تنشأ مع الأرض والأشجار والنباتات بل والحجارة في هذه الأرض، هل تذكر عندما ذهبنا إلى الزعرورة معاً، وحدثتك عن الأشجار والأرض بالتفصيل؟

لقـد شكلـت وفـاة جدك حسيب رحمه اللـه صدمة شديدة لي، رغم إيمانـي أن المـوت حـق، وأن لا مفـر مـن هذا المصيـر، إلا أنني كنت أريد بقاء هذا الرجل الفقير الذي عاش مكافحاً من أجل تأمين خبز أسرته وأولاده. كنت أتمنى أن يمد الله في عمره ليرى أولاده قد كبروا وحققوا بعضـ النجاحـات اللائقـة في عملهـم وفي تكوين أسرهم، كنت أتمنى أن يعيشـ بعضـ السنـوات مـن الراحة بعد هذه الرحلة الشاقة بين الكسارات والورش، والنوم في العراء وتحت الأشجار، والارتحال من مكان إلى مكان. كنت أريده أن يرى أحفاده، أن يراك، وكم كنت ستحبه يا قسام، أنا واثق أنه كان سيفرح بك وبإخوتك كثيراً لكنها إرادة الله.

عشتُ في غمرة الحزن لأيام طويلة، ولم أكن أتوقع أن أحزن إلى هذا الحد، وفي وسط هذا الحزن، جاء قرار الحكومة الإسرائيلية بفرض

www.ibtesama.com

سياسة القبضة الحديدية على الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتمثل ذلك في نشر قوات مظلية وخاصة في أنحاء المدن الفلسطينية كافة، وفي إقامة الحواجز الثابتة على نطاق واسع، ونشر الحواجز المتنقلة (الطيارة) على وجه الخصوص، وتشديد أوامر إطلاق النار على المواطنين والسيارات، وازدياد وتيرة الاستيطان ومصادرة الأراضي وإغلاق المؤسسات المقدسية، وكذلك الاستيلاء على بيوت في البلدة القديمة، وتجديد سياسة الإبعاد إلى خارج الوطن، وإقرار سياسة الاعتقال الإداري مجدداً. وبدأت قوات الاحتلال في تنفيذ سياستي الإبعاد والاعتقال الإداري مساء يوم 1985/8/28، حيث كنت آنذاك تحت الإقامة الجبرية التي لم ألتزم بها يوماً واحداً، واستخدمت الطرائق كافة للإفلات منها والتحايل عليها، وقد اعتقلت مرة في منتصف الليل وأنا عائد من أحد الاحتفالات الوطنية من بلدة سلواد، مثلما اعتقل في تلك الليلة أربعة عشر مناضلاً من الكوادر والقيادة الوطنية، تم إبعاد ثلاثة منهم، أما الباقون فقد جرى تحويلهم للاعتقال الإداري. وقد شعرت بالضيق أكثر لاعتقالي هذه المرة لأن موعد الولادة بات على بُعد أقل من شهر ونصف، وكان جدك قد توفي قبل عدة أيام.

حبيبي القسام... لأنني كنت أتوقع الاعتقال والإبعاد أو الاستشهاد فقد اتفقت مع والدتك مسبقاً على اختيار الاسم في حال كان المولود ذكراً، وأن يكون القسام. لقد كنت على قناعة تامة بهذا الاسم. ولم ينتبني أدنى تردد، علماً أنه لم يكن منتشراً أو مستخدماً في البلاد. كان الانتشار فقط لاسم عز الدين، وليس للقسام. والحقيقة أن هذا القرار بخصوص الاسم قد تبلور لدي في السجن قبل عدة سنوات من ميلادك، حيث كنت وما زلت احمل احتراماً خاصاً لهذا الشيخ الجليل عزالدين القسام، الذي قاتل وقاوم الاستعمار الفرنسي في سوريا. وعندما هرب من وجه المستعمرين وسكن في حيفا وأصبح خطيباً لمسجد الاستقلال منذ عام 1926 بدأ بإطلاق دعوة للجهاد ومقاومة الاستعمار البريطاني، حيث اعتبر وبحق أن المقاومة يجب أن تتوجه ضد المستعمر، وليس مساومته أو مهادنته، أو البحث عن صداقته لمواجهة المشروع الصهيوني والاستيطاني، باعتبار أن من

www.ibtesama.com

اطلـق هـذا المشـروع ورعـاه مـن خلال وعد بلفـور أولاً، ومن خلال الانتداب البريطاني ثانياً، هو الاستعمار البريطاني. ولهذا أصاب القسام فـي تحديـد العـدو الرئيسـي والمباشر كما أنه أقام نواة لتنظيم محكم تمكن لاحقـاً مـن إطـلاق الرصاصة الأولى عام 1936. باختصار، كنت أرى في عز الدين القسام نموذجاً يُحتذى في السلوك والشجاعة والإقدام لأنني درست تجربته بكل تفاصيلها.

ثمـة أمـر مهـم لا بـد مـن قوله وهو أنني حتى لو كنت معجباً كثيراً بأسمـاء ثوريـة ورمـوز نضالية فإن الحياة والتجربة كانتا تدفعاني للحذر من تسمية ابني بأسماء قادة ثوريين أو رموز أحياء خوفاً من أن يتحولوا وينحرفـوا لاحقـا، ولذلـك فـإن الشهداء وحدهم لا يمكـن أن يتحولوا أو يتغيروا، ويمكن الوثوق فيهم بشكل مطلق، ومن المهم تكريمهم بأن يحمل أبناؤنا أسماءهم، ولهذا كان قراري أن تُسمى القسام، بالتشاور مع والدتك التي وافقت بلا تردد ورحبت بهذا الاسم. وكنت واثقاً دائماً أنك ستكون جديـراً بحملـه مـن دون الشعـور بأنه عبء عليـك، الأمر يتعلق بتكريم شهدائنـا العظمـاء بأبسـط الأشياء الممكنة لأن الأمم والشعوب تعتز وتقدر شهداءها. فهم شرف الأمة، ورموز كرامتها وعزتها وتعبير عن إرادتها الحـرة والأصيلـة لأن حريـة الشعـوب لا تتحقـق إلا بالتضحيات، ولأن صناعهـا هـم الذيـن ضحوا بأرواحهم في سبيـل حرية أوطانهم واستقلال شعوبهـم. وفـي حالتنـا الفلسطينية، فإن قوافل الشهداء قد بعثت من جديد هويتنـا الوطنيـة التـي أراد أعداؤنـا لهـا أن تندثر وتختفي. والشهداء هم مـن حققـوا هـذا الاعتـراف الدولي لقضيتنا، وهم من أعادوا فلسطين إلى الخارطة السياسية ولاحقاً الجغرافية أيضاً.

حبيبـي الغالـي.... ولـدي العزيز... كان اللقاء الأول بيننا في الأول من آذار، وهو يوم خروجي من السجن بعد الاعتقال الإداري. تعـود بـي الذاكـرة لـذاك اليوم وأنت فيه ابن الأشهـر الخمسة، متلهفاً للوصـول للبيـت، حيـث خرجـت من سجن جنيد بالقـرب من نابلس، وأخـذت منـي الطريـق أقل من ساعة لكننـي حسبتها زمناً طويلاً. وما

www.ibtesama.com

إن وصلت إلى البيت حتى اتجهت إليك أقبّل يديك وقدميك ورأسك وعينيك ووجنتيك الجميلتين، وضعتك في حضني على مدى الأيام، ولعبت معك فخوراً بك ومبتهجاً، وسيطرت على ذهني في تلك الأيام فكرة أنه لا يجوز أن تكبر وتعيش تحت الاحتلال وتدخل السجن. فليس من العدل أن يعيش آباؤنا وأجدادنا تحت الاحتلال بأسمائه وأشكاله المختلفة ثم نعاني نحن، ونتحمل ذل الاحتلال الصهيوني وسجونه وعذاباته، وأن نورث هذا لأبنائنا. كبر لدي الحلم وأنا أقبلك وأنظر إليك قائلاً لنفسي يجب ألاّ أدع القسام وأبناء جيله يعيشون هذا الذل والقهر الذي نعيشه تحت الاحتلال. ويجب ألاّ يدخلوا الزنازين وألاّ نقبل بدفن أولادنا، بل يجب أن يدفننا أولادنا فهذا هو القانون الطبيعي وهذه سنّة الحياة؛ أن يدفن الأبناء آباءهم وليس العكس، يوماً بعد يوم كانت هذه القضية تؤرقني وشعرت دوماً أننا في سباق مع الزمن؛ بين أن يكبر أولادنا، وبين أن ننجز الحرية والاستقلال لهم، وأن نجنبهم المعاناة التي عشناها، لقد قضيت بضعة أشهر معك في عام 1986 إلى أن تعرضت للمطاردة مُجدّداً من قبل قوات الاحتلال منذ أكتوبر 1986، وأصبحت محروماً من النوم إلى جانبك وتقبيلك صباحاً ومساءً. وكانت جدتك في أثناء ذلك تعتني بك بصورة دائمة لأن حبها لك لم يكن له حدود. وفي هذه الفترة، وتحديداً في 1986/11/28، وضعت والدتك أختك الحبيبة ربى، ورغم المطاردة والملاحقة فقد تمكنت من الوصول إلى المستشفى والاطمئنان على والدتك وعلى الحبيبة الصغيرة ربى، صاحبة الاسم الجميل المرتبط بالأرض وبالتلال والروابي، وقد فرحت كثيراً بميلاد أختك ربى لأنني أحببت دوماً أن يرزقني الله أبناءً من الذكور والإناث، ولأنني أعتبر المرأة واهبة المعنى الجميل للحياة. فهي ينبوعها المتجدد دوماً. كما أن إيماني بدور النساء وحقوقهن لا يتزعزع، وهو جوهري وأساسي في أي مجتمع. فالمجتمع الأكثر نجاحاً وتقدماً هو الذي يمنح المرأة حقوقها الكاملة، ويؤمن بدورها في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي المجالات كافة. وفي

www.ibtesama.com

حالتنا الفلسطينية، إن للمرأة دوراً بارزا في تجذير الهوية الوطنية وفي التربيـة والتعليـم، وفـي تطوير المجتمع. منذ انطلاقة الثورة الفلسطينية عام 1965، تعزز دور المرأة، وخاضت كل مجالات النضال من دون استثناء. فحملت السلاح والحجر والمولوتوف والقلم والكتاب والكاميرا الصحفيـة، وعملـت في المدارس والصحة والاقتصاد، ولم يتبقَ مجال إلا وخاضته إلى جانب الرجل، مُشكِّلةً ركناً أساسياً في حركة التحرر الوطنـي الفلسطينـي بفصائلـه المختلفة والمتعددة. ولا يمكن أن نتصور مجتمعاً حديثاً من دون أن تأخذ المرأة مكانتها ودورها الكاملين.

حبيبـي القسـام.. بعـد مطـاردة لأكثر من ثمانية أشهر بين الأعوام 86-87 تمّ اعتقالي وإبعادي عن أرض الوطن بأمر عسكري موقّع من وزير الحرب الإسرائيلي آنذاك إسحق رابين. وقد شهدت الأعوام 85-89 موجة من عمليات الابعاد إلى خارج البلاد شملت عشرات القيادات والكـوادر المناضلـة. وسياسـة الإبعاد اتبعتها سلطات الاحتلال منذ اليوم الاول للاحتـلال فـي الضفة والقطاع، بهدف إفراغ الأراضي الفلسطينية مـن الشخصيـات والقـادة والكـوادر. فتـم إبعاد رجال ديـن، وكتّاب، وصحفيين، وأدباء، وأساتذة جامعات، ورؤساء بلديات، وقادة سياسيين، ومناضليـن، وناشطيـن فـي ميادين مختلفة. وكان الهدف حرمان الشعب الفلسطينـي فـي الأراضـي المحتلة وحركته الوطنية من القيادات والكوادر المجربة والمتمرسة لتسهيل سيطرة الاحتلال كما كان يتوهم قادته.

أقـول لـك يـا قسام إننـي وفي كثير من الاعتقالات التي تعرضت لهـا، وخـلال التعذيـب والسجن بأنواعه المختلفة، لم أبكِ يوماً، لكنني أصارحـك بأنـه عندما قـرأ لي أحد القادة العسكريين الإسرائيليين قرار الإبعـاد لـم أتمكـن مـن حبـس دموعـي. لقـد كانت واحدة مـن أقسى اللحظات، وأشدها مراراة وإيلاماً في حياتي. فمن يملك الحق بطردي مـن وطـن الآبـاء والأجداد؟ ومن هو هذا الحاكم العسكري الذي يقرر أن يقتلعنـا بقـوة السـلاح مـن بلادنا التي ولدنـا فيها وتربينا وترعرعنا فيهـا؟ أليـس هـذا هـو العدوان والتعسف والطغيـان والقهر؟ من يعطي

www.ibtesama.com

الحـق لقـادم جديـد مـن بولندا أو روسيـا أو أمريكا قبل أعوام أو حتى عقود أن يطرد أهل البلاد الأصليين وأصحابها التاريخيين الذين يعيشون ويسكنـون فيهـا منـذ أكثـر مـن أربعة آلاف عام علـى الأقل؟ إن عمر أجدادي في هذه البلاد هو عمر البلاد نفسها، فأرضها فلذة منا ونحن فلـذة منهـا. وعلـى مدار التاريخ طورنا نحن الكنعانيون في هذه البلاد حضارتنا العظيمة، وصمدنا في وجه الغزاة الذين مروا عليها واحتلوها وحكموهـا. لكنهـم رحلـوا وبقينا، وبقيـت بلادنا وأرضنا لنا. لقد صمد أجدادنا في وجه الغزاة على اختلاف مسمياتهم وأنواعهم، ورحل جميع الغزاة، وبقي الفلسطينيون على هذه الأرض. وقد أكرم الله بلادنا وهذا الشعب بأن اختارها لتكون مهداً للديانات السماوية الثلاث، لتكون أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، واختارها لتكون مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومهد السيد المسيح عليه السلام. إن لهذه البلاد تاريخـاً عظيمـاً ينـدر أن تحظـى بلاد أخرى بمثله، ولم يعرف التاريخ إمبراطوريـة كبـرى أو عظمـى إلا وامتـدت أطرافهـا وطموحاتها إلى هذه البلاد المميزة بموقعها الجغرافي والاستراتيجي، والمميزة بمناخها وتضاريسها، وبتاريخها، وبالتنوع والتعددية في مجتمعها.

لقـد ظـل شعبنـا على مدار التاريـخ محافظاً على حضارته وبلاده، وعلى وحدته في إطار التعددية الدينية والسياسية الجريئة، وحافظ على علاقاتـه السلميـة مـع جيرانه دوماً، وظـل يعمر بلاده وأرضه، ويطور حضارتـه وإلـى أن جـاءت الغـزوة الصهيونيـة مستخدمـة كل الوسائـل للسيطـرة علـى بلادنـا. فسخرت الإمكانات المالية الهائلة لدى اليهود في العالم، وحشدتهم من بقاع الدنيا المختلفة، جامعة المال والرجال والنساء تحت شعار العودة لأرض الميعاد؛ أرض اللبن والعسل، ومُستخدمةً كل الأساليـب للاستحـواذ علـى الأرض وإطـلاق مشروعها الاستيطاني. لقد اعتبـرت الحركـة الصهيونيـة نفسهـا رأس حربة للمشـروع الاستيطاني الاستعمـاري الامبريالـي، الـذي قدم لها وعد بلفـور ثم الانتداب، وبعد ذلك السلاح والمال والعتاد، والدعم الدولي، وقرار التقسيم عام 1947،

www.ibtesama.com

الـذي تشكّلـت بعـده مباشـرة العصابات الصهيونيـة المسلحة التي حصلت على أفضل تدريب عسكري على أيدي جنرالات دول عظمى كبريطانيا وغيرهـا، وعلـى الأسلحـة المتطـورة وبكميات هائلـة وذخيرة ضخمة، وتمكنت من تكوين جيش نظامي لا يقل عن 80 ألف مسلح في وحدات وكتائـب وألويـة منظمـة جداً، إضافـة إلى عشرات الآلاف من المسلحين المدربيـن جيـداً لـدى معسكـرات العصابات الصهيونية التـي شنت حرباً عدوانيـة بهـدف طرد الفلسطينيين، أصحـاب البلاد الأصليين، وارتكبت عشـرات المجـازر، وقتلـت الآلاف. وما مذبحة دير ياسين والطنطورة ويافا وحيفا وصفد وغيرها إلا نماذج وأمثلة على ذلك. كما شنت القوات الصهيونية عملية تطهير عرقي غير مسبوقة في تاريخ هذه البلاد، وأجبرت غالبيـة الفلسطينييـن علـى الرحيل، مستخدمة المجازر والتخويف والتهديد والتجويع والإرهاب، وقامت بتدمير أكثر من 524 قرية فلسطينية يفوق عمـر بعضهـا الألفـي سنة. وكذلك دمر الصهاينة عشرات آلاف البيوت، ونهبـوا ممتلـكات أصحابهـا، وأقامـوا على أنقاض مدننـا وقرانا المدمرة وأنقاضـ مئـات الآلاف مـن اللاجئين دولتهم وكيانهم. ولم يكتفوا بإقامة دولة طبقاً لقرار التقسيم الذي منحهم 56% من ارض فلسطين، بل احتلوا نصف المساحة المخصصة لدولة فلسطين وهي 42% لتصبح دولة الكيان الصهيوني قائمة في العام 1948 على 78% من أرض فلسطين، وما لبثت بعـد استراحـة دامـت مـا يقارب العقدين أن احتلت مـا تبقى من فلسطين لتصبح فلسطين بأكملها وبنسبة 100% تحت الاحتلال الصهيوني، وذلك عقب عدوان 1967.

وبطبيعة الحال فإن شعبنا تصدى ومنذ اليوم الأول للغزو الصهيوني الامبريالي لبلادنا، واحتج بالوسائل كافة على إقامة المستوطنات، وحرّم بيـع الأراضـي، وعقـد المؤتمرات، وأرسـل المذكرات، وحاور جهات مختلفة وتواصل معها، إلا أن المخطط الصهيوني الاستيطاني الاستعماري كان أكبر من طاقات شعبنا وإمكاناته. وقد كانت ثورة 36 واحدة من أهم الثورات التي شهدها الوطن العربي في ذلك الحين وواحدة من الثورات

www.ibtesama.com

البارزة في العالم. لكن هذه الثورة أخفقت، وانتهت فعلياً في عام 39 بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبسبب القمع البريطاني الهائل للثورة؛ من هدم بيوت وحصار ومنع تجوّل وتدمير مزروعات وزيادة ضرائب واعتقال للآلاف وإعدام للمئات وإبعاد عشرات القيادات، إضافة إلى العوامل الذاتية الفلسطينية، وفي مقدمتها غياب وحدة القيادة السياسية والعسكرية، وغياب خطط الإمداد والسلاح والتموين والتمويل، فضلاً عن انتشار حالة الانقسام بين معارضة ومجلسية، واندلاع الصراعات والنزاعات المسلحة الداخلية في العديد من المناطق. وفي الوقت نفسه غياب الحليف أو الركيزة الإقليمية أو الدولية.

على الرغم من كل التضحيات التي قدمها شعبنا، فإن هذا لم يمنع وقوع النكبة عام 1948. ورغم تقديرنا العالي لكل الضباط والجنود والمتطوعين العرب الذين سقطوا في معركة الدفاع عن فلسطين في عام 1948، فإن جموع الجيوش العربية السبعة مع المتطوعين لم يكن يعادل لواءً صهيونياً واحداً لجهة التسليح والعدد والتجهيزات والتدريب. لقد جاءت الجيوش من دون خطة موحدة أو قيادة فعلية، بل كانت تديرها أنظمة مرتبطة بالاستعمار البريطاني والفرنسي؛ الأمر الذي أدى إلى هزيمتها، مع أنها أثارت أوهاماً واسعة وكبيرة لدى الفلسطينيين الذين اعتبروا ان هذه الجيوش قادرة على هزيمة عصابات الاحتلال الصهيوني المدعومة من بريطانيا.

لقد شكلت نكبة فلسطين كارثة حقيقية غير مسبوقة في تاريخ شعبنا وأمتنا وهي واحدة من الجرائم التاريخية البارزة في العصر الحديث، وشكل من أشكال حرب الإبادة الجماعية، التي تعرضت لها بعض الشعوب والمجموعات البشرية، بما فيها اليهود أنفسهم، الذين تعرضوا لحرب إبادة جماعية على أيدي النازيين إبان الحرب العالمية الثانية. ومن المفارقات أن الفلسطينيين قد تعرضوا لحرب الإبادة والقتل والتهجير والنفي واغتصاب الأرض والوطن على أيدي من ذاقوا لوعة الإبادة على أيدي النازيين. فكان الفلسطينيون ضحايا لضحايا النازية. وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد جلبت علينا كارثة وعد بلفور والاحتلال

www.ibtesama.com

البريطاني، فإن الحرب العالمية الثانية قد تسببت في تقسيم فلسطين، وفي إقامة دولة إسرائيل على أنقاض الشعب الفلسطيني.

كانت كارثة النكبة قاسية ومريرة، وصدمة فاجعة لأبناء فلسطين، فهي المرة الأولى التي يتعرض فيها الفلسطينيون إلى حرب إبادة وقتل وتدمير وطرد جماعي من بلادهم. ولأول مرة يرى الفلسطينيون مدنهم وقراهم وبلداتهم وممتلكاتهم تتعرض للتدمير والاغتصاب. ولأول مرة تتحول غالبية الشعب الساحقة إلى جموع من اللاجئين المحتاجين إلى المساعدة والإغاثة والرعاية. وفي أعقاب النكبة دخل شعبنا في نفق مظلم، وعاش حالة من التشرد والشتات والضياع والوصاية وغياب الهوية وانهيار حركته الوطنية وقيادته.

بعد ما يقارب العقدين من النكبة بدأ الفلسطينيون مجدداً من خلال إطلاق الثورة المسلحة المعاصرة بقيادة حركة فتح في الأول من يناير 1965، رحلة طويلة وشاقة ودامية لاستعادة هويتهم وأرضهم وبلادهم، رحلة تحرير وطنهم ونيل حريتهم واستقلالهم.

ولدي الحبيب ورفيق الدرب.... درب الآلام،

بعد الإبعاد القسري والمؤلم والظالم عن أرضنا المقدسة، بعدة أشهر لحقت بي أنت ووالدتك وأختك ربى وذلك في شهر حزيران على الأرجح، حيث كان لقاؤنا الأول وبعد غياب فعلي دام قرابة السنة، وذلك في عمان. لقد كان لقاء حميماً أشعل في داخلي كل مشاعر الأبوة والحنان. كانت المرة الأولى التي نجتمع فيها تحت سقف واحد كأسرة ولو في المنفى وخارج الوطن. فالمنفى ومنذ النكبة أصبح جزءا لا يتجزأ من الحياة الفلسطينية والذاكرة الفلسطينية، بما يحمله من معاناة ومعركة ذاتية قاسية مع الذاكرة، وما يحمله من قهر ومرارة، ومن قسوة العيش بعيداً عن الوطن والأهل والحرمان من الشوارع والأزقة والحارات والأشجار والمباني والناس والطبيعة الخاصة، من جبال وسهول وأشجار وعيون وآبار ومن تراب وطني وحجارة ومن شمس ومطر ومن بيوت ومساكن. إن الاشتياق للوطن لا يعادله إحساس آخر، خاصة وكما تعرف

www.ibtesama.com

أنه لم يسبق لي مغادرة فلسطين قطّ إلاّ يوم إبعادي. خضت طوال الوقت معركة مع ذاكرتي التي تصر على رفض التعامل مع الأمكنة في المنفى، بهدف الحفاظ على صورة الوطن بكل تفاصيله.

لم يكن المنفى تجربة سهلة بل قاسية ومريرة وفيها قدر من الذل. فالعيش المرير والقاسي في الوطن ولو في ظل الاحتلال أهون بكثير من المنفى، لأنك داخل وطنك تعيش في أرضك وبين أبناء شعبك، كما أن من يقاتل من أجل وطنه ينتابه شعور بالحرية، ولا يُسلِّم بأنه تحت الاحتلال؛ فهو يرفضه ولا يهادنه يوماً واحداً.

لكن ما كان ما يخفف علي وطأة المنفى هو وجودك وأختك ووالدتك معي على مدار الساعة، وكانت المرة الأولى التي أشعر فيها بوجود اسرة وما تعنيه بالنسبة لي ولكم.

كانت تلك الأيام ممتعة نسبياً في بعض جوانبها لأنني شعرت بقدرتي على تعويضكم عما فاتنا من أوقات ولو بالحد الأدنى لكنني سرعان ما غرقت في العمل وتأدية الواجب مرة اخرى، وبقي الأمر على هذا الحال إلى حين عودتنا إلى أرض الوطن. كانت المرة الأولى التي اصطحبتك فيها إلى مدينة الألعاب والحدائق، وكانت متعتي لا تقل عن فرحتك بتلك الألعاب فهي المرة الأولى لي أيضاً معك، كما أنه لم يسبق لي في طفولتي أن رأيت ألعاباً أو حديقة أو أي شيء آخر يفيد الأطفال ويسلّيهم وذلك أسوة بكل أبناء جيلي.

هل تذكر يا قسام القصة الأولى التي رويتها لك؟ أنا واثق أنك ما زلت تذكرها، فقد حدثتك عن «دلال المغربي»، ابتكرت حكاية من خيالي تدور حول تلك البطلة ورويتها لك مراراً قبل النوم، كما حاولت أن أحدثك عن النكبة، واغتصاب فلسطين، واللاجئين، والمخيم، والثورة، ورفض النكبة، ورفض الاحتلال، ودور المرأة، وشجاعتها في الثورة الفلسطينية، وأخذت دلال المغربي قائدة العملية الفدائية في ساحل فلسطين مثالا لذلك وكنت أحاول بهذه القصة وغيرها أن أنقل لك مبكرا درب الآلام الفلسطيني، من دون أن أثقل عليك كثيراً؛ لكنني أردت أن تعرف. ثم هل

www.ibtesama.com

تذكر كم سهرت إلى جانبي وأنا أحرر وأكتب وأعد الرسائل للتنظيم وقيادة الانتفاضة في الداخل؟ حيث عملت خلال فترة الإبعاد وحتى عودتي، منسقاً لشؤون الحركة والتنظيم في الداخل، وقد شاهدت يا قسام أعداد الرسائل وكيفية لفها بالنايلون لجعلها «كبسولة» يسهل تهريبها وتمريرها عن طريق جسر العبور من فلسطين إلى الأردن، الجسر الذي أصبح يعرف بمعبر الكرامة. كما أذكر أنني في أثناء تجهيز الرسائل ولفها بالنايلون وحرق أطرافها كي لا تفتح، وجدتك تفعل ذلك لوحدك.

كنت أحرص أن تعود سنوياً أنت والأسرة إلى فلسطين، وأعتبر ذلك تعويضاً عن الحرمان الذي أعيشه أنا حيث كنت أرى الشوارع والأزقة والوطن والأهل والأصدقاء بعينيك يا قسام. كنت أحيانا أقوم بنقلك إلى المعبر الذي لم أكن قد عبرته أو مررت منه قط لأعود بعد ذلك مصحوباً بالحسرة والمرارة ذارفاً دموعي على الطريق.

هل تذكر يا قسام عندما كنت تجلس في حضن الشهيد أبو اياد في منزل الشهيد أبو جهاد في تونس ؟ لقد سألك أبو اياد من تحب أكثر في هذه الدنيا يا قسام؟ فأجبته أنك تحب أبو عمار وأبو جهاد وتوم وجيري وأنت، مشيراً إلى أبو إياد فتعالت الضحكات من قبل جميع الحاضرين.

حبيبي قسام... كان المنفى فترة ممزوجة بالمعاناة الشخصية المريرة، بعيداً عن الوطن والأهل، لم تخلُ من العقبات والمعاناة مع ذوي القربى من الأشقاء العرب. ولكن وجودكم معي خفف كثيراً من هذه المعاناة. وهل تذكر يا قسام لحظة العودة إلى أرض الوطن؟ إنها اللحظة الأجمل التي عشتها في حياتي حتى الآن. إنه يوم عظيم، في الخامس من نيسان 1994، عادت أول مجموعة من المبعدين بعد اتفاق أوسلو. والغالبية الساحقة من هذه المجموعة من كوادر وقادة الانتفاضة الشعبية الأولى. هل تذكر تلك الفرحة التي لا حدود لها؟ كنت مصراً أن أصطحبك معي في رحلة العودة الخالدة والأبدية إلى أرض الآباء والأجداد. أذكر أنني لم أعرف طعماً للنوم والراحة.

www.ibtesama.com

انطلقنا صبيحة الخامس من نيسان في يوم جميل من أيام الربيع، نحو جسر العودة وإن كانت الرحلة شاقة ومتعبة خاصة للصغار أمثالك يا قسام، إلا أنها تستحق كل هذا التعب والإرهاق، وقد حملتك معي في كل اللحظات وفي كل الأوقات وأمام الناس وفي الاستقبال، وعندما تحدثـت للناس باسـم المبعدين العائدين، وكنت أريد أن تستمتعوا بهذه العودة الرائعة.

قلت لك يا قسام إننا نعود، وقد انفتحت نافذة صغيرة باتجاه العودة إلى فلسطين، وأعظم ما يحدث الآن هو أن سيل التهجير والطرد والنفي والإبعاد سيتوقف وإلى الابد، وأن التاريخ منذ اليوم، 5 نيسان، سيسجل بداية رحلة العودة ويسدل الستار وإلى الأبد على التهجير والطرد. لقد كنت رغم تحفظاتي ومخاوفي مما هو قادم ومن اتفاق أوسلو ونواقصه الواضحــة واحتماليــة إخفاقــه، على قناعة أنــه كان من الممكن التوصل لاتفاق أفضل من أوسلو بكثير. ولكن تم التوقيع على الاتفاق، وأتيحت لنا فرصة للعودة فلا يجب التردد للحظة واحدة، ولا أستطيع أن أفهم عدم عودة أي فلسطيني تُتاح له الفرصة للعودة تحت أي مبرر كان. كان يـوم العـودة جميـلاً ولا ينســى أبـداً. لقد عـدت إلى وطني وأهلي وعائلتـي وبيتـي وقريتـي وجامعتي، وإلى الشـوارع والأزقة والجبال والأشجـار التـي أحببـت ولـم أشبع من تقبيلهـا والنظر إليها حتى الآن، كان حلمـي أن ننجـح فـي إنهـاء هذا الصراع الدامي ولو بالحد الأدنى، وقـد فهمـت أن الفلسطينييـن سيَمنحـون الاتفـاق والسـلام فرصة، لأن فـي نظرهـم جميعـا السلام هو نهايـة الاحتلال وإقامة دولة مستقلة على الأراضــي المحتلـة عـام 1967، عاصمتها القدس الشريف وحل قضية اللاجئيـن بالعـودة طبقـاً للقـرار الدولي 194. عملنـا جميعاً لكي يتحقق هـذا الهـدف، وكنـت أرى ضرورة أن نخوض هذه التجربة وأن نمنع المعانـاة عـن شعبنـا ونمنح فرصة للسلام بين الشعبين، وكنت أرى أن هـذا واجبنـا تجـاه شعبنـا وبلادنا وتجاه أطفالنا، وقد حاولت يا قسام أن أشـرح لـك ذلـك وأن أبشرك بعهـد جديد من الحرية والسلام، مع أن

www.ibtesama.com

الأسئلة التي لا إجابات عليها لم تتوقف وكانت تجعل الحديث عن السلام مُتعارضاً مع الواقع والوقائع على الأرض.

كانت لديك عشرات الأسئلة التي تصعب الإجابة عليها، ومع ذلك فقد كنت أراك مستمتعاً بالحياة في الوطن وفي المدرسة ومع الأصدقاء والزملاء رغم افتقادك للمرافق الخاصة بالأطفال، وكنت أعتقد أنه يجب علينا أن نبذل كل ما نستطيع لتجنيب شعبنا وتجنيب جيلك يا قسام العودة للصراع الدامي. أردت أن لا تشهد أنت ورفاقك حرباً أو صراعاً عنيفاً. أردت لهذا الجيل أن يعيش كما يعيش أطفال العالم، وأن يتمتع بالحياة وأن يعيش المشاكل والهموم العادية كما كل شعوب الأرض.

لكن يا قسام كل الجهد الذي بُذل لم ينجح، ولم نتمكن من تجنب الصراع مع هذا العدو المتوحش الذي لم ينضج للسلام الحقيقي ولو بحده الأدنى. إننا أمام عدو يتمتع بشهية واسعة لنهب الأرض والاستيطان والاحتلال والقتل.

لقد فشلت عملية السلام بسبب رفض إسرائيل الالتزام بتنفيذ الاتفاقات على نواقصها، ورفضت التسليم بالحقوق الوطنية الثابتة لشعبنا، ورفضت دفع استحقاقات السلام وفضلت الاحتلال والاستيطان على السلام والأمن والتعايش، ورغم كل المحاولات فإن المجتمع الإسرائيلي لم يكن ولا يزال غير جاهز للسلام الحقيقي. الفلسطينيون قدموا تنازلات مذهلة من أجل التوصل للسلام، حيث اعترفوا بحق إسرائيل في الوجود على 78% من أرض فلسطين، واكتفوا بالمطالبة بـ22% من الأرض وهي مرحلة انتقالية بشروط قاسية ومذلة في كثير من جوانبها، ومع ذلك كيف تصرف الإسرائيليون؟؟

لقد واصلوا بل ضاعفوا مصادرة الأراضي وعدد المستوطنات والوحدات السكنية في المستوطنات، وما أقامه المحتلون في الفترة الممتدة من العام 1993 إلى العام 2000 يعادل ما أقاموه من العام 1967 إلى العام 1993، كما استمروا في سياسة عزل القدس وتهويدها وبناء المستوطنات فيها، وإغلاق المؤسسات الفلسطينية على اختلاف أنواعها والتضييق على سكانها بهدف إجبارهم على الهجرة منها وتفريغها. لقد شن الإسرائيليون

www.ibtesama.com

حرباً شاملـة فـي سباق مع الزمن لمصـادرة الأراضي وبناء المستوطنات وتهويد القدس كما أنهم رفضوا إطلاق سراح الأسرى ما تسبب ببقاء الآلاف داخل السجون حيث يقضي بعضهم عامه الثلاثين الآن خلف القضبان.

ولـدي الحبيـب، ومـع كل ذلـك فقد انتظـر الفلسطينيون ما يسمى بمفاوضات الحل النهائي التي تأجلت أربع سنوات على أمل أن تصحح المسـار، وتنهـي القضايا كافة، وتخـرج الفلسطينيين من مرحلة الحلول الجزئيـة والانتقاليـة. وجـاءت مفاوضـات كامب ديفيد فـي شهر يوليو/ تمـوز 2000 مخيبـة للآمـال، وشكلـت صدمـة للفلسطينيين حيث حاول الإسرائيليون والأميركان فرض تسوية مذلة جوهرها حكم ذاتي موسع لا أكثر ولا أقل.

إن جملـة هـذه التطـورات وتجربـة الفلسطينيين خلال سبع سنوات مـن المفاوضـات أوصلتهـم إلى قناعة بأن الإسرائيليين لا يريدون تسوية مقبولة تلبي الحد الأدنى للمطالب الفلسطينية المدعومة من الشرعية الدولية والمجتمع الدولي.

ولا بـد هنـا مـن التذكيـر أن خيبة الأمل أصابـت قطاعاً واسعاً من الفلسطينيين بسبب الأداء الفلسطيني الرسمي التفاوضي والمالي والإداري والأمنـي والاقتصـادي، وانتشـار ظاهـرة الفسـاد لدى الفئـة المتنفذة في مؤسسـات السلطـة، وهـدر المـال العام وسرقتـه والعبث به، وبرز إلى الواجهـة «أثريـاء جـدد» على حساب الغالبية الفقيـرة من أبناء المجتمع، كمـا انتشـرت ظاهرة التسيب الإداري والفوضى الأمنية والأداء التسلطي للأجهـزة الأمنيـة. كل هـذا اجتمـع في لحظة واحدة ليشعل نار الانتفاضة التـي كانـت زيـارة أرئيل شـارون للمسجد الأقصى السبب المفجر لها أو عود الثقاب الذي ألهب نيرانها.

حبيبي قسام،

لقـد شعـرت بالألـم بسبـب حجـم التضحيـات التـي اضطـر شعبنا لتقديمهـا لأن حلمـي بتجنيبـك أنت وجيلك كامـلا ويلات الصراع الدامي لـم يتحقـق، ولـم يكن أمام الفلسطينيـن من طريق سوى خوض معركة

www.ibtesama.com

الحريــة والاستقــلال بــكل شجاعة وبسالــة. وهذا ما فعله شعبنا الذي دفع خيــرة أبنائــه بيــن شهداء وجرحـــى وأسرى، وقدم أسطورة غير مسبوقة في الصمود ومارس كل أشكال النضال من دون استثناء.

شعبنــا سينتصــر لا محالــة، وقــد لاحت أولى بشائــر النصر بخروج المحتــل مــن قطــاع غزة الحبيب. وإن الانتفاضـــة والمقاومة اللتين أجبرتا المحتــل علــى الانسحــاب مــن غــزة ستجبرانه على الانسحــاب من الضفة والقدس.

رغم حجم التضحيات الباهظة ورغم الفقر والعوز والجوع، ورغم القهر والحصار والأسوار والجدران والعزل والقتل والاغتيال والاعتقال فــإن شعبنــا صامــد وقــادر على تحقيق الانتصــار. وإن الأمم والشعوب الحية لا تتردد في تقديم التضحيات في سبيل حريتها واستقلالها وعزتها وكرامتهــا، وإن ممارســة الكفــاح والنضــال هي أعلــى درجات الانتماء الوطنــي وأعلــى درجــات الشعــور الإنسانــي وأعلى درجــات التضحية والفــداء. أقــول لــك يــا حبيبــي ولــكل أبناء جيلك الذي صنــع الانتفاضة المباركــة إن يــوم الحريــة قــادم، وإن زوال الاحتــلال حتمــي. فمهما افتعــل مــن أساليــب، ومهما تحايل، ومهما استخدم من قوة فمصيره إلى مزبلــة التاريــخ إلــى جانب الفاشية والنازية والإرهاب والعنصرية، وإن اليــوم الــذي يحتفــل فيــه شعبنا ومعه أمته وكل الأحــرار والأصدقاء في العالم ليس ببعيد.

حبيبــي الغالــي وصديقــي العزيز وولدي الــذي أحب وأعشق، إنني فــي غايــة الاشتيــاق إليــك، أشتــاق لعينيــك ووجهك الجميــل ولابتسامتك وضحكاتك التي أسمعها من بعيد في زنزانتي، وأتذكر كل لحظة قضيتها معك وهي من أجمل لحظات عمري؛ وهو الشعور ذاته الذي أكنّه لربى الحبيبــة والحبيبيــن شــرف وعرب، الذين يعيشــون على مدار الساعة في عقلي وقلبيَ ووجداني.. أتذكر كل ابتسامة وضحكة لكم، وأتذكر المزاح واللعــب والجــدال والنقاشــ والتصويت لنُقرر الذهــاب إلى هذا المكان أو ذاك إيمانا منا بالديمقراطية الأسرية، لأن الديمقراطية سلوك يمارس منذ

www.ibtesama.com

الـولادة ويكبـر كمـا يكبـر النـاس، وتربية يجـب أن تمارس في كل بيت وأسرة ومؤسسة ومدرسة ومكان.

حبيبـي القسـام..... أعـرف أنك تعيش ظروفاً قاهرة وصعبة في السجن، وأعرف أن هذا العدو المحتل قد حرمك من أن تكون على مقاعد الدراسة الجامعية أسوة بزملائك الذين تخرجوا من المدرسة معك، وأنك شـاب فـي بدايـة مشوارك تحـب أن تعيش وتفرح وتسافر وتأكل وتلبس وتذهب وتجيء مع الأصدقاء، وأعرف أن السجن يعني الحرمان وانتزاع أدنى أشكال الحرية وأبسط مظاهرها؛ فحتى النوم يتحكم به السجّان فضلاً عن الأكل والشرب والملبس والحركة. حتى إنّ دخول الحمام والخروج منه شكل من أشكال الاستعباد وقهر الإنسانية والإنسان. ومع ذلك، فإن قدرنا أن نتفوق على هذا السجّان والمحتل مسلحين بالإيمان المطلق بالله وبحقنا التاريخي والوطني والقومي والديني والإنساني والقانوني في هذه البلاد.

إنني على ثقة أنك قادر على تحمل قسوة السجن، وظلمة الزنزانة، وذل القيـد وقهـره، وضيـق المـكان، وجمود الزمـن، وهموم الإخوة والزملاء في السجن ورفاق الدرب، وعذابات الفراق والبعد عن الأم العظيمة والوالد والإخوة والأخت والأهل والأصدقاء والشوارع والبيت والناس. إنني على ثقة أنك وإخوانك من الشباب الذي يمثل ربيع شعبنا وبلادنا الدائم قادرون على اجتياز امتحان السجن والزنزانة، وقد أثار إعجابي كثيراً صمودك وصلابتك ورفضك المطلق الاعتراف بأي شيء مهما كان بسيطاً وإصرارك على الصمود في وجه المحققين. أنا فخور بـك لأنـك لـم تكتب سطراً واحـداً، ولم تكتب إفادة، ولم تعترف بجملة واحدة، ولم تسبب ضرراً لأي أخ أو شخص، وواجهت ضعف بعض زملائك بإرادة صلبة لا تلين، فهذا هو القسام الذي أعرفه وأتوقعه.

حبيبي القسام..... أوصيك بأفضل علاقة مع إخوتك في السجن، وأن تكون صبوراً متسامحاً في مشاكل وتعقيدات الحياة اليومية، وبالترفع عن أي احتكاكات أو حساسيات تقع في العادة بين الأسرى، وأن تكون

www.ibtesama.com

علاقتك بالإخوة ممتازة بغض النظر عن انتمائهم السياسي والتنظيمي لأن جميع من في الأسر ينتمون لتنظيم واحد هو فلسطين وإلى شعب واحد وقضية واحدة، وهم أبناء المقاومة بغض النظر عن مسميات فصائلهم. الوحدة الوطنية هي قانون الانتصار لحركات التحرر وللشعوب المقهورة، وهي سياج الشعب وسياج المكتسبات الوطنية، فلا انتصار من دون وحدة، ولا صمود إلا بالوحدة، أتمنى عليك الاستفادة من الزمن والوقت ببناء الكثير من الصداقات الصادقة والأمينة، واكتساب التجارب والخبرات، وقضاء الوقت في الدراسة والتعلم وقراءة الروايات والكتب الوطنية والتاريخية والتجارب العالمية، والاطلاع على جميع المدارس الفكرية والسياسية والاقتصادية والفلسطينية والأدبية، وتعلم اللغات إضافة إلى ممارسة الحد الأدنى من التمارين الرياضية اليومية، وعدم التدخين، وكذلك تقديم المساعدة التي تستطيعها لأي أخ يطلب منك ذلك أو لا يطلب، إذا عرفت أو استطعت ذلك.

حبيبي القسام.......... أتمنى لك ولكل الأسرى والأسيرات الإفراج العاجل والتحرر من قيد السجن وظلمة الزنازين، وأن يتحرر الوطن ويتمتع شعبنا العظيم الصامد الصابر بالحرية والاستقلال والعودة، وأن يزول الاحتلال؛ وسيزول قريباً لأن حرية الوطن والشعب هي الحرية الحقيقية. فلا طعم للحرية لدى الأحرار إلا في ظل وطن حر وشعب حر وسيد نفسه.

في النهاية، أرجو أن تعرف كم تحبك والدتك وكم تعشق القسام وتحلم به، وكم أثّر بها اعتقالك أكثر بكثير من اعتقالي. فهي معتادة على ذلك، أما معك فالصدمة قاسية عليها، كما أن ربى وشرف وعرب يحبونك كثيراً وينتظرون خروجك على أحر من الجمر.

تحياتي إلى الإخوة كافّة بطرفك

وإنها لمقاومة حتى الحرية

والدك وصديقك مروان البرغوثي

www.ibtesama.com

الإضراب المفتوح عن الطعام

اعتاد الأسرى على استخدام سلاح الإضراب المفتوح عن الطعام في سبيل التعبير والاحتجاج على ممارسات مصلحة السجون وسلطات الاحتلال، وكذلك لتحسين شروط الحياة الإنسانية في الأسر، وخاض الأسرى عشرات الإضرابات المفتوحة عن الطعام الجماعية والجزئية خلال العقود الأربعة الماضية منذ الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية والعربية عام 1967.

تمكن الأسرى من خلال هذه الإضرابات والصمود والنضال بوسائل متعددة ومختلفة من تغيير ظروف الحياة داخل السجون، حيث كانت حياة السجون قاسية ومريرة تشبه في جوانب كثيرة طبيعة معسكرات الاعتقال الفاشية، وتعرض آلاف الأسرى للتعذيب والضرب والحرمان والجوع والمرض والتحطيم النفسي، ورفضت حكومات الاحتلال المتعاقبة رغم كل هذه النضالات على مدار العقود الماضية الاعتراف بالأسرى كأسرى حرب أو أسرى حركة تحرر وطني ومقاتلين من أجل الحرية، ورفضت وما زالت ترفض تطبيق اتفاقيات جنيف والقانون الدولي والإنساني عليهم.

ومع ذلك، تمكن الأسرى من تحقيق إنجازات هامة مثل الحصول على الزيارات؛ وإن كانت تتم في ظروف قاسية، وكذلك الحصول على الماء الساخن للاستحمام، وحق تأدية الصلاة بما في ذلك صلاة الجمعة بشكل جماعي في ساحات السجون، والحصول على أنواع مختلفة من المشتريات من بقالة السجن (الكانتين)، وكذلك على الأسرّة، والتخفيف من نسبة الازدحام، والحد من الضرب والعنف بحقهم، والحصول على أجهزة التلفاز والراديو والصحف.

لقد دفعت الحركة الأسيرة التي تتمتع بقدر عالٍ من الوحدة والتنظيم،

www.ibtesama.com

الكثير من التضحيات لتحقيق بعض الإنجازات ولتحسين ظروف الحياة الإنسانية في السجون، وسقط خلال العقود الماضية ما يزيد عن المائتي أسير شهداء داخل السجون والمعتقلات وزنازين التحقيق، وسقط عدد منهم خلال الإضرابات المتكررة والمفتوحة عن الطعام.

بعد حملة الاعتقالات الواسعة وغير المسبوقة التي قامت بها حكومة الاحتلال بعد عملية الغزو المسلح على أراضي السلطة الفلسطينية في نهاية آذار من العام 2002 التي أدت لاعتقال آلاف المواطنين، ازدحمت السجون مجدداً، إذ لم يكن فيها عند اندلاع الانتفاضة سوى 1500 أسير، ليصبح العدد عشرة آلاف في أقل من سنتين، وصاحب ذلك قيام حكومة الاحتلال ومصلحة السجون بحملة شديدة لانتزاع إنجازات ومكتسبات الأسرى، وتزامن ذلك العدوان الإجرامي الذي تشنه حكومة الاحتلال الصهيوني على شعبنا منذ العام 2000 مع انطلاق الانتفاضة المباركة، وقد حاولت سلطات الاحتلال وإدارة السجون كسر شوكة مقاتلي الانتفاضة وكوادرها المعتقلين، وكسر إرادتهم وعنفوانهم من خلال هذه الهجمة داخل السجون.

ادعت حكومة الاحتلال أن الأسرى يواصلون القيام بعمليات فدائية وتحريض وتنظيم عمليات استشهادية من داخل السجون، وكان أحد عناوين هذه الهجمة أجهزة الهاتف الخلوية. ودفاعا عن مكتسبات الحركة الأسيرة ومنجزاتها، ولمواجهة الحملة العدوانية على الأسرى المترافقة مع العدوان على شعبنا بأسره، قررت الحركة الأسيرة بعد نقاش وحوار واتصالات مكثفة بين السجون وقيادات الحركة الأسيرة أن تخوض إضراباً مفتوحاً عن الطعام حفاظاً على كرامة الأسرى، ورفضاً للتفتيش العاري والمذل وسياسة العزل والتنقلات العشوائية وسوء الطعام ووقف الزيارات العائلية، ولإفساح المجال للدراسة في الجامعات المحلية وتمكين الأسرى من الاتصال بالهاتف أسوة بالسجناء

www.ibtesama.com

الآخرين، وغير ذلك من المطالب.

قررت الحركة الأسيرة إعلان إضراب مفتوح عن الطعام في السجون المركزية كافة التي تخضع لإدارة مصلحة السجون على أن تستثنى من ذلك معسكرات الاعتقال في النقب حيث يقبع هناك نحو 2500 أسير، وفي سجن مجدو حيث يوجد 1500 أسير، وفي سجن عوفر حيث يوجد 800 أسير، ذلك لأن تلك المعتقلات يشرف عليها ويديرها جيش الاحتلال وتخضع لشروط حياتية مختلفة عن السجون المركزية، وتتوفر فيها ظروف أفضل قليلاً من هذه السجون، علماً أنه تم نقل سجن النقب ومجدو وعوفر مؤخراً من سلطة الجيش إلى مصلحة السجون المركزية لتصبح فيها شروط الحياة أكثر قسوة ومماثلة للسجون المركزية.

بسبب انقطاع المعزولين عن السجون، واستحالة الاتصال بهم ومعرفة ما يجري من ترتيبات، وبسبب العزل الانفرادي وقسوته وقدرة إدارة السجن على الاستفراد بالأسير المعزول، فإن الأسرى في أقسام العزل الانفرادي لا يشملهم الإضراب المفتوح عن الطعام ولا يتم غالباً التنسيق معهم حول موعد الإضراب أو مطالبه أو شروط وقفه وما إلى ذلك.

ولأنني في زنزانة انفرادية فقد علمت بالإضراب وسمعت عنه وتأكدت أنه بدأ في اليوم الثاني للإضراب، فأخذت قراراً بالمشاركة بالإضراب المفتوح عن الطعام في اليوم التالي أي في 18/ 8/ 2004 مع المضربين في المرحلة الثانية، وكنت في عزل بئر السبع، وقد بدأت فعلا بهذا الإضراب، علماً أن الإخوة في القسم لم يشاركوا، ونصحتهم بذلك وأقنعتهم أن إضرابي تضامني ومعنوي، وأخفيت ذلك عنهم في الأيام الثلاثة الأولى، وبعد الإضراب مباشرة شنت سلطات السجون حملة غير مسبوقة في تاريخ الحركة الأسيرة وفي تاريخ الإضرابات عن الطعام حيث أقدمت على جُملة من الإجراءات التعسفية والاستفزازية

www.ibtesama.com

بل والإجرامية واللاأخلاقية.

قامت سلطات السجون بنقل عدد كبير من السجناء إلى العزل الانفرادي، وشنت حملة تنقلات من سجن إلى آخر، وكذلك من قسم إلى آخر، ومن غرفة إلى أخرى، على مدار أيام الإضراب، في ظل حالة الوهن والضعف الجسدي التي يعيشها الأسير بحيث يصبح التحرك ثقيلاً ومرهقاً، في ظل نقله من سجن إلى آخر مع ما يرافق ذلك من تفتيش وانتظار وبوسطة طويلة ومتعبة، إضافة إلى مصادرة الأغراض كافة من السجون والغرف مثل الأجهزة الكهربائية من تلفزيون وراديو ومسجل، إضافة لأغراض الكانتين التي يقوم أصلا الأسير بإخراجها في اليوم الأول للإضراب وكذلك الملابس فلم يتبق في الغرف أي شيء بما في ذلك الملح.

الأسوأ من ذلك أن إدارة السجون قامت بحملة مشاوي في ساحات السجون لتصل رائحة اللحوم إلى الأسرى وتزكم أنوفهم وتدغدغ أمعاءهم وهو شكل من أشكال الحرب النفسية، على الرغم من أن القانون الذي تعتمد عليه مصلحة السجون يعطي للمضرب عن الطعام الحق بتناول كوب من الحليب يومياً، إلا أن مصلحة السجون رفضت تقديم ذلك، ومنعته عن للأسرى، وصادرت حتى الملح الذي يستخدمونه كي لا تتعفن المعدة والأمعاء.

وقد تعرض المئات من الأسرى للتهديد والإذلال في أثناء هذا الإضراب، كما شنت مصلحة السجون حملة من التشويه بحق قادة الأسرى وقادة الإضراب، وهي حملة رخيصة تفضح العقلية الصهيونية المحتلة وتشير إلى إفلاسها وبؤس تفكيرها وعقمه.

نشرت الصحف العبرية منذ اليوم الأول أنني أقف شخصياً وراء الإضراب وتنظيمه وترتيبه، وأنني الناطق باسم المضربين، وصدر ذلك

www.ibtesama.com

عن الأجهزة الأمنية بالتعاون مع مصلحة السجون وحكومة الاحتلال، علماً أنها تعرف أنني في زنزانة انفرادية ولست على صلة يومية بقيادة الإضراب ولست ناطقاً باسمه، أو صاحب القرار في وقفه أو بدئه.

خلال أيام الإضراب الأولى، قامت سلطات الاحتلال بنشر صورة لي في الزنزانة في أثناء تناولي الطعام، وبثتها في قنوات التلفزة الإسرائيلية والصحف العبرية وتم توزيع هذه الصورة للأسرى، في حملة غايتها الإيحاء أن قائد الإضراب يأكل وأنتم تتضورون جوعاً، وقد أخذت هذه الصورة بواسطة الكاميرا الدائمة المثبتة والمسلطة على الزنزانة قبل بداية الإضراب، لكنني واصلت الإضراب ولم أوقفه إلاّ بعد إنهاء الأسرى إضرابهم في كل السجون بثلاثة أيام، وقد رفضت مصلحة السجون التعامل معي باعتباري مضرباً عن الطعام، وأصرت على إحضار الوجبات يومياً، ووضعها بعد تقييدي على حافة نافذة الباب لتعود وتأخذها مساءً.

كما أنها أجرت الفحص الطبي الأولي بعد أكثر من أسبوع، وفي إهمال صحي كامل لي، ولم تسمح للمحامي بزيارتي طوال 24 يوماً من الإضراب بينما سمحت لممثل الصليب الأحمر بالزيارة بعد أكثر من 11 يوما.

بطبيعة الحال، فإن دعايتهم لم تنطل على الأسرى، ولم يعطِ أحد بالاً لمثل هذه الأفعال الرخيصة والدنيئة. كما أن الأسرى يعفون أصلاً المعزولين في الزنازين الانفرادية من المشاركة في الإضراب، بسبب ظروفهم الحياتية الصعبة.

كان إصراري على الإضراب تحدياً لحكومة الاحتلال ومصلحة السجون، وتضامناً مع الإخوة والأخوات المضربين عن الطعام؛ رغم أن العبء كبير وثقيل. فالإضراب المفتوح عن الطعام خاصة في العزل مرير إلى حد لا يطاق، وكان هذا الإضراب من أقسى وأصعب الإضرابات لي شخصياً وللحركة الأسيرة.

www.ibtesama.com

في ظل انشغالات دولية وكذلك في ظل حكومة إسرائيلية متغطرسة وإرهابية أعلنت أنها ستستخدم القوة لكسر إضراب الأسرى، وتَوعّد أحد وزرائها ممثلا الحكومة أنه لا يكترث لو مات في الإضراب جميع الأسرى، وأن هذا هو الموقف والإجراءات التي اتخذتها الحكومة بموافقة رئيس الحكومة آنذاك الإرهابي شارون ودعم منه، وقد ورد ذلك على لسان «تساحي هنغبي» وزير الأمن الداخلي في حينه.

على الرغم من الظروف القاسية من جراء العدوان المتواصل، فقد أصر شعبنا الفلسطيني العظيم على التضامن مع الأسرى ما جعل كل أسير وأسيرة يشعر بالاعتزاز والفخر لانتمائه لهذا الشعب الأصيل الذي يستحق أن يناضل ويجاهد ويضحي ويستشهد من أجله ومن أجل حريته واستقلاله وعودته وكرامته، وقد أسهم الإضراب بوقف حالة العدوان التي تشنها حكومة الاحتلال على الأسرى، وتخفيف الإجراءات التعسفية، ووقف الانقضاض على مكتسبات الأسرى، وتمكين الكثيرين منهم من تحسين أوضاعهم والحفاظ على مكتسباتهم وتحقيق بعض المنجزات الجديدة. ولكن لا يزال هنالك العديد من القضايا الأساسية لم تتحقق، وترفض حكومة الاحتلال الاستجابة لها رغم أنها حقوق إنسانية حياتية أولية للأسرى. ورغم هذا فإن الأسرى مصممون على الحفاظ على منجزات الحركة الأسيرة ومكتسباتها، وعلى حقوقهم الإنسانية التي حققوها بدمهم وعرقهم وشهدائهم وعذاباتهم ومعاناتهم، وقد أثبت آلاف الأسرى الجدد صلابة وشجاعة تستحقان التقدير والاحترام في خوض هذا الإضراب المفتوح عن الطعام، وقدموا نموذجاً يحتذى. وقد أثلج هذا الأمر صدور الأسرى القدامى الذين كانوا يخشون من أن يشكل الإضراب عبئاً كبيراً على الأسرى الجدد والصغار في السن ممن لم يخوضوا هذه التجربة سابقاً.

www.ibtesama.com

لكن النتائج جاءت أفضل من كل التوقعات، وهنالك مئات الأمثلة الرائعة التي قدمها الأسرى من مرضى ومصابين وأشبال وصغار في السن وبعض الكبار في السن، الذين أصروا على المشاركة مع إخوانهم رغم معاناتهم الشديدة، رافضين كل الضغوط التي مارسها قادة الأسرى عليهم حتى لا يشاركوا خشية على حياتهم، ولكن انتماءهم الوطني، وإيمانهم بقضيتهم وروح المسؤولية لديهم والشراكة النضالية دفعاهم لأن يكونوا في المعترك، وقد أسقط هذا التلاحم رهانات حكومة الاحتلال وسلطات السجون على انكسار الإضراب والحركة الأسيرة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن خوض الإضراب المفتوح عن الطعام مهمة شاقة من النواحي الجسدية والنفسية والفكرية كافة، وهي أيام يعيش فيها المناضل حالة من المرارة والقسوة والتحدي للذات، وتشكل انتصاراً على الذات وعلى شهوات الطعام والراحة وملذات «الغريزة الغذائية».

إنها معركة يخوضها المناضل مع نفسه أولاً، ومع عدوه ثانيا. وانتصاره على ذاته يؤهله للانتصار على عدوه، إنها معركة يخوضها المناضل أيام الإضراب ساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة، فيتلوى من الألم، ويتضور جوعاً، ويتذكر نعمة الطعام وملذاته.

يصبح أي طعام أو حتى رغيف خبز حلماً يفكر فيه المناضل المضرب، يتخيله ويتمناه، كما يصبح الصراع سيد الموقف إضافة إلى حالة التقيؤ لدى بعض الأسرى في الأيام الأولى، وكذلك المعاناة من عدم القدرة على الحركة، والرائحة الكريهة التي تصدرها الأمعاء والمعدة عبر الفم، وعدم القدرة على التبول أو قضاء الحاجة، بل وعدم الرغبة بشرب الماء، وهو الوحيد المتوفر.

في هذه الأيام تصطحب الذاكرة المناضل إلى خبز أمه وطعامها ومائدتها أو مائدة زوجته. إنها أيام للألم والجوع والصراع والضعف

www.ibtesama.com

الجسدي والوهن، ولكنها أيام للتحدي وأيام لإثبات عظمة الإيمان بالقضية الوطنية والاستعداد الدائم للتضحية في سبيلها ومن أجلها، إنها أيام للصمود والصلابة ولإثبات القدرة على مساندة الإخوة والزملاء ورفاق الدرب والمسيرة، وأيام لقهر الشهوات والغرائز.

إنها أيام لتجديد العهد على مواصلة النضال ضد الاحتلال، وضد الآلام والأوجاع، وضد عصور النكبة والنكسة والتشتت والاقتلاع والدموع والدماء والدمار والحصار والموت والبؤس، وهي أيام تزيد المناضل إصراراً وإيماناً وصلابة واستعداداً للتضحية والفداء.

استشهاد ياسر عرفات

خلال العقدين الأخيرين من حياة الرئيس ياسر عرفات عرفته فيها بهذا القدر أو ذاك، وعملت معه في العديد من المحطات، وبشكل أساسي في المنفى، قبل إقامة السلطة الوطنية، وداخل الأراضي المحتلة بعد إقامة السلطة. وبطبيعة الحال شكّل ياسر عرفات حلقة مركزية في تاريخ النضال الفلسطيني والسياسة الفلسطينية، ونظر إليه جيلي باعتباره مؤسس الثورة الفلسطينية وقائدها، ورمز النضال الفلسطيني، وزعيم الشعب الفلسطيني، واعتبره هذا الجيل فدائياً مقاتلا يحمل معه الهم الفلسطيني وكبرياء الشعب الفلسطيني، ولن أكتب أو أسجل هنا ملخصا لهذه العلاقة الممتدة على مدار عقدين من الزمن بكل تفاصيلها، وإنما سأترك ذلك للمستقبل بسبب تعذر كتابة بعض التفاصيل المهمة والجوهرية الآن، وفي هذه الظروف، خاصة أنني تعرضت إلى تحقيق مرير تعلّق جزء رئيسي منه بياسر عرفات، وليست لدي رغبة في تقديم ذلك الآن، بعد أن تحملت القهر والعذاب رافضا الحديث عن ياسر عرفات، وعن علاقتي به وعلاقته بالانتفاضة وما إلى ذلك.

www.ibtesama.com

في اللحظة التي سمعت فيها في زنزانتي عن مرض الرئيس ياسر عرفات قلت لقد مر الرجل في العديد من الأزمات ومحاولات الاغتيال والمرض وسقوط الطائرة واجتازها كلها، ولن تختلف هذه المرة عن سابقاتها. لكنني عندما سمعت عن تدهور حالته يوماً بعد آخر وفهمت التفاصيل، أدركت أن حكومة الاحتلال قد نالت منه هذه المرة، واغتالته بطريقة جديدة وبطيئة، ربما يصعب كشفها أو التحقق منها.

في اليوم الذي غادر فيه الرئيس عرفات إلى باريس أدركت من خلال تفاصيل الحالة التي وصلتني مع المحامي، ومن خلال رسالة زوجتي التي حملها معه، أن الوضع خطير هذه المرة، وأن العدو قد نال من الرئيس عرفات، حيث كانت زوجتي قبل ساعات من نقله إلى باريس متواجدة في المقاطعة، وقابلته وهو في حالة صعبة، ونقلت انطباعاتها المتشائمة جداً برسالتها. بقيت كغيري من الفلسطينيين في حالة من القلق، أنتظر معلومة من الصحافة أو من التلفزيون أو من الراديو، إلى أن جاءت اللحظة التي كان يصعب علي تصديقها، فقد أصبح لدينا إدمان على ياسر عرفات وتعودنا عليه، وبالتالي كان من الصعب استيعاب الموضوع وفهم غيابه، فهو جزء أساسي من مكونات المشهد النضالي ومحور الحياة الفلسطينية.

عندما سمعت خبر استشهاد ياسر عرفات من خلال إحدى المحطات، شعرت بأنني أختنق، وانفجرت عيناي بالدموع لأول مرة منذ اعتقالي، فقد كان قراري أن أقاوم البكاء مع أنه حاجة إنسانية وخاصة في حالة الألم والعذاب والتحقيق والعزل الانفرادي، وقد مرت عليَّ لحظات شعرت فِيها بالحاجة الشديدة للبكاء، ولكنني تمكنت من إبقاء دموعي محبوسة رغم صعوبة الحدث، كنت مصراً أن لا تظهر في عينيّ دمعة واحدة أمام السجّان، معتبراً أن الدموع علامة ضعف

www.ibtesama.com

في هذه الحالة وقد نجحت في ذلك. ولكن، لحظة سماعي خبر موت أبي عمار، سالت دموعي واختنقت قليلا، ثم نهضت وغسلت وجهي وتوضأت وأديت الصلاة وتناولت القرآن الكريم وبدأت في قراءة بعض السور، ثم هدأت محاولاً إخفاء دموعي وحتى حزني عن سلطات السجن التي كان أفرادها يمرون في القسم، وأمام الزنزانة بين فترة وأخرى، وحاول بعضهم الحديث معي فرفضت.

عدت إلى الوراء بشريط طويل من الذكريات والعمل الدائم مع الرئيس الراحل ياسر عرفات، فهو جدير باحترام الناس، وتمكن من انتزاع محبتهم وغفر له الناس الكثير من الهفوات والأخطاء، وقدّرت فيه روح الفدائي والمقاتل والسياسي الشجاع والرقم الوطني الصعب.

لقد عرفت ياسر عرفات عن قرب كإنسان، وعرفت تعامله الإنساني، واهتمامه بقضايا الناس والأفراد وحاجاتهم، وعرفته كزعيم وقائد وفدائي وسياسي. عرفته في أوقات الأزمات القاسية والصعبة، وفي الظروف المريحة والأوقات العادية، وعرفته في الشدة والحرب، وفي أثناء الخطر والعدوان والتهديد، وكيف يتابع ويأخذ القرار في المجالات كافة، عرفت الكثير من نقاط قوته وضعفه، واحترمته دائماً وأحببته في أغلب الأحيان. اختلفت معه كثيراً، واتفقت معه في القضايا الوطنية الكبرى، انتقدته بشدة في أدائه الداخلي وتفرده وارتجاله للقرارات، وروحه المحافظة الرافضة للتجديد والتي تخشى التغيير، انتقدت كثيراً إحاطته نفسه ببعض الأشخاص الفاسدين والعاجزين وذوي السمعة السيئة، وتمسكه بالطواقم القديمة العاجزة والمتخلفة، لكنني ميزت دائماً بين تقصيره وفشله في البناء الداخلي، وقدرته على الأداء الوطني والسياسي النضالي، وأحببت شجاعته النضالية والسياسية، وأحياناً فروسيته واستعداده للتضحية.

شعرت بالأسى لرحيله، وباليأس لأنه ترك حركة فتح في أسوأ

www.ibtesama.com

أحوالها، ولم يستجب للضغط والإلحاح والرجاء لعقد المؤتمر السادس وإجـراء التغييـر وفتـح البـاب لتدافع الأجيال ولولادة شـراكة حقيقية بين الأجيال وبين الداخل والخارج، كما أخذت عليه دوماً عدم إشراكه قادة الأرض المحتلة وكوادرها في أطر الحركة القيادية وفي هيئات السـلطة بشكل عام. لم يؤمن بعمق الديمقراطية، وإن أخذ بعض أشكالها وجوانبها وليس جوهرها ضمن المؤسسات، وخاصة المجلس التشريعي المنتخب والذي كان بمثابة نواة الحياة البرلمانية والتشريعية الحديثة، لكنه أهمله وهمشـه ولـم يكتـرث بقراراتـه ولا بقوانينـه ولا بنوابـه، لـم يعطِ اهتماماً كافيـاً للجهـاز القضائـي ولـم يؤمن باسـتقلاليته. لـم يعمل في إطار خطة استراتيجية واضحة ومسقوفة بزمن، ولها جدول وبرنامج وأدوات.

فلسطين ليست همه فقط بل تسكن في كل أرجاء جسمه وخلاياه، كـرس لهـا حياتـه منـذ الصغـر، وتمكـن من تأسـيس حركة فتـح والثورة وقيادتهما. خاض المعارك بشـجاعة بغض النظر عن جدواها وأهميتها، وحمل القضية الفلسطينية إلى كل مكان، وجعلها واحدة من أبرز قضايا التحـرر والعـدل فـي هـذا العالـم. حضوره الدولي كان قوة غير مسـبوقة فـي تاريـخ التحـرر والعـدل في هـذا العالم، وقدرته على الحركة الدولية كانت هائلة، فهو يعرف إلى حد كبير الخارطة الدولية وحقول ألغامها، وعـرف كيـف يتخطـى معظـم هذه الألغـام، لكنه وقع في بعضها وكادت أن تنهي دوره وقيادته.

فخره بفلسـطينيته كفخر الأنبياء برسـالاتهم، فلسـطين تسـكن حياته وقلبـه وعقلـه ووجدانـه، يعتـز بعروبتـه وانتمائـه للأمـة العربيـة وتراثهـا وتاريخهـا، ويؤمـن بعمـق بإسـلامه ودينـه، ويـؤدي الفـروض كاملة غير منقوصة، ويحرص عليها، ويحفظ من القرآن أجزاء كثيرة ويواظب على قراءتها دوماً وخاصة في السفر وشهر رمضان وأوقات الأزمات. لمصر

www.ibtesama.com

مكانة خاصة في قلبه تشبه مكانة الأم لدى الطفل، أو مسقط الرأس في ذاكرة الإنسان. يؤمن بالقوة ويدرك قيمتها وأهميتها، ولكنه يعرف حدود استخدامها وضوابطها وحدود امتلاكها.

القدس هاجس وحدة القياس بالنسبة إليه حرباً وسلاماً، من دونها انكسار وهزيمة، وبتحريرها انتصار عظيم لا مثيل له، الدولة بالنسبة إليه ضرورة وطنية ولكن شريطة أن تكون القدس تاجها. آمن بالسلام وبحل الدولتين، وقدم تنازلات لم يقدمها أحد من قبله، وقد لا يقدمها أحد من بعده لتحقيق السلام، اعترف بإسرائيل على 78 % من أراضي فلسطين، ووافق على إقامة دولة على 22 %، وعلى تقديم تنازلات أخرى ظهرت في مفاوضات كامب ديفيد وطابا عام 2000، وبعد ذلك، مُظهِراً مرونة كبيرة جداً، وكان على استعداد للمخاطرة. فوجئ نسبياً بأن قادة دولة الاحتلال ليسوا مستعدين لسلام حقيقي يحقق الحد الأدنى من الحقوق الوطنية الفلسطينية.

لم يخطط للانتفاضة، ولم يقدها، ولم يؤسس كتائب الأقصى، أراد للانتفاضة الاستمرار حتى تحقيق بعض الأهداف واعتبرها أداة لتحسين الشروط وليس لقلب الطاولة، حاول كل جهده التكيّف معها، فهمها أحياناً وشكّك في قدرتها أحياناً أخرى، صُدم بموقف الإدارة الأميركية الجديدة منه وحاول تغييره من دون جدوى، وعند ذلك حسم موقفه إلى جانب الانتفاضة والمقاومة التي تحفّظ على بعض أشكالها ووسائلها. لم يسعَ للاتفاق مع القوى الإسلامية والوطنية على استراتيجية وخطة واحدة.

خاب أمله كثيراً في الدول العربية وقادتها، وحاول دوماً إخفاء غضبه منهم وبغضه لبعضهم، آمن بعد انتخاب أرئيل شارون وخاصة في المرة الثانية بأن الطريق الأساسي هو الانتفاضة والمقاومة، فقرر مساندتها. في هذه المرحلة، كان يعرف أن عدداً كبيراً من المحيطين به

www.ibtesama.com

ومن القادة والمسؤولين الفلسطينيين يدعمون إزاحته، وظل يظن أنهم قنواته لأميركا ولإسرائيل ولأوروبا وبعض العرب وأنه يوظفهم لصالحه راضياً ببقائهم إلى جانبه.

لم يجمع أو يدخر المال لنفسه، بل عاش حياة متواضعة كثيراً في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن، ولكنه آمن بقوة المال وسطوته على الناس، وقدرته على تجنيد المؤيدين والأتباع والموالين، كما أنه ادخر المال للأيام السوداء التي سيحاصر فيها من قِبَل العدو والصديق والشقيق. الولاء بالنسبة له يعلو في كثير من الأحيان على سواه، ولا يعتمد دائماً على الكفاءة، لا يحب تغيير أي مسؤول أو أي وضع، ويعتقد أنه قادر على التأثير في المعادلات الإقليمية والدولية، ويعتبر نفسه عاملا أساسياً في المعادلات. يحب حضور المؤتمرات والسفر والتجوال في العالم، كما أنه يغتبط بالاستقبالات، معتقداً أن ذلك اعتراف به وبحق إقامة الدولة الفلسطينية.

يستطيع تمييز الناس جيداً لكنه يفضل الولاء بشكل عام، وخصوصاً مَن يأتيه بخبر أو سرٍّ، ويحب من يتفق معه في وجهة النظر.

عادت بي الذاكرة تلك اللحظة وأنا في زنزانتي إلى الماضي، وشعرت بالأسى والحزن ليس لفراق الرجل الكبير والرمز الخالد والفدائي المؤمن والشجاع وحسب، بل أيضاً بالمزيد من الأسى على تركة عرفات ورحيله في هذه الظروف التي يحتاج شعبنا فيها إلى من يجمعه ويواصل قيادته نحو الحرية والاستقلال، والحقيقة أنني استغربت كثيراً النقاش الذي دار فلسطينياً وعربياً ودولياً حول استشهاد ياسر عرفات، وذلك لأن القاصي والداني كان يسمع ويعرف ويدرك أن هناك قراراً اتخذته الحكومة الإسرائيلية بموافقة ودعم أمريكيين وصمت عربي رسمي من البعض يقضي باغتيال الرئيس ياسر عرفات، وقد عبّر رئيس أركان دولة

www.ibtesama.com

الاحتلال مراراً وتكراراً عن ذلك، بل إن بعضهم قال صراحة أن عرفات لن يكون معنا في السنة المقبلة ولن يكون حياً، وجاء ذلك على لسان موشيه يعلون رئيس أركان الحرب آنذاك، وعاموس جلعاد منسق الملف الأمني والسياسي في وزارة الحرب الإسرائيلية، وكذلك شارون الذي لم يخفِ رغبته، عندما قال له الرئيس الأميركي جورج بوش: «اترك الأمر للرب» فرد عليه شارون: «الرب بحاجة لمن يساعده أحياناً».

لم ولن يساورني شك أبداً في أن المخابرات الإسرائيلية اغتالت ياسر عرفات بهذه الوسيلة أو تلك، وأنها أخيراً نجحت في التخلص من أهم قائد ورمز للشعب الفلسطيني خلال المئة عام الأخيرة. إن أخطاءه كثيرة، ولقد اختلف الكثيرون منا معه في كثير من الأمور، ولكن ذلك لا يقلّل أو ينتقص من عظمة هذا الزعيم والقائد ولا من رمزيته وإنجازاته.

الغريب أن هناك من يعتقد أن اغتيال ياسر عرفات سيزيل عقبة من أمام عملية السلام، وسيفتح الباب لاستئناف السلام والتوصل إلى حل دائم في المنطقة، والغريب أن هذا البعض قد صدّق ادعاءات أميركا وإسرائيل وبعض الرسميين العرب من أن ياسر عرفات عقبة وأن أميركا وإسرائيل ستمضيان إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة بمجرد زوال ياسر عرفات.

والحقيقة أنني ومنذ اللحظة الأولى آمنت أن إسرائيل وأميركا أضاعتا أهم فرصة تاريخية لصناعة السلام، وهذه الفرصة ممثلة في ياسر عرفات.

كنت وما زلت أعتقد أن ياسر عرفات كان الفرصة الحقيقية، وباغتياله قضت إسرائيل وأميركا على فرصة السلام، وهذا ما أراده شارون وحكومته بدعم أميركي حيث قرروا استراتيجية فرض الحل الاحتلالي على الفلسطينيين من طرف واحد، ولتحقيق هذا الهدف كان يتوجب اغتيال ياسر عرفات.

www.ibtesama.com

الفصل السادس

حارسة حلمي

(أرفع قبضتي صارخاً: ليس في هذا المكان
صدى لصوتي....أسمعُ صوت زوجتي وأولادي
وأسمع صوت شعبي مدوياً عالياً عالياً)

www.ibtesama.com



www.ibtesama.com

حارسة حلمي

إذا كان السجّان الإسرائيلي يعتقد أن العزل الانفرادي لجسد الأسير سوف يقضي عليه، ويحوله إلى حطام أو مشروع انتحار، فهو واهم جداً.

بالرغم من كون العزل الانفرادي هو أسوأ وأقسى حالات السجن، وعبارة عن قتل تدريجي لكل مكونات الحياة الإنسانية والعقل، فإن الذي ابتدع هذا النوع من العقاب عقلٌ فاشي وإرهابي، كما أنني – كما أسلفت – غرست في ذاتي وروحي إرادة التحدي والبقاء وكل مقومات الصمود كي تفشل هذه النظرية وأهدافها اللا إنسانية...

السجّان لا يعلم أنني مليء بالحياة، وفي عالمي الذاتي الكثير مما لا يستطيع إدراكه، مما هو كفيل بأن أظل شامخاً بكبرياء، وصابراً ومتحملاً لكل أشكال المعاناة...

صحيح أنني وحيدٌ هنا في هذا القبر المظلم، إلا أنني لست في الواقع وحيداً، لأنني أدرك أن معي كل أبناء شعبي، وكل الأحرار والمناضلين، وأدرك أن حولي أصدقاء أوفياء يعيشون في أعماقي يتحدثون معي، يعززون صمودي ليزيدوني عزيمة وإصراراً على التمسك بقناعاتي الوطنية، وبأهدافي النبيلة في الحرية والاستقلال والسيادة لشعبي ووطني...

لقد أخطأ مبتدعو السجون وأقسام العزل الانفرادي، لأن أحداً من البواسل لم يتوسل أو يستسلم يوماً... بل ازدادوا اشتعالاً وثورة وغضباً...

كان على أولئك الفاشيين السجّانين أن يسألوا أنفسهم، كيف يصمد إنسان ثلاثين عاماً في السجن، وتظل ابتسامة الحياة والأمل بالحرية تطفح واسعة على وجهه وسلوكه وعاداته...؟

www.ibtesama.com

وهـا أنـذا فـي هـذه اللحظـات، لا أحـد حولـي سـوى السـجّانين والجـدران وعـواء الحكـم المؤبـد مـدى الحيـاة، خمـس مـرات، أتذكر أولادي، وزوجتي حارسة حلمي، أفتقدهم وأتخيلهم وتكتمل صورتهم لديّ، فأشعر بكثير من الاشتياق لهم...

أراجـع بعـض محطـات حياتـي مـع زوجتـي ورفيقـة دربـي، التـي تحملت الكثير من المتاعب والمشقات في رحلة العمر المؤلمة من أجل الحرية... تحملت الفقر والعوز والظروف الصعبة والقاسـية، وشـاركتني كل المحطات النضالية والاجتماعية والسياسية.

ظلّـت وفيـة ومخلصـة، ومثـالاً للمـرأة الفلسـطينية رمـز الإخلاص والمحبة والوفاء والتضحية، إنها القوة الأخرى التي تشدّ أزري في العزل والتحقيق، لكوني أدرك أن زوجتي أهل لتحمل المسؤولية، وأنني يجب ألاّ أقلق على الأولاد فهي خير أم وأب لهم حتى في أثناء وجودي معها قبل اعتقالي.. لهذا لست وحدي...

لقد تحملت زوجتي، فدوى، معي رحلة طويلة، منذ أكثر من عقدين مـن الزمـن، تعرضـتُ خلالهـا للاعتقالات المـرة تلو الأخرى، وبأنواعها المختلفة، وللإقامة الجبرية، والمطاردة، والإبعاد، ومحاولات الاغتيال، والسجن المؤبد حالياً....

لم تشك يوماً إلا شكوى المُحبّة والحريصة على حبيبها، ولم تعاتب إلا عتاب الزوجة الوفية، إنها امرأة عرفتها طالبة ترتدي المريول الأخضر الجميل، وأحببتها زوجة وصديقة ورفيقة درب ومناضلة...

لست وحدي الآن... بل أشعر بكثير من الاطمئنان لأن الأسرة لن تتدهور أوضاعها، ولن تهتز أعمدة البيت الذي ما زال قوياً وقائماً...

هـي جاهـزة الآن... لتقـول لـي: لسـت فـي فـراغ، لـم تذهـب إلى المجهول، شعبك معك... وكلنا بخير.

www.ibtesama.com

لقد عرفتُ خوفها وحرصها وعشقها لأولادها إلى درجة العبادة... كنت أخاف عليها لشدة تعلقها بهم، وبتفاصيل حياتهم مهما كانت صغيرة وجزئية وشكلية في الملبس والطعام والنوم واللعب والدراسة والعلاقات اليومية والأصدقاء...

كانت على استعداد لتكريس وقتها وجهدها وحياتها لي ولهم، بينما لم أستطع أنا أن أفعل ذلك رغم كل جهدي، فقد اخترت مع سبق الإصرار بكل ما في ذلك من ألم لا يحسه إلا صاحبه أن تكون أسرتي هي الشعب الفلسطيني العظيم برمته، وأن جهدي سينصب طوال حياتي لتحقيق حلم الشهداء العظام، وحلم الشعب العظيم بالحرية والعودة والاستقلال.

هذا أمر توافقت عليه مع زوجتي، ومع ذلك فإنني، لم أستطع طوال فترة العزل الحصول على زيارة عائلية، ولم أرَ زوجتي وأولادي إلا مرة واحدة. وبالتحايل على سلطات الاحتلال والسجن استطعت فقط رؤية زوجتي، لم يعلموا أنها زوجتي بل دخلت باعتبارها محامية أرادت زيارتي، ومعها كل الأوراق، ولكنهم كشفوا أمرها بعد الزيارة التي لم تتكرر قطّ.

لقد أثمر الجهد الذي بذلته في إقناعها ومساعدتها في دراسة الحقوق، وأفادني ذلك كثيراً، حيث انطلقت بعد اعتقالي في حملة من النشاطات على المستوى المحلي والعربي والدولي، وتحولت إلى خير سفير لقضية الأسرى وليس لي وحدي...

لقد تجولت فدوى البرغوثي في أكثر من أربعين دولة، والتقت مئات الشخصيات الرسمية والشعبية في تلك الدول... شرحت لهم جرائم الاحتلال مؤكدة دوماً أن الانتفاضة والمقاومة هما حركة استقلال الشعب الفلسطيني، وأن النضال ضد الاحتلال ومقاومته بالوسائل كافة حق مشروع وواجب وطني مقدس...

www.ibtesama.com

إن أداء زوجتي فدوى البرغوثي السياسي والإعلامي والنضالي، كان مدهشاً، وأثار إعجاب الكثير من الناس، وأثبتت بهذا الأداء الذي تجاوز كل توقعاتي، رغم معرفتي العميقة بقدرتها وكفاءتها، أنها نعم الأم والزوجة المناضلة. وإنني فخور بها.....

إنها نموذج الوعي ومثالُ صدق انتماء المرأة الفلسطينية واستعدادها للتضحية... كنت أتابع نشاطها من خلال بعض الأعداد القليلة جداً التي كانت تصلني من جريدة القدس من وقت لآخر. وفي إحدى المرات تسلمت أعداداً منها بعد تأخير دام ستة أشهر، ومع ذلك انهمكت بمطالعتها، ولا سيما ما يتعلق بتطورات وأخبار الشأن المحلي. كما كنت أتابع نشاطها من خلال بعض الإذاعات المحلية التي يصلنا بثها أحياناً أو من بعض الفضائيات بعد حصولي على التلفاز، والأهم من المحامين، وخاصة الأخ الياس صباغ، والأخ خضر شقيرات، وهما يقومان بزيارتي على نحو دائم تقريباً، ومن خلال المحامي جواد بولص في الفترة الأولى للاعتقال.

كانت النشاطات التي تقوم بها زوجتي تزيدني صموداً وإرادة وإيماناً، وتبعث لدي الثقة والطمأنينة والأمل دوماً...

ولا بد من أن أذكر هنا أنها لعبت دوراً أساسياً في إطلاق الحملة الشعبية لإطلاق سراحي وسراح الأسرى كافة، بمبادرة من مجموعة من الأصدقاء الأوفياء والإخوة المخلصين لهذا الوطن وذلك بتشكيل سكرتاريا للحملة الشعبية، من الذين ما زالوا يبذلون جهداً هاماً لنصرة آلاف الأسرى والأسيرات في سجون الاحتلال.

إن هؤلاء الأصدقاء الأوفياء قاموا بتقديم المساعدة، والتبرع بفتح مقر خاص للحملة، يعمل فيه عدد من الموظفين والمتطوعين، ويقوم باستقبال الوفود التضامنية المحلية والأجنبية، ويصدر البيانات والنشرات الدورية ويتابع أي تطورات...

www.ibtesama.com

كمـا تشـرف الحملـة علـى عقـد النـدوات والاجتماعـات، وتنظيم المسـيرات التضامنيـة، والمشـاركة فـي المناسـبات كافـة لدعـم قضيـة الأسرى ومساندتها، ومن خلال موقع للحملة على الإنترنت تبث وتنشر البيانات والنشرات الدورية والمقابلات الصحفية وتنشرها، وكذلك كل ما يتعلق بقضيتي وقضية الأسرى. يحضرني كل هذا وأنا في عالم العزل المنفرد...، الذي رغم قساوته أعطاني فرصة ومساحة للتأمل، وإن كان علـى حسـاب حريتـي، أُقبّـِلُ فيهـا أولادي وألاعبهـم وأضحك معهم... وأتلهف عند وصول المحامي لأسـأله عنهم أولاً، وأسـمع منه تفاصيل حياتهم لأطمئن عليهم...

لقـد عشـت مـرارة الفـراق عـن الأولاد بهـذا القـدر أو ذاك خـلال الانتفاضـة، حيـث طاردتنـي قـوات الاحتـلال، ولكـن الحرقـة والمـرارة واشـتعال النـار فـي داخلـي كانـت فـي أثنـاء فتـرة التحقيـق، عندما كنت جالسـاً على كرسـي التحقيق مقيّد اليدين والقدمين، أتذكر الأولاد رغم أنني بذلت جهداً لعدم التفكير فيهم كثيراً، لأن المحققين كانوا يتعمدون الحديث بالتلفون مع أولادهم، وبعضهم كان يحاول ملاطفة ابنه أو ابنته، والسـؤال عن أولادهم وعن دراسـتهم واحتياجاتهم، وهذا بلا شـك يثير بداخلي ثورة من الاشتياق كنت أخفيها في أعماقي.

إنها سادية المحققين ونذالتهم، هؤلاء المحققون الذين لا يوفرون سـلاحاً لكسـر إرادة المناضلين، وهم الذين أسـمعوني تهديداً صريحاً باغتيال ابني القسام بدعوى أنه (قنبلة موقوتة)، وقال لي أحدهم «لقد أعلن ابنك أنه على استعداد لتنفيذ عملية استشهادية في تل أبيب، وهذا أمر خطير، كما أن لدينا معلومات عن عضويته وعمله مع مجموعات إرهابية» علماً أن القسام لم يكن قد بلغ السادسة عشرة من عمره، ثم قال المحقق: «سنرسـل له صاروخاً يُصيب السـيارة التي يتجول فيها

www.ibtesama.com

مع أصدقائه وننتهي منه مبكراً».

كان المحقق يعرف أن هذا ليس أمراً سهلاً عليّ، ولكن لم يكن ذلك ليزعزع إيماني وقناعاتي الراسخة، وإن كان يسبب لي الألم...

ولإدراكي هذف هذه المحاولات السادية الضاغطة، لم أعر أي انتباه لمثل هذه المحاولات الهادفة إلى إثارة الضعف لديّ، على الرغم من قوة وقعها في نفسي وأعماقي.

إن «الشاباك» الإسرائيلي يمارس الابتزاز ضد المعتقلين في أثناء التحقيق، تارة بتقديم السجائر وطوراً آخر بعرض صفقة عليهم مفادها أن من يتعاون منهم أو يعترف أو يقدم معلومات سيُعطى فرصة للحديث تلفونياً مع زوجته أو أمه أو أخته أو أبيه...

ومن المؤسف أنهم نجحوا أحياناً في ذلك، وإن كان على نطاق محدود جداً...

لقد شعرت بالفارق الكبير بين اعتقالي يوم كنت شاباً صغيراً أعزب لا يتحمل المسؤوليات المنزلية والعائلية أو الاقتصادية، وبين الاعتقال حين يكون المرء متزوجاً ولديه أبناء...

ويمكن تلمس ذلك عند جميع الأسرى، وعلى نطاق واسع، فهناك آلاف الأسرى الذين عاشوا ألم فراق الأهل والأبناء ومرارته، بل إن بعضهم اعتقل وهو لم يتجاوز العشرين عاماً، وهناك من انضم إليه أبناؤه في السجن، ولم يعش معهم يوماً واحداً، ويوجد عشرات الأمثلة على هذا الأمر مثل المناضل عثمان مصلح (أبو الناجي)، والمناضل عبد اللطيف العفو شقير، والمناضل فخري البرغوثي (أبو شادي)، الذي اعتقلت معه في الفترة نفسها عام 1978 وما زال حتى الآن في السجن، وقد اعتقل ولداه: شادي الذي كان عمره لا يتجاوز السنة والنصف عند اعتقال أبيه، وهادي الذي كانت أمه حاملاً به عند اعتقال والده...

www.ibtesama.com

ها هما ينضمان عام 2003 إلى أبيهما، في سجن عسقلان، ويعيشان معه في الغرفة نفسها، ليلتقيا بعد عمر طويل بأبيهما لأول مرة ويصافحانه ويعانقانه، ويحتضنهما في مشهد أدمى عيون الأسرى وفتت قلوبهم.

إن تفكير الشاب المعتقل الأعزب تجاه أهله يختلف من حيث اللهفة والقلق عنه لدى الزوج والأب الذي يخاف على زوجته وأبنائه. لقد شعرت أن الأولاد يكبرون، وأنا بعيد عنهم، لا أستطيع أن أوقظهم صباحاً، وأقبّلهم وأرسلهم إلى المدرسة.

إن تقبيل الأولاد صباحاً لا تعادله سعادة في الكون ولا يماثله شيء...

كانت مداعبة شرف وعرب متعة لا مثيل لها بالنسبة لي، مثلما كان اللعب والضحك مع ربى والقسام يبعثان لديّ أملاً واسعاً وسروراً لا يُوصفان.

لقد حمدت الله دوماً على أنه رزقني هؤلاء الأولاد الرائعين، وكنت أنام وأصحو وصورتهم في رأسي وقلبي ووجداني.

على كل إنسان على وجه الأرض أن يدرك، أن التضحية بفراق الأهل، والأحبة، والزوجة، والأولاد، والأم، والأب، والأخ، والصديق، لا تعادلها تضحية، إلا الشهادة مع أنها أهون بكثير على صاحبها.

آلاف الأسرى يحتضنون صور أبنائهم، ويفتحون عيونهم على تلك الصور، يقبّلونها صباحاً ومساءً ويتألمون مع كل زيارة، إنه العذاب العصي عن الوصف أو التوصيف...

أبنائي وزوجتي وأهلي يحتلون مساحة كبيرة في حلمي وتفكيري ووجداني.. فهم حاضرون الآن في عزلتي... لهذا لم أكن وحيداً بل كان وما زال أعز الناس الذين يزيدونني إصراراً على الصبر والصمود يسكنون روحي وعقلي وقلبي.

www.ibtesama.com

هنــاك حيــاة مفعمــة بالحــب والمشــاعر النبيلة، أيها الســجّان... نعم حيــاة صاخبــة لا تعرفهــا، ولا تســتطيع أن تســجنها، إنهــا تعيــش هنا معي في دمي ولحمي، وتتطلب مني أن أكون قوياً لأعود لأهلي ســالماً رافع الــرأس، رافعــاً قبضتــي وصارخــاً: ليــس في هذا المكان صدى لصوتي... لكنني أسمع صوت زوجتي وأولادي، وأسمع صوت شعبي هادراً وعالياً عالياً عالياً....

www.ibtesama.com

الفصل السابع

الاشتباك مع جهاز المخابرات الإسرائيلي وأدواته العميلة

(كل شيء يمكن التسامح معه
مهما كان إلا شيئاً واحداً
وهو التورط في التعامل مع العدو)

www.ibtesama.com



www.ibtesama.com

الاشتباك مع جهاز المخابرات الإسرائيلي وأدواته العميلة

جهاز «الشاباك»:

«الشاباك» هو الجهاز الذي ينفّذ سياسة الاحتلال في الأراضي المحتلة منذ عام 1967م، وهو الذي يقود المعركة الاستخباراتية في مواجهة الحركة الوطنية والفصائل الفلسطينية وأي نشاط مقاوم للاحتلال الصهيوني، وينقسم جهاز «الشاباك» إلى خمسة أقسام رئيسية:

الأول: قسم التحقيق والتعذيب، وتقف على رأسه شخصية قيادية رئيسية في المخابرات، تحمل الرتبة الأعلى في القسم، وغالباً ما يكون برتبة جنرال، ويتوزع ضباط هذا القسم على مراكز التحقيق المختلفة المعروفة والسرية منها، ويتلقون التدريب لمدة سنتين بما في ذلك تعلّم اللغة العربية وإتقانها، ودراسة طبيعة المجتمع والعادات والتقاليد والثقافة الفلسطينية، ودراسة تاريخ القوى والفصائل الفلسطينية وبرامجها، إضافة إلى تدريب خاص على وسائل التحقيق المختلفة.

ويخصص لكل منطقة في الأراضي الفلسطينية طاقم ومركز شاباك خاص، جنوب الضفة ووسطها وشمالها وقطاع غزة. وغالباً ما يكون هؤلاء قد عملوا ميدانياً في المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، ولديهم معرفة إلى حد ما بالوضع الفلسطيني.

الثاني: قسم الشبكة الميدانية، ويقوم بتعيين ضباط يتوزعون على المناطق كافة، بحيث يتم تقسيم كل محافظة فلسطينية إلى مربعات تشمل عدداً من القرى والمخيمات، ويتولى المسؤولية ضابط محدد،

www.ibtesama.com

يقوم بدراسة المنطقة وملفاتها وأبرز الناشطين فيها والعائلات والتنظيمات والوضع الاجتماعي، ويسمى هذا الضابط في جهاز «الشاباك»، «ركّاز» أي مشرف أو مُركّز للمنطقة ولديه طاقم عمل، كما أنه مكلف بتجنيد شبكة من العملاء والجواسيس إضافة إلى التدخل في تعيين الوظائف الحكومية. وهو يجمع المعلومات، ويقوم بالاعتقال مع الجيش، ويقدم الملف والمعلومات إلى قسم التحقيق. هؤلاء ليس لديهم دور مباشر في التحقيق، وتتوقف مهمتهم عند الاعتقال مع الجيش وعند تقديم الملف والمعلومات إلى قسم التحقيق. يتلقى هؤلاء الضباط دورة ميدانية لمدة ستة أشهر إلى سنة عبر الانخراط المباشر والتعايش في قرية عربية لدى إحدى العائلات بصفة أجنبي أو صحفي، وغالباً في بعض القرى لدى إحدى العائلات داخل الخط الأخضر، يكون رب الأسرة فيها أحد عملاء «الشاباك»، فيمارس العمل اليومي من زراعة إلى قطف الزيتون إلى النوم مع الأسرة، ويتناول الطعام، ويتعرف على الطبخات العربية واختلافها من منطقة إلى أخرى، ويتعلم اللغة العربية وخاصة المحكية أو العامية، ولهجة كل منطقة، وعادات الناس في القرى والمدن والمخيمات والاختلافات بينها إن وُجدت. كما يتعرف على السلوك اليومي والعلاقات الأسرية والعائلية وبين الحمائل والعشائر، وعادات الزواج، وحساسية قضية «العرض» والشرف، ومختلف الاهتمامات، ويركز هؤلاء على معرفة الأمثال العربية بصورة خاصة، لا سيما البالية والهدامة والبائسة منها وهي كثيرة.

الثالث: قسم الحماية والأمن، ويختص بحماية الشخصيات القيادية في دولة الاحتلال كرئيس الحكومة، ورئيس الدولة وقادة الجيش الكبار والعاملين في الصناعات العسكرية والمراكز الحساسة على اختلاف اختصاصاتهم، وحماية المطارات والطائرات ومهام التفتيش، حيث يعمل

www.ibtesama.com

ضابط على كل طائرة، كما يقوم بتفتيش خاص لكل طائرة ومسافر إلى دولـة الاحتـلال مـن مختلـف مطـارات العالم، وهي الدولة الوحيدة التي تتمتع بهذا الامتياز في المطارات الدولية، ويقوم القسم بحماية السفارات الإسرائيلية والمراكز والمصالح والشخصيات الإسرائيلية التي تتجول في العالم.

الرابع: قسم مكافحة الإرهاب اليهودي، وهو قسم حديث يختص بجمـع المعلومـات عـن العناصـر اليهوديـة المتطرفـة فـي دولة الاحتلال وخاصة منظمات اليمين المتطرف والمستوطنين، ويزرع هذا القسم عملاء له في المنظمات اليمينية المتطرفة، كما أنه يقوم باعتقال المشبوهين منهم والتحقيق معهم، وقد تلقى «الشـاباك» وهذا القسـم بشـكل خاص ضربة قوية وشديدة باغتيال إسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق.

الخامس: قسـم المعلومات والدراسـات والتطوير، ويختص بتركيز المعلومات وإجراء الدراسـات الخاصة بعمل «الشـاباك» وتطوير وسـائله وأسـاليبه المختلفـة، هـذا إضافـة إلـى دوائـر ماليـة وإداريـة ولوجسـتية. والجديـر بالذكـر أن القانـون الجديـد لهذا الجهاز يسـمح لرئيس الجهاز بتولـي منصبـه لأربـع سـنوات قابلـة للتجديد لسـنة واحـدة فقط في حالة ضرورية وطارئة. ومهمّة تعيين رئيس «الشـاباك» صلاحية مطلقة لرئيس الوزراء بعد أن يسـتمع إلى توصيات الرئيس الذي يشـغل المنصب في حينه، ويقوم رئيس «الشاباك» باختيار نائب له.

يعتبر رئيس الحكومة المرجعية الأولى لرئيس «الشاباك» حيث يرفع تقاريره وتوصياته له مباشرة ويتلقى منه التعليمات. وهذا الجهاز هو الأكثر تأثيراً في الشأن الفلسطيني خلال مناقشات الحكومة الإسرائيلية وقراراتها، وتنظر له الأوساط الإسرائيلية باعتباره صاحب الخبرة والمعرفة الطويلة في محاربة الفلسـطينيين، ويحظى بدعم وشـعبية وتأثير كبير لدى الرأي

www.ibtesama.com

العام في دولة الاحتلال. ويجدر أن نشير هنا إلى أن هنالك أجهزة رئيسية مستقلة تتنافس في كثير من الأحيان مع جهاز «الشاباك» وخاصة الجيش، مـن خـلال رئيـس الأركان الـذي يعتبـر فـي نظر الكثير من الإسـرائيليين بمثابـة الرجـل الثانـي فـي الدولـة، وذلك لأن دولة الاحتلال حالةٌ خاصة في هذا العالم، حيث إن لكل الدول جيوشاً إلا إسرائيل (جيش له دولة في خدمته)، وهناك جهاز الاستخبارات العسكرية (أمان)، وهو جزء من الجيش، ومرجعيته رئيس الأركان ورئيس الحكومة ووزير الحرب. ولكن يُـلاحـظ تعـارض فـي كثيـر من الأحيان في تقديـرات الموقف والتقارير التي يقدمها جهاز الاستخبارات مقارنة مع «الشاباك». وهناك أيضاً جهاز الموساد وهو مختص بالعمل الاستخباراتي الخارجي، ويمتلك شبكة من العملاء والضباط والعاملين المنتشـرين في كثير من دول العالم، ويقوم بجمع معلومات عن أعداء إسرائيل واليهود والصهيونية.

ينفـذ الموسـاد عمليـات بيـن الفترة والأخرى ضد هؤلاء ولاسـيما الفلسـطينيين، كمـا أن الكثيـر مـن العمليـات لا يُعلن عنها إطلاقاً، وتبقى لعقود طويلة في طي الكتمان، ويتنافس هذا الجهاز أيضاً مع «الشاباك». ويُشار إلى أن هناك لجنة سرية تشرف على الأجهزة الأمنية، خاصة في مجالات عملها السرية والموازنات والمشكلات وهي مغلقة بشكل مطلق أمام وسائل الإعلام، وأمام أعضاء البرلمان الصهيوني «الكنيست»، ولا يتم عرض تقاريرها على مجلس الوزراء، علماً أن أحد الوزراء يرأسـها بمشاركة ممثلين للأجهزة كافة.

كان جهاز «الشاباك» من أدوات فرض الاحتلال الصهيوني بالقوة العسكرية، وإحدى وسائل مواجهة المقاومة الفلسطينية بواسطة أشكال كثيرة، منها الاعتقال والاحتجاز والتحقيق والتعذيب وإجراء محاكمات عسكرية ظالمة وفاشية وصورية، والزج بمئات الآلاف من أبناء شعبنا

www.ibtesama.com

في سجون ومعسكرات الاعتقال الصهيوني. ومنذ الاحتلال عام 1967 اعتقلت إسرائيل ما يزيد عن 750 ألف فلسطيني، أي ما يعادل 25 % من أبناء فلسطين في الضفة وغزة والقدس، ومئات المعتقلين من داخل الخط الأخضر والعرب الذين شاركوا في مقاومة الاحتلال من خارج فلسطين.

لقد تعرض المعتقلون الفلسطينيون والعرب لمختلف أشكال التعذيب والإهانة والإذلال والتحقير والمس بالكرامة الإنسانية والوطنية، وتفتقت العقلية الصهيونية عن عشرات الوسائل والأساليب في التحقيق، وطورتها سنة بعد أخرى، وتفنن المحققون في تعذيب الأسرى وإهانتهم، وإلحاق الأذى بهم على مدار السنين. وكان أول أشكال هذا التعذيب والقهر والإذلال رفض دولة الاحتلال الاعتراف بالأسرى الفلسطينيين والعرب كأسرى حرب أو أسرى حرية، وعدم تطبيق اتفاقية جنيف الرابعة عليهم، علماً أن القانون الدولي واتفاقية جنيف تنسجمان تماماً والحالة الفلسطينية حيث هناك دولة احتلال عسكري. كذلك أقدمت إسرائيل على تقديم الأسرى لمحاكم عسكرية طبقاً لقوانين الطوارئ وتعديلاتها الصهيونية، ووفقاً للأوامر العسكرية التي أصدرتها الحكومة العسكرية للاحتلال، تلك الأوامر التي مست جميع مجالات الحياة الفلسطينية وجوانبها، وحلت محل القوانين المصرية والأردنية التي كان معمولاً بها قبل الاحتلال. ومهدت الأوامر العسكرية الطريق للاحتلال لإحكام قبضته وسيطرته على القطاعات الفلسطينية كافة، وافتقدت المحاكم العسكرية الصهيونية للحد الأدنى من شروط المحاكمات التي نصت عليها اتفاقية جنيف والقانون الدولي.

وأصدر الضباط العسكريون الذين يقودون المحاكم، أحكاماً جائرة لفترات طويلة بالسجن على الأسرى في ظل غياب أي دفاع قانوني يذكر.

www.ibtesama.com

وكانت تلك الأحكام تصدر بقرار من المخابرات الصهيونية «الشاباك». وكان كثير من الأسرى يسمعون الحكم في أثناء التحقيق، بل ويساوم المحققون المعتقلين على أحكامهم؛ طبقاً لرغبة المحققين.

لقد تعرض الأسرى للتعذيب الوحشي، وسقط العشرات من الشهداء في أقبية التحقيق والزنازين، كما أن عشرات الآلاف ممن خضعوا للتحقيق أصيبوا بأمراض وإعاقات دائمة أدت إلى استشهاد عدد منهم بسبب آثار التعذيب بأشكاله المختلفة. وتغيرت وسائل التحقيق وأساليبه من حقبة إلى أخرى، وحتى فترة قريبة كان التعذيب الجسدي والضرب والتكسير والشبْح على الكرسي والجدران وفي الخزانة أو الهز وسواها من وسائل فاشية قائمة ومستمرة...

أذكر أنني في أثناء التحقيق معي عام 1978 تعرضت إلى تعذيب جسدي ونفسي وللشبْح والضرب والإهانة والتحقير والتهديد، حيث كان المحققون يصرون على عضويتي في خلية فدائية فتحاوية نفذت مجموعة من العمليات الفدائية، وصدرت بحق عدد من أفرادها أحكام بالسجن المؤبد مدى الحياة، وما زال في السجن منهم اثنان من أقدم الأسرى هُما فخري البرغوثي «أبو شادي» ونائل البرغوثي «أبو النور».

وكان معظم المعتقلين آنذاك يتعرضون للتعذيب الوحشي بمختلف الأشكال، ولا أعتقد أنني تعرضت لأقسى وسائل التعذيب بل ربما تعرضت للمتوسط منها، وكان من أبرز ما تعرضت له الشبح، أي الوقوف مقيد القدمين واليدين إلى الجدار، ثم يوضع «كيس» كبير ونتن، ذو رائحة كريهة ويعيق التنفس على الرأس ويغطي الوجه. وهو طويل ومن المستحيل تحريكه يجعلك لأيام وأسابيع في حالة من الظلمة الدامسة. كان التحقيق متواصلاً ومن دون توقف، وفي إحدى المرات أصر المحقق (المدعو سامي) أن أقوم بخلع ملابسي بما فيها ملابسي

www.ibtesama.com

الداخلية، وأجبرني على الوقوف عارياً تماماً، الأمر الذي كان صعباً وشاقاً في حينه بالنسبة لطالب مدرسة لم يتعرَّ في حياته إلا وهو طفل، وأصر أن أقوم بفتح ساقي أسوة بـ..... كما قال، وبعد لحظات وجه ضربة صاعقة على أعضائي التناسلية، أغمي عليّ لشدتها تماماً، وأفقت لأجدني مستلقياً على الأرض وقد سال الدم من رأسي لارتطامه بالجدار الخشن حيث ترك جرحاً أبدياً في جبيني. وما كنت لأستيقظ من إغمائي إلاّ بعد سكب الماء على رأسي وأنحاء جسدي، وقال حينها المحقق سامي: «الآن، أعتقد أنك لن تستطيع إنجاب أطفال وستحرم مدى الحياة من الإنجاب لأن أمثالك لن ينجبوا سوى المخربين والقتلة».

العملاء

من المعروف أن أي قوة احتلال أو دولة استعمارية تقوم بتجنيد عملاء محليين لمعاونتها على تنفيذ خططها، ومن أجل اختراق صفوف الشعب ومقاومته، ومن أجل جمع المعلومات عن المقاومين. وإذا تفحصنا العديد من تجارب الشعوب نجد أن الدول الاستعمارية تمكنت في عدد من البلدان ليس فقط من تجنيد شبكة عملاء، وإنما أقامت في بعض البلدان جيوشاً وحكومات تابعة لها. وهذا ما فعلته ألمانيا النازية عندما غزت العديد من البلدان، حيث أقامت حكومات عميلة لها كما الحال في فرنسا عندما أقامت حكومة فيشي العميلة بقيادة الجنرال بيتان.

وكذلك أقام الغزاة السوفييت حكومات تابعة وعميلة لهم في العديد من الدول التي سيطروا عليها، وفي حالة الجزائر فإن الاستعمار الفرنسي تمكن من تجنيد عشرات الآلاف من المتعاونين والعملاء الذين قاتلوا في صفوف الجيش الفرنسي ضد الثورة الجزائرية، كما أن عشرات الآلاف من العملاء رحلوا بعد رحيل الاستعمار الفرنسي من الجزائر

www.ibtesama.com

مـع الفرنسـيين، ومـا زالـت حاضـرة التجربـة الأخيرة التي قـام بها الغزاة الإسرائيليون في لبنان حاضرةً، وذلك عندما احتلوا جنوب لبنان، وأقاموا منطقـة أمنيـة أشـرف عليهـا مـا سـمي بجيش جنوب لبنـان بقيادة العميل سعد حداد ثم أنطوان لحد، الذي انهار مع رحيل الاحتلال وهزيمته في الجنـوب عـام 2000، حيـث هـرب الآلاف مـن أفراد هذا الجيش العميل إلى داخل دولة الاحتلال في فلسطين.

أمـا فـي الحالـة الفلسـطينية فـإن إسـرائيل أقدمت علـى العديد من المحـاولات لخلـق البدائـل السياسـية والأمنية، ولكنها أخفقت وفشـلت فشلاً ذريعاً، وكان من أبرز هذه المحاولات «روابط القرى» التي انخرط فيها حفنة من العملاء وعدد من المغفلين ممن وقفوا معهم، ولكن هذه الروابط سـرعان ما شـعرت بالعزلة التامة، وولدت ميتة، ولقيت مقاومة عنيفة من أبناء الشعب الفلسطيني ومناضليه.

وقد حرصت المخابرات الإسرائيلية منذ عام 1967 على إقامة شبكة من العملاء لمسـاعدتها في تنفيذ مخططاتها الاسـتعمارية وفي مواجهة المقاومة الفلسـطينية، واسـتخدمت عشـرات الطرائق والأسـاليب لتجنيد العملاء، وابتدعت الكثير من الوسـائل والأسـاليب التي تطورها في كل مرحلة طبقاً لاحتياجاتها، واستخدمت سيطرتها المطلقة بالقوة العسكرية باعتبارها قوة احتلال على مجالات الحياة في الأراضي الفلسطينية كافة لتجنيـد العمـلاء، وفـي بعـض الأحيان للاكتفاء بضمان إبعاد البعض عن الانخراط في العمل الوطني والفدائي على الأقل.

وكمـا ذكـرت، فـإن هنـاك قسـماً خاصـاً يعنـى بجمـع المعلومـات وبالإشـراف المباشـر علـى المناطـق الفلسـطينية المختلفـة، ويكون لكل مربع أو منطقة سـكانية ضابط مخابرات مسـؤول ومشـرف عليها بما في ذلك الاتصال مع العملاء وتلقي التقارير وتشغيلهم وتجنيد المزيد منهم.

www.ibtesama.com

واستغلت إسرائيل سيطرتها على مجالات الحياة الفلسطينية والمقدرات والقطاعات لاختراق الصفوف وتجنيد العملاء. فمثلاً كانت تتحكم في منح وظيفة لكل مواطن فلسطيني يرغب في العمل في الجهاز الحكومي سواء أكان في قطاع التربية والتعليم أم في قطاع الصحة والضرائب ودوائر السير والشرطة المحلية أو غيرها من القطاعات. وكان الحاكم العسكري وضابط التربية مثلاً يصدران تعيين المعلمين والمعلمات بعد موافقة قِبَل المخابرات عليها وكذلك مختلف الدوائر، وكانت مثل هذه المسائل تستغل من المخابرات للضغط ولتجنيد العملاء. وكذلك كانت رخص قيادة السيارات تحتاج إلى موافقة المخابرات، وكذلك تصاريح مغادرة البلاد، أو الحصول على لم شمل العائلات، أو تصاريح زيارة من الخارج، أو تصريح عمل في المناطق المحتلة منذ العام 1948، ورخص بناء المنازل، ورخص إقامة مصانع أو منشآت صناعية إنتاجية أو مزرعة أو شركة أو محل تجاري.

ولم تتورع المخابرات الإسرائيلية عن استغلال حاجة الناس للعلاج في المستشفيات الإسرائيلية لتجنيد العملاء والضغط على المواطن الفلسطيني. هذا إضافة إلى الطلبات التي كانت المخابرات تستدعي فيها مئات المواطنين لتجند من بينهم العملاء، ولم يكن ثمة شيء خارج السيطرة الإسرائيلية حتى الحصول على رخصة نادٍ رياضي حيث كان ضابط الشؤون الاجتماعية يقوم بمنح الرخصة بعد موافقة المخابرات على إجراء انتخابات، ولا تعتبر الهيئة المنتخبة شرعية إلا بعد مصادقة المخابرات، وهي تقبل بعض الأسماء في الغالب وترفض أخرى، كما أنها حاولت اختراق البنية المجتمعية والعشائرية والتقليدية من خلال المخاتير والوجهاء وأئمة المساجد ورجال الدعوة.

ومع كل ذلك فإن الغالبية الساحقة من الفلسطينيين رفضوا رفضاً

www.ibtesama.com

مطلقاً التعاون مع المخابرات الإسرائيلية رغم الضغوط والتهديد بقطع أرزاقهم وفصلهم من عملهم ووظائفهم، وقد رفضت جموع شعبنا بكل إباء وكبرياء وطنية كل الضغوط، وقاومت الاحتلال وعملاءه، ولم يستطع الاحتلال النفاذ إلا إلى أصحاب النفوس الضعيفة والفئة الضالة والساقطة أحياناً والفاشلة والبائسة ممن يعانون من مشكلات اجتماعية أو أزمات في عملهم وحياتهم. وبالمناسبة فإن المخابرات لم تقدم لهؤلاء إلا مبالغ محدودة، وأحياناً جعلتهم وسطاء مع الجمهور للحصول للمواطنين على رخص مختلقة مقابل مبالغ مالية تعود لهؤلاء العملاء وربما يتقاسمونها مع ضباط المخابرات أيضاً. الغالبية الساحقة من هؤلاء العملاء هم ممن فشلوا في التحصيل العلمي، وممن تسربوا من المدارس مبكراً والتحقوا بسوق العمل الإسرائيلية، وممن تعرضوا لمشكلات أخلاقية أو اجتماعية في أماكن سكنهم، فاستغلتهم المخابرات الإسرائيلية وعرضت عليهم المساعدة. وهؤلاء في غالبيتهم يفتقرون إلى المعرفة والثقافة، ومستواهم التربوي متدنٍّ جداً، وغالباً هم ممن لم يتجاوزوا الصفوف الابتدائية والإعدادية، وقسم هام من هؤلاء ممن تورطوا في مشاكل وانحرافات ونبذهم المجتمع والتقطتهم المخابرات.

كما أنها استخدمت أحياناً بعض الشجارات العائلية المنتشرة في بعض التجمعات السكانية، ولعبت على وتر تصعيد هذه الخلافات، وقدمت المعونة لهذا الطرف أو ذاك، ساعدت الطرفين وجندت من بينهم. وإضافة إلى ذلك كانت تستغل بعض المتورطين في قضايا الحق العام ممن تقوم الشرطة باعتقالهم حيث يتم تجنيد العملاء من بين صفوفهم مقابل مساعدتهم في إغلاق ملفاتهم وتشغيلهم.

أما المهام الرئيسية التي كانت تكلفهم بها المخابرات فهي عديدة ومتنوعة اختلفت من مرحلة لأخرى باختلاف الأولويات من حقبة لأخرى.

www.ibtesama.com

وقد حرصت المخابرات على توزيع عملائها على الفصائل الفلسطينية مع التركيز أولا على التنظيم الذي يمارس الكفاح المسلح والعمل الفدائي، وهذا يحتل الأولوية في عمل المخابرات من حيث كشف الخلايا في مهدها قبل قيامها بعمليات فدائية. وإذا تعذر ذلك فكشفها يكون بعد التنفيذ. وتعمل المخابرات على تغطية جميع التجمعات السكانية من خلال العملاء بما يكفل تغطية المناطق كافة جغرافياً.

وثانياً على مستوى الفصائل الرئيسية المسلحة، وثالثاً على مستوى القطاعات، ورابعاً على مستوى فئات عمرية محددة مع إعداد ملفات مبكرة لها حول ميولها ونشاطاتها مستفيدين كثيراً من حالة التسيب العالية جداً لدى الفلسطينيين، ومن خلال العلنية في أغلب الأحيان خاصة خلال الربع الأخير من القرن المنصرم ومطلع الألفية الجديدة لدرجة أن العائلات معروفة الولاء، ولأي تنظيم تنتمي أو تناصر أو تؤيد، ومن يشارك في المظاهرات، ومن يقودها في المسيرات، ومن أكثر فعالية في النشاط المدرسي ثم الجامعات والمعاهد والأندية وفي القرى والمخيمات والمدن والمؤسسات والنقابات والاتحادات، ومن يملك سلاحاً، ومن يتدرب ومن يستطيع تصنيع المتفجرات، ومن يرتاد المساجد ويقوم بالتحريض إلى غير ذلك. ومعظم هذه المسائل معلومات بدائية وأولية توضع في الملفات أولا بأول.

وتستفيد المخابرات أيضاً مما يتم نشره على نطاق واسع في وسائل الإعلام المحلية من إذاعات وتلفزة محلية وصحف ونشرات ومجلات من تصريحات خاصة في زمن الفضائيات ولا سيما خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة.

أما أحد المصادر الهامة والحيوية لتجنيد العملاء فهو من بين الأسرى والمعتقلين، وتحديداً في المرحلة الأولى من الاعتقال ويحصل

www.ibtesama.com

علـى ذلـك فـي مرحلـة التحقيـق، ويشـكل المعتقلون مصـدراً هاماً جداً ومباشراً للمعلومات للمخابرات الإسرائيلية.

فـإذا علمنـا أنهـا اعتقلـت ما يقارب 750 ألف مواطن خلال العقود الأربعة الماضية، والاعتقالات ما زالت مستمرة حتى اليوم، فإننا نستطيع أن نعرف مدى المعلومات التي تحصل عليها من القسم الأكبر من هؤلاء، سـواء أكان بالضغـط والقـوة أو بسـبب الجهـل وانعـدام الخبرة والتجربة والمعرفة، وبسـبب عدم قيام الفصائل والتنظيمات بتدريب أفرادها على أسـاليب التحقيق والتعذيب، وأحياناً تحصل المخابرات على معلومات عامة من المعتقلين في أثناء التحقيقات وباعتبارات لا صلة لها بالقضية ولا يترتب على تقديمها أي أحكام أو أعباء، فإن المعتقل يتحدث عنها باعتبارها معلومات عامة ومعروفة وليس فيها جوانب أمنية، ويفترض أنه إذا كان عدد كبير من الأصدقاء والناس والناشطين من أصحابه يعرفونها في هذا التجمع أو ذاك فلا ضير من الحديث فيها.

وتسـتغل المخابـرات أجـواء التحقيـق، وحالة الرعب التي يعيشـها المعتقل، والخوف بسبب التعذيب، والرهبة خاصة بين المعتقلين لأول مرة. إذ بسـبب تحت الضغط النفسـي والجسـدي أحياناً يقع البعض في الفخ الذي تنصبه له المخابرات حيث يتم توريطه مقابل إغلاق الملف إذا كان بسيطاً أو تخفيف الحكم، أو مقابل المال والتسهيلات الخاصة مسـتقبلا، أو وعد الإفراج عنه في حال حصول عمليات إطلاق سـراح كانـت تقـوم بهـا سـلطات الاحتـلال فـي بعض المناسـبات مثـل الأعياد وشـهر رمضان، أو عبر المفاوضات وعمليات التبادل إذا حصلت رغم أنها في معظم الأحيان لا تلتزم بوعودها خشـية تراجع المفرج عنه عن اتفاقه معها. ولذلك، في الغالبية الساحقة من الحالات، تقوم المخابرات بتقديم وعد بتخفيف الحكم وتكلف المعتقل ببعض المهام داخل السجن

www.ibtesama.com

وتختبر استعداده ومدى التزامه حتى تضمن أنه تورط، وأحياناً من أجل أن يكتسب خبرة وتجربة، وأحياناً أخرى تقوم باعتقال بعض العملاء بالاتفاق معهم وتصدر عليهم أحكاماً وتكلفهم بالعمل في إطار تنظيم ما تزرعهم في صفوفه للقيام بمهمات تحدد لهم.

وفي الغالب، فإن أخطر العملاء هم هؤلاء بسبب حصولهم على غطاء وطني، واعتقالهم على خلفية وطنية، ومعظمهم يكونون أعضاءً في خلايا ومجموعات تابعة للفصائل، وانتموا بخلفية وطنية ولكن بعضهم يضعف في غرف التحقيق ويتورط. وتكمن خطورة هؤلاء بأن زملاءهم يظنون أنهم ممتازون ويكتسبون تجربة وخبرة في المعتقل، وربما يتدرجون في مواقع المسؤولية داخل التنظيمات ويتقدمون في مواقعهم، وبالتالي يشكلون خطورة بعد الإفراج عنهم بسبب قدرتهم على احتلال مواقع حساسة أحياناً.

غرف العار

خلال العقدين الأخيرين أو أكثر قليلاً، وفي أعقاب تمكن الفصائل داخل السجون من كشف العملاء بين صفوفها، وبعد تراكم الخبرة والتجربة الاعتقالية، وبناء خلايا أمنية تمكنت من كشف عدد من هؤلاء، وبعد انكشاف أمرهم وهربهم من بين المناضلين فقد عملت المخابرات على استحداث عمل خاص لهم داخل السجون والزنازين وغرف التحقيق، وقامت بتدريب هؤلاء على جر المعتقلين الجدد داخل الزنازين والتحدث إليهم بهدف كشف معلومات أخفوها في التحقيق. فهم يقدمون أنفسهم باعتبارهم معتقلين مثلهم، وتطلعهم المخابرات على طبيعة المعتقل الذي ترغب في الحصول منه على معلومات، وتعطيهم أسماءً مستعارة تنتسب لعائلات من منطقة ما لا يعرفها المعتقل، وقد

www.ibtesama.com

وقع المئات بل والآلاف من المناضلين ضحايا هذه الأساليب، فالعملاء يتم تزويدهم بأجهزة تسجيل من المخابرات، أو يتم وضعهم في زنازين خاصة توجد فيها أجهزة تنصت تفضي إلى غرف التحقيق مباشرة ويتم تسجيل المحادثة والنقاش، حيث يحمل العميل أسئلة خاصة من المخابرات محاولاً استدراج الأسير إلى أكبر قدر من المعلومات.

وبسبب نجاح هذا الأسلوب نجاحاً كبيراً ووقوع الكثيرين ضحية لهذا الفخ، فتحت المخابرات أقساماً جديدة خاصة بالعملاء داخل السجون يتصرفون فيها تماماً كالأسرى المناضلين والمجاهدين. وعندما تعجز المخابرات في التحقيق عن ابتزاز المعتقل أو إجباره على الاعتراف وتقديم المعلومات، تقوم بإرساله إلى هذه الأقسام أو **«غرف العار»** **أو «العصافير»** بحسب التسمية الدارجة في السجون، وتوهم المعتقل أنها أنهت التحقيق معه وأنه ذهب الآن إلى السجن عند إخوانه ورفاقه المناضلين، وعندما ينزل إلى قسم العار يستقبله العملاء بحفاوة ويقدمون له خدمات لافتة كالطعام الذي لم يره طوال فترة التحقيق، فضلاً عن توفيرهم له جواً هادئاً للنوم، ودعوته للصلاة الجماعية وتلاوة القرآن وعقد جلسة تنظيمية.

والعملاء في غرف العار يتوزعون على فصائل فتح وحماس وجهاد وشعبية، ويلتقونهم كممثلين عن هذه الفصائل، ثم تجلس معهم قيادة منهم ويقدّم أعضاؤها أنفسهم بأسماء مزورة لمناضلين معروفين لم يلتقِ بهم الأسير مباشرة قطّ، ثم يطلبون منه أن يحدثهم عما جرى معه في التحقيق وضرورة إبلاغهم بأي معلومات خطيرة وهامة تخص مجموعته في الخارج حتى يقوموا بوصفهم قادة التنظيم بالسجن بإبلاغ إخوانهم، أو بادعاء أن التنظيم في السجن يجب أن يعرف كل شيء.

قد يستمر المعتقل شهراً كاملا أو أكثر وهو لا يعرف أنه يعيش

www.ibtesama.com

في غرف العار، إذ غرف العملاء والعصافير، وفور إدلائه بالمعلومات تستدعيه المخابرات فوراً، ويعود للتحقيق، ويسمع ما أدلى به مسجلاً أو ما كتبه بيده حتى تكون إدانته نهائية ولا يستطيع معها الإنكار أو التهرب.

ويمكن القول إن أكثر من ستين بالمئة من الأسرى والمعتقلين خلال العقدين الأخيرين صمدوا في التحقيق أمام المخابرات ولكنهم وقعوا في فخ العملاء في غرف العار وغرف العصافير، وما زال هؤلاء الضحايا يقعون حتى كتابة هذه السطور، وفشلت كل الجهود لفضح هذه الظاهرة، وكلما تم الحديث عن ظاهرة ما وتم فضحها استحدثت المخابرات وعملاؤها شكلاً وأسلوباً جديدين.

لقد لعب العملاء دوراً مدمراً، وأوقعوا ضرراً كبيراً بالنضال الوطني الفلسطيني طوال العقود الماضية وحتى هذه اللحظة. وقد قاومت الفصائل الفلسطينية منذ انطلاقة الثورة الفلسطينية هذه الظاهرة بالوسائل كافة، وأقامت أجهزة أمنية لملاحقتهم وحماية الثورة وقياداتها ومكافحة التجسس، واعتقلت على مدار العقود عدداً منهم، كما تمت تصفية المئات أيضاً. ووصلت ذروة محاربة هؤلاء العملاء في الانتفاضة الشعبية الأولى حيث أعلنت الحرب على العملاء ولاحقتهم في كل مكان، وفي الوقت نفسه اتخذت قراراً حكيماً عندما أعلنت عن فتح أبواب التوبة والتراجع، شرط أن يتم ذلك علانية أمام الجمهور، وبالفعل قام المئات بالإعلان عن التوبة، ومنهم من انخرط في صفوف الانتفاضة وأصبح عرضة للمطاردة والملاحقة من مخابرات الاحتلال، بل إن بعض هؤلاء نفذوا عمليات فدائية بطولية بما في ذلك اغتيال ضباط المخابرات الإسرائيليين المسؤولين عنهم.

في ظل افتقار الفصائل في أثناء الانتفاضة الأولى داخل الأرض المحتلة لمؤسسات أمنية فقد ارتكبت أخطاء ليست قليلة، وتم قتل عدد

www.ibtesama.com

من المواطنين وتصفيتهم، وتبين لاحقاً أنهم أبرياء وذهبوا ضحية نزاعات وحساسيات اجتماعية وعائلية. كما أن البعض استغل هذا الأمر لكيل الاتهامات الباطلة هنا وهناك. وقد جرى تشكيل لجنة وطنية رسمية في م.ت.ف تم تكليفها بمراجعة الملفات، وصنفت عشرات الحالات على أنها لأناس أبرياء تم اتهامهم زوراً، وصرفت مخصصات مالية لأسرهم بعد تصفيتهم بالخطإ. ومع ذلك يمكن القول إن الانتفاضة الأولى وجهت ضربة قاسية لشبكة العملاء، وتعرضت المخابرات الإسرائيلية لحالة من الإرباك الشديد بسبب ذلك، واحتاجها الأمر وقتاً طويلاً للتغلب على انهيار شبكة عملائها وبنائها من جديد.

وكان من الواضح أنه كلما اشتد عود الحركة الوطنية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية كلما تضاعف جهد المخابرات الإسرائيلية في تجنيد العملاء، وبعد توقيع اتفاق أوسلو بين حكومة إسرائيل وم.ت.ف في 13/ 9/ 1993، وبعد الاعتراف المتبادل وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية في صيف عام 1994 وانسحاب إسرائيل من مراكز التجمعات السكانية في الضفة الغربية وقطاع غزة، نشطت إسرائيل للتعويض عن فقدان بعض مصادرها، وضاعفت قدرتها على تنظيم العملاء مقارنة بالفترة السابقة. وفي الوقت الذي كان الفلسطينيون ينتظرون فيه أن تقوم الأجهزة الأمنية الفلسطينية بملاحقة العملاء واعتقالهم ومحاكمتهم فإن النتائج جاءت مخيبة لآمالهم، حيث اقتصرت الملاحقة - إن حصلت - على أعداد بسيطة، بل إن المخابرات الإسرائيلية نشطت في هذه المرحلة في تجنيد العملاء من دون أن تتعرض لأي شكل من المضايقة أو المتابعة من أجهزة السلطة. وفي الوقت الذي دعت فيه السلطة ترك معالجة هذه الظاهرة لأجهزتها الرسمية، فإن الفصائل استجابت لهذه الدعوة، وابتعدت عن معالجة هذا الملف، معتقدة أن أجهزة السلطة ستقوم بهذا

www.ibtesama.com

الواجب. والحقيقة أن أجهزة السلطة لم تتابع هذا الملف بأي اهتمام أو فعالية تذكر، مما جعل المخابرات الإسرائيلية تشعر بالراحة في ممارسة نشاطها في مناطق السلطة، وفي ممارسة عملائها لعمالتهم من دون أي إعاقة أو ملاحقة. ويمكن القول إن المخابرات الإسرائيلية ركزت على تجنيد العملاء من بين العاملين في أجهزة السلطة الوطنية. حيث إنها لم تثق يوماً بالتعاون الأمني مع أجهزة السلطة، ولم تعتمد عليه إلا بقدر محدود جداً، وبالنسبة لها كان تجنيد عاملين في الأجهزة يشكل مصدر معلومات هامًا جداً بسبب قدرة هؤلاء بحكم عملهم ووظائفهم على الحصول على المعلومات التي ترغب المخابرات في الوصول إليها في ظل غطاء رسمي لعملهم ونشاطهم.

لقد وصلت خطورة العملاء إلى درجة غير مسبوقة منذ انطلاقة انتفاضة الأقصى المباركة، الانتفاضة الثانية، إذ لعبوا دوراً هو الأخطر منذ بناء المخابرات الإسرائيلية لشبكة العملاء بعد الاحتلال عام1967. فإذا كان دور العملاء سابقاً يتركز بالدرجة الأولى على جمع المعلومات وكشف الخلايا والمجموعات قبل تنفيذ العمليات، وتقديم المعلومات عن نشاط القادة والكوادر بهذا القدر أو ذاك، فإن هذا الدور وصل إلى ذروته في انتفاضة الأقصى؛ انتفاضة الحرية والعودة والاستقلال.

وعلى الرغم من تطوير المخابرات الإسرائيلية وسائل عملها وأساليبها واعتمادها على التكنولوجيا الاستخبارية بدرجة كبيرة فإن العنصر البشري ما زال هو اللاعب الرئيسي في أجهزة المخابرات بشكل عام.

صحيح أن المخابرات الإسرائيلية استفادت بقوة من خبرتها وتجربتها طوال العقود الماضية في السيطرة على حياة الفلسطينيين، إلا إن وجود السلطة الوطنية لم يتمكن من تحجيم دور المخابرات وعملها

www.ibtesama.com

ونشـاطها، وتعتمد إسـرائيل في عملها الاسـتخباري في الأرض المحتلة على مصادر كبيرة وكثيرة، ومن أبرزها التصوير الجوي على مدار الساعة لتزويـد الحاسـوب الإسـرائيلي بـأي تغييـر طفيف قد يطـرأ على التركيبة الجغرافية أو أي تعديلات تخص البنية التحتية أو شبكة الطرقات والأبنية، ويمكـن أن تظهـر الصـور بوضـوح حتـى في حالـة إضافة حمام أو غرفة هنا أو هناك في هذا المبنى أو ذاك أو إقامة جدار أو أي تغيير آخر.

والمصـدر الهـام الآخـر هـو مـا تقدمـه أجهزة التصنت على شـبكة الاتصـالات الأرضيـة والمحمولـة، ولعلهـا أكبـر جاسـوس يلعـب دوراً لصالح الاستخبارات الإسرائيلية ويقدم معلومات لا حصر لها. والمصدر الثالث هو ما يقدمه جيش الاحتلال وأجهزته ومؤسساته المنتشرة داخل الأرض المحتلة، وما يجمعه من معلومات مباشرة على الأرض. يضاف إلـى ذلـك شـبكة العمـلاء التـي تعتمد على العنصر البشـري وتبقى ربما المصدر الرئيسي الحاسم.

إن حجـم الاعتقـالات والاغتيـالات التـي قامـت بهـا المخابـرات الإسرائيلية في انتفاضة الأقصى أظهرت مدى قدرتها على التوصل لأقصى حدٍّ ممكن من المعلومات، وأظهرت الأحداث أن المخابرات لديها مصادر معلومات جيدة بما في ذلك شـبكة العملاء، مما مكنها إلى درجة كبيرة من مواجهة الانتفاضة والمقاومة ومن تسديد ضربات قاسية لها.

الإسـرائيليون لا يعيشـون في مدن ومخيمات وقرى فلسـطين بين السـكان، وليسـوا في الفصائل الفلسـطينية، فكيف يمكن لهـم الحصول علـى معلومـات دقيقـة جـداً أحياناً لولا شـبكة العملاء؟؟ لقد اسـتنفذت المخابـرات الإسـرائيلية كل مـا لديهـا من طاقـة ومخزون من الإمكانات والعمـلاء السـابقين واللاحقيـن وأعـادت تشـغيلهم على نحو فعال حتى تتمكن من مواجهة الانتفاضة وعمليات المقاومة. وتجدر الإشارة إلى أن

www.ibtesama.com

جميع الاغتيالات تقريباً ما كان لها أن تتم لولا شبكة العملاء، وما قدمه هؤلاء المجرمون من معلومات دقيقة في اللحظة والوقت المناسب، ومعظم الاغتيالات تمت بواسطة الصواريخ التي لا تعرف المكان ولا الأهداف المقصودة لولا التوجيه الدقيق المعتمد على المعلومات البشرية التي قدمها هؤلاء المجرمون.

وفي بعض الأحيان، فإن العملاء تجاوزوا دورهم في تقديم المعلومات ليشاركوا مباشرة في عمليات الاغتيال من خلال وضع العبوات الناسفة في السيارات، أو استقدام سيارات مفخخة تجهزها المخابرات الإسرائيلية، أو من خلال الهاتف المحمول «التفجير عن بعد» مثلما حصل مع الشهيد القائد المهندس يحيى عياش، أو مثلما اغتيل الشهيد القائد الرمز الرئيس ياسر عرفات الذي تم اغتياله بواسطة السم الذي دسه بالتأكيد أحد العملاء، وما كان يمكن للطائرة – أو التكنولوجيا – أن تحدد بدقة أو ترى الشيخ المجاهد والقائد أحمد ياسين خارجاً من المسجد إلا بمساعدة العملاء، وكذلك بالنسبة إلى مئات الشهداء من القادة والكوادر والمقاتلين.

ابتدعت إسرائيل وسائل شتى للاختراق، ولتجنيد العملاء في المجالات كافة. ولم يقتصر الأمر على الاهتمام بالمعلومات الخاصة بالنشاط العسكري والمسلح فقط بل امتد ليشمل التنصت على القرار السياسي وأصحابه. ومن أبرز الأدلة اكتشاف أجهزة التنصت في مكتب الرئيس محمود عباس وكرسيه، خلال فترة إقامته في تونس قبل اتفاق أوسلو. وقد تم ذلك من خلال العميل عدنان ياسين، أحد كوادر سفارة فلسطين في تونس الذي جندته المخابرات الإسرائيلية، وكلفته بزرع أجهزة تنصت والقيام بأنشطة أخرى مختلفة.

تستخدم المخابرات كل أشكال الخداع الاستخباري في عملها.

www.ibtesama.com

فمثلاً عندما كانت تعجز عن تجنيد عملاء من فصيل معين، كانت ترسل بعض العملاء للالتحاق بهذا الفصيل أو ذاك. وإذا لم تكن لديها القدرة على تجنيد أفراد في معسكر ما، كانت تحاول إرسال عميل يتجند لهذه المهمة، وقد صدف أن قامت المخابرات بعد اعتقال بعض «الرسل» ما بين قيادة الفصيل في الخارج وخلية ما في الداخل أن جندت الرسول وكلفته باستكمال المهمة وقامت مثلا بتصوير الرسالة ثم إغلاقها كما كانت واستقبال الردود لتصبح المراسلات تحت السيطرة.

عندما كان يتم تدريب خلية ما، وتكليفها بتنفيذ بعض العمليات الفدائية من خلال العبوات الناسفة التي انتشرت على نطاق واسع في السبعينيات والثمانينيات، وإذا تسنى للاحتلال اعتقال أحد أفراد الخلية، كانت تحاول استمالته. وحين تنجح في تجنيده كانت تطلب منه استكمال المهمة وتقوم بوضع العبوة «الصوتية» في المكان الذي تم الاتفاق عليه، وتعلن في وسائل الإعلام عن تفجير عبوة ناسفة حتى تبقى قيادة هذا العنصر واثقة به، بل وتزداد ثقتها به وتكلفه بمهمات جديدة، وأحياناً تكشف له عن مصادر السلاح وعن العمل مع خلايا أخرى لأنه يصبح موضع ثقة. ونحن هنا لسنا بصدد التوسع في هذا الأمر وإنما هذا من باب الإشارة والمثال فقط.

إن أهم ما أود الإشارة إليه في هذا الموضوع هو أن ظاهرة التجسس مرتبطة بالاستعمار والاحتلال ومنتشرة في المجتمعات كافة بهذا القدر أو ذاك، وتأخذ أشكالاً ومجالات متعددة ومختلفة لا حصر لها. وفي الحالة الفلسطينية، فإنه على الرغم من نجاح المخابرات الإسرائيلية في تجنيد شبكة من العملاء على درجة كبيرة من الخطورة إلا إنها أخفقت إخفاقاً تاماً في إقامة - أو إيجاد - جسم سياسي يواليها ويعبّر عن مصالحها، كما أخفقت في اختراق بنية المجتمع الفلسطيني، وخلق

www.ibtesama.com

تيار أو أتباع لها على أي مستوى كان. إضافة إلى إخفاقها في اختراق البنية القيادية الرئيسية لفصائل المقاومة. كما أن شبكة العملاء لم تتمكن بكل ما تملكه، من منع تنفيذ آلاف العمليات الفدائية الناجحة والبطولية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مشغليها. والغالبية الساحقة ممن يتم اعتقالهم أو حتى اغتيالهم يحدث لهم ذلك بعد تنفيذهم للعمليات وليس قبل التنفيذ. أي أن إسرائيل فشلت في الاختراق لدرجة تعطيل عمليات المقاومة بدليل استمرار المقاومة وتصاعدها وتعاظمها وتعزيز قدراتها وبنيتها.

ويعود الفضل في ذلك إلى أن الغالبية الساحقة وشبه المطلقة من أبناء الشعب الفلسطيني تحارب هذه الظاهرة الإجرامية وتنبذها. وسيبقى هؤلاء في نظر شعبهم فئة ساقطة محدودة جداً، وهم ضحية للاحتلال المجرم. وإن تصفية هذه الظاهرة مرتبطة بتصفية الاحتلال في نهاية المطاف. ولكن، يتوجب من أجل مواجهة هذه الظاهرة أن تلعب السلطة الوطنية وأجهزتها الأمنية والقضائية والإعلامية والتربوية دوراً أكبر في فضح هذه الجريمة ونبذها وتعريتها، وفي توعية أفراد المجتمع الفلسطيني بهذا الأمر على نحو أعمق وأشمل وأدق. كذلك فإن على الأجهزة الأمنية أن تقوم بواجبها الوطني في ملاحقة العملاء واعتقالهم ومحاكمتهم، وفي استحداث أقسام قوية ومنيعة لمكافحة التجسس وعدم التهاون مع هذه الجرائم.

كما يجب على الفصائل كافة أن تزيد من وعي أفرادها وأعضائها، وأن تشمل عملية التأطير والتنظيم والتدريب ثقافةً أمنيةً في مواجهة وسائل المخابرات وأساليبها، وفضحها، وتعريف المناضلين كافة بوسائل عمل المخابرات، وتقديم الخبرة والتجربة، وفضح وسائل تجنيد العملاء، والتحذير منها، وفضح ألاعيب المخابرات في أثناء التحقيق والوعود الكاذبة، والتحذير من فخ العملاء في الزنازين وغرف العملاء، والتشديد

www.ibtesama.com

علـى جميـع المناضليـن بعـدم تقديـم معلومـات لأي كان لأن التنظيـم في السجن لا يسأل أحداً عن المعلومات التي لديه وليس من حقه فعل ذلك، ولا تجوز كتابة أي تقرير، أو الحديث مع أحد والإدلاء بأمور لم يصرّح عنهـا لـدى التحقيـق معـه مـن قبل جهاز المخابرات، ولا يجوز لأي معتقل أن يفـرط فـي معلومـات يملكهـا ويؤتمـن عليهـا، وليس مـن حقه تقديمها للمخابـرات ولا لعملائهـا، ويتوجـب أن يعـرف أن هـذه أمانة مقدسـة غير قابلة للتفريط بها مهما كانت بسيطة ومحدودة.

ومن الجدير بالذكر أن المخابرات الإسرائيلية ليست مستعدة لعمل أي شيء لإنقاذ عملائها ومن قدموا لها الخدمات، ونتذكر جميعاً كيف تعاملت مع العملاء الهاربين من وجه الانتفاضة الشعبية الأولى، وكيف رفضت تزويدهم بالهوية الإسرائيلية أو الجنسية الإسرائيلية، وقدمت لهم مساعدات محدودة جداً ودفعت بهم وبعوائلهم إلى الشوارع، وأسكنتهم في أماكن حقيرة وبائسة، وحرمت أطفالهم وعائلاتهم من أدنى الخدمات الإنسـانية، ودفعـت بالبعـض منهـم للسـكن في القرى الفلسـطينية داخل الخـط الأخضـر فـي الجليـل والمثلث والنقـب، غير أن أهلنا هناك نبذوا هـؤلاء العمـلاء ورفضـوا اسـتضافتهم وفرضوا عليهم طوقاً من المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية والخدماتية.

بعد إقامة السـلطة، ولجوء عدد من العملاء إلى إسـرائيل هرباً من شـعبهم، فقـد عاملتهـم المخابـرات معاملـة احتقـار وإذلال كـي لا أقول معاملـة الـكلاب لأن الإسـرائيليين يعاملـون كلابهـم أفضـل بكثيـر مـن معاملتهـم العمـلاء المجرميـن وضحايـا الاحتـلال فـي آن معاً؛ بل وأكثر من ذلك فإن المخابرات عمدت إلى كشف عدد من العملاء المحروقين نسـبياً وسـهلت مهمـة تصفيتهـم لأهـداف ومصالح خاصـة بها. والجدير بالذكر أن مئات في العملاء الذين تمكنت إسرائيل طوال العقود الماضية

www.ibtesama.com

من الإيقاع بهم في مصيدتها في أثناء اعتقالهم والتحقيق معهم ووعدتهم مقابـل عمالتهـم بتخفيـف أحكامهـم وإطلاق سـراحهم قد كذبت عليهم ودمرت حياتهم وأبقتهم في سجونها لخدمتها.

يتوجب أن نعرف أنه لا يمكن للمخابرات أن تثق بمن يخون شعبه أو تحترمه. وأن أحداً في هذا العالم لم يحترم ولن يحترم من يخون شعبه وأبناء جلدته وأمته ورفاقه. وهذا يتطلب مرة أخرى أن يعي كل مناضل ومواطن فلسـطيني أن مصيره مرتبط بمصير شـعبه، وبمصير نضال شـعبه العظيم وكفاحه وجهاده، وأن الضعف في لحظة محددة يتوجب الانتصار عليـه. وهـذا يسـتدعي مـن جمـوع المناضليـن التنبـه واليقظـة الدائميـن، والابتعاد عن الثرثرة وتقديم المعلومات المجانية حتى للأصدقاء والأقرباء والموثوقين، إن معلومات المناضل أمانة في عنقه، وعليه أن يحافظ عليها كما يحافظ على كل ما هو مقدس وجميل في حياته.

إن مزيداً من التوعية والتثقيف والتعبئة سيشكل درعاً حصينة أمام الاختراق، وهذا ما يتوجب أن تهتم به المؤسسـات الرسـمية الحكومية والشعبية، والفصائل، وعلى مستوى الأسرة والبيت والمدرسة والجامعة ومـكان العمـل والأنديـة والتجمعـات. ويتوجـب التنبيـه من مخاطر هذه الآفـة واعتبارهـا جريمـة وخيانـة لا رحمة فـي مواجهتها واقتلاعها، ومن غير المقبول بقاء هذه الظاهرة عند شعب عظيم قدّم نموذجاً يحتذى في التضحية والصمود والفداء، شعب مثّل أسطورة أمام شعوب الأرض في مقاومته وشجاعته وصلابته وصموده، وقدّم أبناؤه نموذجاً في التضحية والفداء والاستشهاد.

من المفيد الإشارة مرة أخرى إلى أهمية أن تقوم الفصائل بتعليم أعضائها وأنصارها ومقاتليها وتوعيتهم وتثقيفهم على وسـائل وأسـاليب التحقيـق والتعذيـب فـي زنازيـن الاحتـلال، وأنه يجـب على كل مناضل

www.ibtesama.com

أن يـدرك أن العمـل الوطنـي تضحيـة وفـداء مـن أجل الوطن والشـعب؛ وهما قيمتان سـاميتان لا يعلو عليهما شـيء، وأن النضال والكفاح من أجل حرية الشعب والوطن وعودة المشردين واستقلال البلاد من أرقى وأعلى درجات الشـعور الإنسـاني، وعلى المناضل والمجاهد والمقاتل إدراك أن شـعبنا العظيم يقدم التضحيات على مدار مئة عام في سـبيل الوطن المقدس بلا توقف ومن دون تردد، وأن النضال والجهاد في سبيل الوطن وحريته واجب وطني وقومي وديني وإنساني مقدس.

www.ibtesama.com

التاريخ يشهد

لم يزدني السجن إلا إيماناً بعدالة قضية شعبي. ولم تنل زنازين العزل الانفرادي من إرادتي وعزيمتي وقناعتي ومبادئي. وما زلت على إيماني الراسخ بكل ما قلته في «المحكمة الباطلة» في تل أبيب يوم 2003/9/29:

«أود التأكيد على رفضي للمحكمة ورفضي المثول أمامها، وعدم اعترافي بشرعيتها. فهي جزء لا يتجزأ من الاحتلال الإسرائيلي، وتعمل لخدمته. فأنا عضو برلمان فلسطيني منتخب، وقائد وطني فلسطيني، أمثل شعبي الفلسطيني، وقمت بواجبي في هذه الانتفاضة، وليس من حق دولة إسرائيل اختطافي أو محاكمتي أو التحقيق معي. وأنا أرفض المحكمة بشكل مطلق، وأرفض التعاون معها والاعتراف بها، كما أرفض أن يدافع عني أي محامٍ وأرفض مناقشة لائحة الاتهام الباطلة.

وللتاريخ أقدم مرافعتي هذه التي لا علاقة لها بلائحة الاتهام، وكل ما يصدر عن هذه المحكمة باطل ببطلان الاحتلال (...)».

لقد قدمت مرافعةً مُسهبة أمام التاريخ لا أمام محكمة ينبغي لها أن تُحاكَم (بفتح الكاف) لا أن تحاكِم (بكسر الكاف)، متوخياً الشرح المفصل لإفهام الرأي العام حقيقة ما جرى في سنوات الاحتلال، وكيف زورت إسرائيل التاريخ والجغرافيا معاً، وكيف تنصلت من كل اتفاقياتها والتزاماتها بحيث إن الفلسطينيين وصلوا إلى قناعة مفادها أن إسرائيل لا تريد سلاماً معهم، وأنها تصر على استمرار العدوان وحرب الإبادة، وأنه

www.ibtesama.com

لا يوجد شريك للسلام في إسرائيل، وأنه يتحتم على الشعب الفلسطيني مقاومة الاحتلال.

إن الفلسطينيين لهم الحق الكامل في مقاومة الاحتلال وبطشه وجرائمه. وهو حق كفلته الشرائع السماوية والمواثيق الدولية. أوليس من حقّ الشعب الفلسطيني الذي يرزح تحت الاحتلال والعذاب والاضطهاد أن يقاوم؟؟؟ بل إنّ واجبه هو أن يقاوم الاحتلال.

إن المقاومة التي مثّلتها الانتفاضة تعبيرٌ عن إرادة الشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال، إن الإسرائيليين يخطئون إذا اعتقدوا أن دباباتهم وطائراتهم يمكن أن تهزم أو تكسر إرادة شعب يتطلع إلى الحرية والاستقلال وسيادة الكرامة. إن إسرائيل تستطيع أن تهزم جيشاً ما، أو حكومة ما، أو سلطة ما، أو حزباً ما، أو تنظيماً ما، أما أن تقهر الشعب الفلسطيني أو تهزمه، فهذا محض أوهام ليس إلاّ. إن ممارسة النضال والكفاح تعبير عن إنسانيتنا. إن ممارسة النضال ممارسةٌ للحرية، إن الانتفاضة هي حركة استقلال الشعب الفلسطيني.

إن اعتقالي، والتحقيق الوحشي الذي تعرضت له على أيدي المحققين الإسرائيليين، ومحاكمتي ما هي إلاّ محاولة لإذلال الشعب الفلسطيني استناداً لكوني قائداً منتخباً يمثل إرادة شعبه التواق للحرية والاستقلال.

إن مشاركتي في الانتفاضة الفلسطينية ممارسةٌ وأداء لواجب وطني ينطلق من واجب المواطنة، وواجب النائب المنتخب والقائد الذي يقوم بتحمل مسؤولياته تجاه شعبه، وإن الانتفاضة هي حركة استقلال للشعب الفلسطيني، تمثل ضمير شعب فلسطين وإرادته من أجل الحرية والاستقلال.

إن مقاومة الاحتلال ممارسةٌ للحرية وجزءٌ من ممارسة الحس

www.ibtesama.com

الإنساني والمشاعر الإنسانية، إنها إعلان صريح وواضح لرفض الاحتلال وجرائمه. وهي إعلان صريح لرفض صيغة الأسياد والعبيد. إن الانتفاضة هي حركة الشـعب الفلسـطيني الاسـتقلالية من أجل أن نكون أسـياداً في بلادنا ووطننا وأن نمارس حريتنا في إطار دولتنا الفلسطينية كاملة السيادة.

انتهى

www.ibtesama.com



www.ibtesama.com